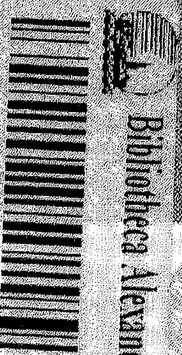
التصوف والمتصوفة

في مواجهة الإسلام

عبد الكريم الخطيب





ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي



عبد الكريم الخطيب

التصوف والمتصوفة

في مواجهة الإسلام

الطبعة الأولى

١٩٨٠

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

دار الاتحاد العربى للطباعة
لصاحبها : محمد عبد الرازق
١٩ كنيسة الأرمن ش الجيش
تليفون ٩٣٤٠٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

« الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، إياك نعبد ، وإياك نستعين ، إهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين » آمين .. وصلى الله على سيدنا محمد ، إمام المرسلين ، وخاتم النبيين ، السراج المنير ، والرحمة المهداة ، أرسله الله تعالى على فترة من الرسل : كانت الإنسانية فيها قد ارتكست في الضلال وغرقت في بحار الأوهام ، فأسلمت قيادها إلى الشيطان ، وأولياء الشيطان ، يزينون للناس المنكرات ، ويعمون عليهم سبيل الحق ، ويسوقونهم سوق الأنعام إلى حيث يقدمونهم للذبح قربانا لأهوائهم وشهواتهم ، فكان صلوات الله وسلامه عليه المؤذن بكلمات الحق سبحانه : « يا أيها الناس ، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم »[1] فشرح الله بذلك صدورا ، وشفى قلوبا ، وأقام من الناس للناس أئمة ، تتمثل فيهم الإنسانية الصورة الكاملة للانسان في أعلى منازله وأصفى موارده ، .. فصلوات الله وسلامه عليك يا رسول الله ، وعلى آلك ، وأصحابك ، والتابعين ، ومن اهتدى بهديك وتأسى بسيرتك ، وأحيا سنتك ، إلى يوم الدين .

---

(١) سورة الحجرات : ١٣ .

وبعد ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «الدين النصيحة : الدين النصيحة .. الدين النصيحة .. قالوا لمن يا رسول الله ؟ قال : لله ، ولرسوله ، ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم » (١) .

أما النصيحة لله ، فهى فى النصح لدينه ، وفى الذود عن حياضه ، ودفع البدع والضلالات التى تساق إلى حماه الطهور ، فتعكر موارده ، وتطمس معالم الطريق إليه ، فيتحاشاه الذين يريدونه ، ويجفوه الذين يدينون به ، فلا يجدون منه الوازع الذى يقيمهم على حدوده ، ولا السلطان الذى يأتمرون بما أمر ، وينتهون عما نهى ..

وأما النصيحة للرسول ، فهى بإحياء سنته ، واتباع سبيله وإمساك اللسان عن القول بما لم يقله ، من الأحاديث الموضوعة التى افتراها المفترون ، انتصاراً لمذهب باطل ، أو احتجاجاً لعقيدة فاسدة ..

وأما النصيحة لكتابه ، فتكون بتلاوة آياته وتدبرها ، والعمل بها ، والتصدى للتأويلات الباطلة التى يتأولها الباطنية ، والصوفية ، وغيرهم ، ممن يحادون الله ، ويتجرون بدين الله .

وأما النصيحة لأئمة المسلمين ، فهى بمناصرتهم بالحق ، وبإخلاص المشورة لهم ، والجهر بكلمة الحق عندهم ، وتحذيرهم ممن يلوذ بهم من أهل الملق الذين يزينون لهم المنكرات ، ويغرونهم بالفواحش ، ويبيحون لهم ما حرم الله ، من دماء وأموال وأعراض ..

وأما النصيحة لعامة المسلمين ، فتكون بالدعوة إلى الخير ، وبالأمر

(١) رواه البخارى .

بالمعروف والنهى عن المنكر : كما يقول تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون »[١] .. وإن من النصح للمسلمين أن يكون المسلم فى ذات نفسه أولا — مثلا كريماً لأهل الإيمان، فى الاستقامة على ما يدعو إليه الإسلام ، من أداء حقوق الله ، وحقوق العباد ، فلا يقصر فيما افترض الله تعالى عليه من فرائض ، ولا يتعدى حداً من حدود الله ، كما لا يقصر فيما للعباد من حقوق عليه ، ولا يعتدى على حرمة من حرماتهم .. فإن مثل هذا المسلم يكون منارة هدى ، يعشو الناس إلى ضوئها ، وراية خير يجتمعون عليها ..

فإذا كان النصح لله ، ولرسوله ، ولكتابه ولأئمة المسلمين ، عامتهم ، دستوراً قائماً على المسلمين ، وعقداً موثقاً بينهم ، وسنة متبعة عندهم ، كان لهم عندئذ أن يروا فى أنفسهم ما وصفهم الله تعالى به فى قوله سبحانه : « كنتم خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »[٢] ..

●★●

وإذا كان النصيحة لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم ، أمراً ملزماً واجبا على كل مسلم ، أياً كان مكانه فى الجماعة الإسلامية ، فإن كان المسلم من أهل العلم والفقه بدين الله ، كان هذا الأمر بالنسبة إليه ألزم وأوجب ، ثم إنه إذا شاع الفساد ، واستشرى الشر ، وعم البلاء ، لم يكن هذا المفروض على العلماء فرض كفاية ، بل إنه يصبح فرض عين ، فإن

---

(١) سورة آل عمران : ١٠٤
(٢) سورة آل عمران : ١١٠

قصر عالم فى أدائه كان حسابه عند الله عسيراً ، وجزاؤه من العذاب مضاعفاً ، وليس يقوم له عذر أنه لم يكن من أشياع هذا الفساد ، ولا من المشاركين فى هذا الشر ، ولهذا وقعت لعنة الله على اليهود جميعاً ، عامتهم ، وربانييهم وأحبارهم ، كما يقول تعالى : « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون[1] » .

ويقول رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه : « إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل ، أنه كان يلقى الرجل الرجل ، فيقول : يا هذا : اتق الله ، ودع ما تصنع ، فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد ، وهو على حاله فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه ، وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم على بعض » ، ثم تلا صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون » (رواه أبو داود والترمذى) .

●★●

والأمة الإسلامية فى يومنا هـــذا ، وقد تفشت فيها العلل وتغشتها الضلالات وتزاحمت عليها البدع التى تتوالد فى سرعة مذهلة ، كما تتوالد الجراثيم ، حتى تداعت على المسلمين الأمم ، كما تتداعى الأكلة على قصعتها ، تمتص دماء الحياة فيهم ، وتصبغهم بألوان غريبة من أخلاقها ومعتقداتها ، وتسوقهم سوق الراعى لقطيعه — نقول : الأمة الإسلامية وتلك حالها فى

---

(١) سورة المائدة : ٧٨ — ٧٩ .

يومنا هذا ، هى أشد ما تكون حاجة إلى الأساة الذين يعرفون إلى مواطن الأدواء منها ، وإلى الطب لتلك الأدواء ، حتى تنزاح عللها ، وتذهب أسقامها وتتنسم أنسام الصحة والعافية ، لتسترد ما سلبت يد الأيام منها ، وإلا أخذها الله — لا قدر الله — بما أخذ به الأمم التى لعبت بها ريح الأهواء وأغرقتها أمواج الضلالات ، والله تعالى يقول : « ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم ، حتى يغيروا ما بأنفسهم[١] » .

ويقول سبحانه : « وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا ، وجعلنا لمهلكهم موعدا »[٢] ويقول جل شأنه : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا »[٣] .

ويقول الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — « لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، ثم لتأخذن على يد الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطراً ولتقصرنه على الحق قصراً[٤] أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض ، ثم يلعنكم كما لعنهم »ـ أى بنى إسرائيل ـ فى قوله تعالى : « لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل ، على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون »[٥] .

---

(١) سورة الأنفال ٥٣ .
(٢) سورة الكهف : ٥٩ .
(٣) سورة الاسراء : ١٧ .
(٤) أطره أطرا على الشىء : حمله عليه ، بالقوة والقهر ، وقصره على الشىء : الزمه اياه ، وأمسك به عليه .
(٥) سورة المائدة ٧٨ — ٧٩ .

وفى المجتمع الإسلامى طوائف كثيرة ، تضم فى صفوفها اليوم ملايين من المسلمين ، تحت راية التصوف ، الذى يزاحم بمتصوفيه الجماعة الإسلامية فى مساجدها ودور عباداتها ، دالا على نفســه بشارات مميزة لأتباعه بأزيائهم ، وعمائمهم ، وبمسبحاتهم ومجامع أذكارهم ، وما يصحب هذه الأذكار ، من تصفيق بالأيدى ، وضرب بالأرجل ، ورقص بالأجسام ، إلى غير ذلك مما يجري فى عالم المتصوفة .

والناس فى هذا بين منجذب إلى هذا الضرب من العبادة ، وفى حسابه أن هذا هو الطريق إلى الله ، وبين منــكر له ، مشفق على أهله أن يحترقوا بناره ، كما يحــترق الفراش بالنار ! ! وبين هؤلاء وهؤلاء من وقفوا من التصوف والمتصوفة موقف الحيرة والشــك ، يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى ، يتنازعهم رغب ورهب . . رغب فيما يخيل إليهم من خير يرجونه من وراء هذا الأفق الذى يبرق ببروق الأمانى الواعدة بغيوث الفتوحات والتجليات . . ورهب من أن يكون هذا البرق خلباً ، لا يجيء من ورائه إلا الصواعق المهلــكة المدمرة ! .

ولو أن التصوف كان سلوكاً فردياً ، يعيش به المتصوف فى حدود ذاته ، غير مرتبط بتلك السلســلة الطويلة : من الشيوخ ، والتلاميذ ، والمريدين ، لما لفت الأنظار إليه ، ولا شغل الناس به ، ولــكان خيره أو شره محصوراً فى دائرة أفراد هنا ، أو هناك ، فى الجماعة الإسلامية ، دون أن يكون أمره مستحوذاً على جماعة كبيرة فى الأمة الإسلامية ، كما هو مشهود اليوم من طوائف المتصوفة ، وما ينضوى تحت كل طائفة من ألوف مؤلفة ، لا يكاد يحصيها المحصون .

وأما التصوف ظاهرة بارزة ، تتحرك فى المجتمع الإسلامى بسماتها ، وشاراتها ، وطقوس عباداتها — فإن تأثيرها فى الجماعة الإسلامية ، لا يمكن تجاهله ، أو الاستخفاف بآثاره السيئة أو الحسنة : اجتماعياً ، واقتصادياً ، وسياسياً .

ومن هنا كان لا بد من دراسة هذه الظاهرة -- ظاهرة التصوف — الحادثة فى الإسلام — والكشف عن صلتها بالإسلام ، وقربها أو بعدها منه ، وذلك ليكون المسلم على بينة من أمره إزاء التصوف ، قبولا أو رفضاً : « ليهلك من هلك عن بينه ، ويحيا من حى عن بينة » (سورة الأنفال : ٤٣) .

● ✱ ●

ودراستنا لهذه الظاهرة — ظاهرة التصوف -- ومعالجتنا لها فى هذا البحث ، إنما هى محاولة منا للكشف عن حقيقة هذه الظاهرة ، وعن صلتها بالإسلام : وهل هذا التصوف يمثل المثل الأعلى للمسلم ، فى الوصول إلى مقام القرب من ربه ، والتعرض لنفحات رحمته ، ومواقع رضوانه ، كما يقول المتصوفة . . أم أنه بدعة حادثة فى الإسلام ، يصدق عليها قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه ، فهو رد »[١] وقوله — صلوات الله وسلامه عليه — : « من رغب عن سنتى فليس منى »[٢] وقوله : « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى ، تمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة » ![٣]

● ✱ ●

(١) الحديث عن عائشة ، كما أخرجاه فى الصحيحين .
(٢) الحديث عن ابن عمر ، كما أخرجه البخارى .
(٣) أخرجه الترمذى ، وقال هذا حديث حسن صحيح .

والأمر الذى يتناوله هذا البحث ، هو أمر خطير ، يمس ضرباً من ضروب السلوك الذى يتخذ مظهراً من مظاهر الدين ، والذى يتمثل لأصحابه منه ، أنه المثل الأعلى لهذا الدين ، ومن أربابه ومريديه ، يكون الأولياء والصالحون من عباد الله ! !

ومن هنا كانت المسئولية أمام الله عظيمة فى الحكم على التصوف وأهله ، بما يحمد أو يذم من هذا الطريق وسالكيه .

ومن أجل هذا كان على ينصب نفسه للقضاء فى تلك القضية ، أن يتجرد ما استطاع من الهوى ، وألا يتعجل الحكم فيها ، لأية بادرة تبدو له من وجوه الحق أو الباطل ، فى التصوف والمتصوفة ، بل إن عليه واجباً ملزما أن ينظر ، وأن يطيل النظر ، وأن يدرس هذه الظاهرة من جميع جوانبها ، وأن يرصد آثارها فى المجتمع الإسلامى ، منذ بدء ظهورها ، إلى يومنا هذا . فاذا اطمأن إلى كلمة الحق فى تلك الظاهرة ، أعلنها على الناس ، شهادة يلقى بها ربه ، ولا عليه أن يرضى من يرضى ، أو يسخط من يسخط ، فان الحق أحق أن يتبع .

وأشهد أنى قد بذلت غاية جهـــدى فى صرف النفس عن النظر إلى ما يرضى الناس أو يسخطهم ، فان أكن قد أصبت موقع الحق ، ووفقت إليه ، فذلك من فضل الله ، وبهديه وتوفيقه ، وإن يكن الأمر على غير هذا ، فمن عجزى وتقصيرى ومن وراء ما انتويت وأردت : « وإنما الأعمال بالنيات » وإنه « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » .

●★●

هذا ، ولا بد من الإشارة فى هذا التقديم إلى حادثة جرت لى منذ

سنوات ، كان لها وقع شديد على المتصوفة ، كما كان لها وقع شديد أيضاً على المسئولين من رجال الدولة ، الذين يخشون ثورة المتصوفة ، وإن كانوا على بغضة لهم ! !

وكان ذلك منذ نحو أربع سنوات ، حيث كنت على موعد للقاء بعض الأصدقاء فى مسجد الحسين ، رضى الله عنه ، عصر يوم من أيام رمضان ، وذلك لمشاهدة رجل يشيعون عنه أنه من أهل العلم اللدنى ، يتكلم فى تفسير القرآن ، وهو شبه أمى كما يزعمون .

ورأيت الرجل ، وسمعت بعض ما يقول ، فما رأيت منه إلا جهلا ، وما سمعت منه إلا أخلاطاً من الكلام ، يحملها الملتفون حوله أسراراً متلقاة من عالم الغيب ، كما يزعمون ، فيهللون له ، ويكبرون !

وتركت الرجل ، وسألنى أحد أصدقائى : ما رأيك ؟ فقلت : إما أن يكون الرجل صائداً أو صيداً ! ! قالوا ما معنى هـذا ؟ قلت : قد يكون الرجل مشعوذاً خدع هؤلاء الملتفين حوله ، الهاتفين بولايته . . فهو صائد ! ! وإما أن يكون قد وقع فى يد مشعوذ من هؤلاء المتجمعين عليه ، ليستهوى به الناس ، ويغرر بهم ، فهو صيد ! !

وهنا اعترض على أحد الأصدقاء ، وقال : إنك تنكر كرامات الأولياء فقلت : أنا لا أنكر أن هناك أولياء لهم كرامات ، ولكن الذى أنكره هو ادعاء الولاية لكل مخبول أو مجذوب ! ! ثم إن الولى لا ينادى على نفسه أنه ولى ، كما يفعل أصحاب الألعاب السحرية ، الذين يعرضون أعمالهم السحرية على الناس فى الميادين والطرقات ! !

وهنا هتف بى أحدهم قائلا : وماذا تقول فى هـذا الحديث الشريف

المكتوب على الباب الموصل إلى ضريح الحسين ، رضى الله عنه ؟ فقلت : أى حديث هذا ؟ قال : تعال انظر واقرأ ! !

فدنوت من الباب ، وإذا مكتوب على أعلاه ، بالخط البارز ، المموه بماء الذهب ما يأتى :

« عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال عن الحسين رضى الله عنه : الشفاء فى تربته ، والاستجابة تحت قبته ، والأئمة من ذريته أو عترته » .

وأشهد أننى وقفت مذهولا ، ينتفض جسدى كله ، من رعشة كرعشة المحموم ، ثم ما كدت أجدنى قادراً على الحركة حتى انفلت من بين أصحابى من غير التفات إليهم ، إلى بيتى !

وفى البيت ، جلست مهموماً مغموماً ، لا أدرى ماذا أفعل فى وجه هذا المنكر الغليظ ، الذى ينادى به فى الناس ، على مشهد ومسمع من علماء الدين وشيوخ الأزهر ، وهو على بعد خطوات منهم ، لا ينكرونه ، ولا يطمسون معالمه ! !

ثم نظرت فى كتب الأحاديث ، فلم أجد لهذا الحديث المكذوب مكاناً فى الصحيح ، أو الضعيف منها . . ثم نظرت بعد هذا فى الموضوعات ، فلم أجد له مكاناً فى الأحاديث الموضوعة ! !

وهنا تأكد لى أن هذا مولود من مواليد الشؤم التى ولدت فى هذه الأيام ، على لسان المتصوفة ، أو الشيعة ، وهما على طريق واحد فى هذا الاتجاه الذى يعلى من شأن الأضرحة ، وادعاء الأكاذيب على الأموات الذين تضمهم تلك الأضرحة !

ولم أجد بداً من أن أعمل عملا ، أبرىء به ذمتى ، وأستبرىء فيه لدينى !

فكتبت مقالا تحت عنوان : « إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير » . وتناولت فى المقال كذب هذا الكلام المكتوب على باب الحسين ، وأنه منكر ، يجب أن ينتبه إليه أولو الأمر ، وأن يعملوا على محوه وطمس معالمه ، لأن هذا من الفاحشة التى تشيع فى الذين آمنوا ، والله تعالى يقول : « إن الذين يحبون تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون » (النور : ١٩) :

وقد أقمت الأدلة والبراهين على كذب هذا المكتوب على باب الحسين وذلك لأقيم الحجة على من بيدهم الأمر لحماية المجتمع المسلم من آفات الكيد الذى يكاد له به ، من البدع والخرافات ! !

وقد نشر هذا المقال فى صحيفة الأخبار القاهرية ، حيث استغرق نحو صفحة كاملة منها .

وإنه نظراً لخطورة الموضوع ، فقد بعثت «الأخبار» بمصورها إلى المسجد فصور هذا الحديث المكذوب ، وصور معه المنبر القائم على يمين الباب الموصل إلى الضريح . . ونشرت هذه الصور على رأس المقال .

وفى الصباح اطلعت على المقال ، مؤيداً بالصور ، ففزعت لأنى خشيت أن يؤدى ذلك إلى ثورة ، قد يهدم بها المسجد كله ! ! هكذا كان ظنى بالمسلمين وغيرتهم على الدين الذى يدينون به .

ولكن الذى حدث كان على غير هذا تماماً .. حيث كانت الثورة متجهة إلى ، وإذا أحاديث تليفونية كثيرة ترد إلى من أشخاص معروفين وغير معروفين ، يرمونني بالتهجم على سبط الرسول ، صلوات الله وسلامه عليه والمعاداة لآل البيت . . وكان موقفى هو الاستماع ولا رد ! !

وأغرب ما طرق سمعى من حديث فى هـذا الأمر ، ما حدثنى به أحد الوزراء المسئولين ، القائمين على التوجيه الدينى فى مصر ، إذ قال لى : يا فلان : ماذا تريد بهذا الذى نشرته اليوم ؟ أتريد أن تثير علينا العامة ؟ فقلت له : ما قولك أنت فى هذا الحديث ؟ فقال ، ليس مكذوباً ، وهو مكذوب فعلا . ولكن التعرض له يشعل فتنة ، ويقيم ثورة من العامة ، وأشباه العامة ! ! فقلت له : إذن فأنا قائم منذ اليوم بتعليق صورة لأى ممثل ، مسلم كان أو غير مسلم ، على ضريح الحسين ، مكتوب عليها : الحسين بن على ، فى موقعة كربلاء » وسأطبع منها صوراً تباع للمترددين على الضريح ! ! فقال : حسبك بما هيجت من مشاعر وما أثرت من فتنة . : فاتق الله فى الوطن .. ذلك ما حدث منذ أربع سنوات . . ولا يزال هذا الضلال راية قائمة على باب ضريح الحسين ! !

فلا حول ولا قوة إلا بالله .

وصلوات الله وسلامه على رسول الله ، وعلى آله وأصحابه والتابعين . وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

القاهرة : عبد الكريم الخطيب

ربيع الآخر : ١٣٩٩ هـ

مارس : ١٩٧٩ م

الباب الأول

الدين والعقل



الفصل الأول

الدين فطرة

— ١ —

عندما أراد الله سبحانه أن يخرج إلى الوجود تلك الأمة الإنسانية ، خلق الأب الأول لها ، وهو آدم ، وخلق من مادة آدم زوجه ، ومن هذين الأبوين كانت مواليدها وذريتهما ، ومن هذه المواليد ، وتلك الذرية ، عمرت الأرض بالناس . وقامت الجماعات والشعوب والأمم . . . وفى هذا يقول الله تعالى : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيراً ، ونساء » (سورة النساء : ١) ويقول سبحانه : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » (سورة الحجرات : ١٣) .

وقد اقتضت حكمة الله تعالى — فيما اقتضت من خلق الإنسان — أن يكون هذا المخلوق خليفة في الأرض ، ومن مقتضى هذه الخلافة للانسان فى الأرض ، أن يكون هو القائم على كل ما فيها من عوالم المخلوقات ، من جماد ونبات ، وحيوان .. يسوسها ، ويحكمها بما وهبه الخالق سبحانه من قدرات ، فيستخرج خبء الأرض ، ويكشف أسرار الطبيعة ، ويسخرها فيما ينفعه ، وبما يمكن له من سلطان عليها . وفى هذا يقول الله تعالى مخاطباً الملائكة : « وإذ قال ربك للملائكة ، إنى جاعل فى الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ، ونقدس لك ، قال إنى

أعلم ما لا تعلمون » (سورة البقرة : ٢٠) . ثم يكشف الله سبحانه للملائكة عن بعض علمه وحكمته بما أودع فى الإنسان من قوى لم تكن للملائكة ، وذلك فى هذا الامتحان الذى عقده الله تعالى بين الإنسان (آدم) وبينهم ، حيث كان عند (آدم) من العلم ما لم تعلمه الملائكة . . وفى هـــذا يقول الله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها ، ثم عرضهم على الملائكة ، فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك ، لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم ، فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض ، وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون (سورة البقرة : ٣١ — ٣٣) . . وهنا عرف الملائكة عن يقين ، أن آدم أحق منهم بالخلافة فى الأرض ، بفضل علمه الذى لم يكن لهم .. ولهذا أمرهم الله تعالى بالسجود لآدم ، تكريماً له ، واعترافاً بمنزلته وإقراراً بالتسليم بخلافته : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين » (سورة البقرة : ٣٤) .

— ٢ —

وبهذا العلم تعرف الإنسان إلى خالقه ، وتهدى إليه . . وهذا العلم الذى كان لآدم ، ولذرية آدم ، هو منحة من الخالق سبحانه ، لهذا المخلوق الذى جعله خليفة فى الأرض . . وهو علم غريزى فطرى ، ينمو بالنظر ، والبحث والتجربة ، فيكون علماً مكتسباً ، تتوارثه الأجيال ، ويضيف إليه كل جيل ما وقع له من علم ومعرفة ، وبهذا العلم تغير وجه الأرض ، وقامت الحضارات والمدنيات ، التى تزداد مع الأيام علواً ، وتشامخاً .

وكما عرف آدم المصنوعات التى عجز الملائكة عن معرفتها ، والدلالة على

كل مصنوع باسم خاص به ، فإنه تعرف على الصانع سبحانه ، عن طريق الاستقراء والاستدلال بالمصنوع على الصانع . . ولهذا كانت دعوة القرآن الكريم إلى الإيمان بالله سبحانه وتعالى ، وتفرده بالخلق والأمر — كانت تلك الدعوة ، نتيجة لازمة لمقدمات ، هى النظر فى عوالم المخلوقات وما تنطق به من دلالات معجزة ، فى وحـدة نظامها ، وإحكامها ، وضبط حركاتها وسكناتها ، بيد القدرة القادرة ، ذات السلطان المطلق الحكيم . . فيقول الحق سبحانه : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً ، كذلك الخروج » (سورة ق / ٦ — ١١) .

ويقول تعالى : « أفلم يسيروا فى الأرض ، فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ، فانها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » (سورة الحج : ٤٦) . . ويقول سبحانه : « ألم ر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ، ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ، ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء ، إن الله عزيز غفور » (سورة فاطر : ٢٧ — ٢٨) . . ويقول جل شأنه : « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر ، كل يجرى لأجل مسمى ، يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون ، وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً ، ومن كل الثمرات جعل فيها

زوجين اثنين ، يغشى الليل النهار ، إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل ، صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحد ، ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » (سورة الرعد : ٢ — ٤) .

فالإنسان مدعو من فطرته إلى التهدى إلى الله ،والإيمان به إلهاً واحداً خالقاً ، رازقاً ، لا شريك له . . وهذا ما يشير إليه الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » (أخرجاه فى الصحيحين) .

وهذه الفطرة التى يولد عليها كل مولود من أبناء آدم : هى أشبه بالنواة من نوى النخل ، تضمر فى كيانها ، وفى جرمها الصغير هذا ، أصول نخلة باسقة ، وما تحمل من تمر طيب ، وذلك إذا تهيأ لهذه النواة التربة الصالحة التى تغرس فيها ، والماء الذى يغذيها ويمسك الحياة عليها ، وإلا ظلت نواة ملقاة بالعراء أشبه بالحصا بين الرمال ! !

والذى يغذى الفطرة ، ويبعث فيها الحياة والنماء ، هو العقل ومدركاته التى تحمل إلى الإنسان العلم والمعرفة . . فإذا كان هذا العقل سليما معافى من الآفات ، خالياً من الهوى ، ساق إلى الفطرة من علمه ومعرفته ما يمد مصباحها بالزيت الذى يشعل فتيلها ، ويضىء معالم الطريق لها إلى مواقع الهدى ومشاهد الحق . . أما إذا كان العقل سقيما ، أو سفيها ، فانه يسوق إلى الفطرة سحباً داكنة من دخان سقمه وسفهه ، تسود بها صفحة مرآتها ، فلا تنطبع عليها حقائق الأشياء ، إلا شائهة الوجوه ، مطموسة المعالم ، وإذا الإنسان هنا متخبط فى متاهات الضلال ، سابح فى أمواج الفتن ، قد أطفأت ريح هواه مصباح فطرته ، التى منحه الله إياها : « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور » (سورة النور : ٤٠) .

● ★ ●

— ٣ —

« كل مولود يولد على الفطرة » كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعنى أن يولد المولود على الفطرة ، هو أن يكون مهيئاً للايمان بالله ، مستعداً لقبول هذا الإيمان ، مضيفاً وجوده إليه ، متى عقل ورشد .

وإلى هذه الفطرة التى يولد عليها كل مولود ، يشير قوله تعالى : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ، أفتهلكنا بما فعل المبطلون ؟ وكذلك نفصل الآيات ، ولعلهم يرجعون » (سورة الأعراف : ١٧٢ — ١٧٥) أى لعل الضالين يرجعون إلى فطرتهم السليمة ويلتقون مع دعوة الرسل لهم ، إذا هم أعادوا النظر إلى أنفسهم ، ورأوا ما غشيهم من ضلال ، وما حل بهم من داء .

وهذا يعنى أن الإيمان بالله تعالى ، قائم فى فطرة الإنسان ، وأن هؤلاء الذين كفروا بالله ، إنما كان كفرهم بسبب ما غطى على فطرتهم من ضلالات أهوائهم وموروثات آبائهم . . ومع ذلك فان وراء كفرهم هذا إيماناً مندساً فى أعماق فطرتهم غطى عليه بحجاب الغفلة والهوى ، حتى إذا نزلت بأحدهم نازلة ، أو أحاط به كرب ، انزاح هذا الحجاب ، وانجابت تلك الغيوم ، وإذا الفطرة متجهة إلى الله ، وإذا هذا الكافر ضارع إلى ربه ، لائذ بحماه يدعوه مخلصاً أن يخرجه مما هو فيه من بلاء .

ولأن إيمان هذا الذى كفر بالله ، كان فى تلك اللحظة التى أحاط فيها البلاء به — كان إيمانه إيماناً واقعاً موقع اليقين منه ، مستولياً على كل ذرة فى كيانه — فإن الله تعالى يقبل هذا الدعاء ، ويستجيب لصاحبه

فيما طلب . . وفى هذا يقول الله تعالى : « هو الذي يسيركم فى البر والبحر ، حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة ، وفرحوا بها ، جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم أحيط بهم ، دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ، فلما أنجاهم إذا هم يبغون فى الأرض بغير الحق » (سورة يونس : ٢٢ — ٢٣) .

ويقول سبحانه : « قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ، تدعونه تضرعاً وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين ، قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون » (سورة الأنعام : ٦٣ — ٦٤) .

ولهذا كان دعاء المضطر مقبولا من الله تعالى ، مستجاباً عنده ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء » (سورة النمل : ٦٢) .. وذلك أن الدعاء الواقع فى حال الاضطرار ، يكون فيه الداعى مشرفاً على هلاك ، وأن إنقاذه فى تلك الحال يحتاج الى قدرة لا يملكها أحد ممن يعرفه فى هذه الحياة . . وهنا يفر من وجوده كل من كان يرجوه لكشف الضر عنه ؛ من عوالم المخلوقات ، واذا داعى الفطرة يدعوه الى الله تعالى ، وإلى طلب الغوث والنجاة من رب الأرباب ، مالك الملك ، لا شريك له .

روى أن عكرمة بن أبى جهل ، انطلق يوم فتح مكة مع جماعة من مشركى قريش ، يريد الفرار بشركه إلى الحبشة ، فركب البحر مع جماعة من أصحابه ، وفيما هم فى عرض البحر ، هبت عاصفة عاتية ، تهدد السفينة وراكبيها بالغرق ، واذا الصيحات تعلو بالدعاء الضارع إلى الله ، أن يكشف هذا البلاء ، فلما هدأت العاصفة واطمأن راكبو السفينة ، قال عكرمة لأصحابه : إنكم كنتم تدعون الله والسفينة مشرفة على الغرق ولا تدعون آلهتنا التى نعبدها . فكيف كان هذا ؟ فقالوا : انه لا ينفع

فى صرف أخطار البحر إلا الله وحده . فقال عكرمة : إذا كان لا ينفع فى البحر إلا الله، فإنه لا ينفع فى البر إلا الله . ثم أدار بأصحابه وجه السفينة إلى شاطىء العودة ، وأقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم معلناً إســلامه .

وبهذه الفطرة المستقرة فى كيان كل إنسان ، يؤمن كل كافر أو ملحد أو مشرك إيماناً خالصا بالله سبحانه ، عند النزع ومعاينة الموت وما بعده ، ولـكن هذا الإيمان يرد على صاحبه ، لأنه لا نفع له منه ، وهو يودع الحياة ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى عن فرعون حين أدركه الغرق فأعلن إسلامه : (وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً ، حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله لا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين . آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ؟ فاليوم ننجيك ببدنك لتـكون لمن خلفك آية ، وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون) (سورة يونس : ٩٠ ـ ٩٢) .

ويقول تعالى : فى أهل الـكفر والضلال وما يكون منهم عند حضور الموت : (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائـكة ، أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك ، يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفساً إيمانها لم تـكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً) (سورة الأنعام : ١٥٨) .

والعقل ـ كما أشرنا ـ هو الذى ينمى الفطرة ويغذيها ، بما يسوق إليها من مدركاته ، فإن كانت إدراكاته سليمة ، بعيدة عن وساوس الضلال ، ومنازع الهوى ، أخذت الفطرة طريقها إلى الله فى استقامة وهدى . أما إذا كانت مدركات العقل مختلطة بدخان الجهل والهوى ، فإنه يغطى على الفطرة

بدخائه ، ويعمى عليها الطريق إلى الله ، وإذا الإنسان هنا راكب كل طريق من طرق الضلال التى يقوم على كل منها شيطان، يدعو إليه الضالين ويزين لهم من المنكر ما يوافق هوى كل ضال من هؤلاء الضالين الذين أشار إليهم سبحانه بقوله : (الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون فى الأرض ، أولئك هم الخاسرون) (سورة البقرة : ٢٧) .

والذى أمر الله تعالى به أن يوصل فى هذه الآية الكريمة ، هو إيمان الفطرة ، حين يصله الإنسان بإيمان الدعوة التى يدعو بها رسول الله . فمن لم يستجب لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد قطع إيمان فطرته وعزلها عن الإيمان الذى يدعو إليه الرسول صلوات الله وسلامه عليه . . وهكذا الشأن مع دعوات كل رسول من رسل الله ، عليهم السلام .

— ٤ —

وقد كان من العدل والحق ، أن يترك الإنسان ، وما يختار من هدى أو ضلال، ومن إيمان أو كفر، بعد أن أخذ الله تعالى عليه الميثاق ثم منحه الخالق سبحانه وتعالى الفطرة والعقل ، وسلحه بهذين السلاحين ليشق بهما طريقه إلى مواقع الإيمان والخير والفلاح ، وليدفع بهما ما يعترض طريقه هذا ، من أهواء النفس، ووساوس الشيطان، وهذا مايشير إليه قوله تعالى : (بل الإنسان على نفسه بصيرة ، ولو ألقى معاذيره) (سورة القيامة : ١٤ ـ ١٥) .

وقد آمن بالله ، وأقر بوحدانيته كثير من الناس ، بنظر عقولهم ، ووحى فطرتهم دون دعوة من رسول من رسل الله . . وهذا ما يقرره

الفيلسوف اليونانى القديم « أفلاطون » حيث يقول : « إن معرفة الله موجودة بالفعل فى كل عقل ، بل إن المعارف كلها كذلك ، فليست مهمة المعلمين تلقين المتعلمين، ولكن تنبيههم إلى ما وقر فى نفوسهم ، وآمنت به عقولهم »[1] .

ومع هذا ، فقد كان من رحمة الله تعالى بالناس ، أن أرسل فيهم رسلا منهم ، يحملون إليهم رسالات الله تعالى ، محملة بالدعوة إلى الإيمان بالله ، والإقرار بوحدانيته ، ولم يشأ سبحانه وتعالى أن يدع الناس لما أودع فيهم من فطرة وعقل ، وذلك ليقيم عليهم الحجة البالغة ، كما يقول سبحانه : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان ، وآتينا داود زبورا ، ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك، وكلم الله موسى تكليما، رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عليما حكيما) (سورة النساء : ١٦٣ ـ ١٦٥) . ثم كان من سعة رحمة الله تعالى بالناس ، أن جعل هذا الإيمان الفطرى العقلى غير المستند إلى دعوة من رسول من رسل الله إيمانا مستجابا من صاحبه ، يثاب عليه ثواب المؤمنين ولا يعاقب إذا هو ضل عنه من غير دعوة رسول ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث فى أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا ، وما كنا

---

(١) « الحياة الوجدانية والعقيدة الدينية » للمرحوم محمود حب الله ، وقد كان رحمه الله مديرا للمركز الاسلامى بواشنطن ثم كان أمينا عاما للمجلس الأعلى للبحوث الاسلامية بالأزهر .

مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون) (سورة القصص:٥٩) . وقوله سبحانه: (من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى،وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) سورة الإسراء :١٥ وذلك - كما أشرنا من قبل - هو مزيد من رحمة الله تعالى بالناس، ومضاعفة من إحسانه تعالى إليهم ، حتى تنقطع حجتهم ، ولا يقوم يوم القيامة عذر لمعتذر منهم ، والله تعالى يقول : (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير ، فقد جاءكم بشير ونذير ، والله على كل شيء قدير) (سورة المائدة : ١٩) .

ففي الإنسان ، وللانسان داعيان يدعوانه إلى الله ، ويكشفان له الطريق إلى الإيمان به سبحانه ، والإقرار بوحدانيته : وأولهما هو داعى الفطرة يفيض عليها العقل من علم ومعرفة ، وثانيهما داعى الله وهو الرسول وما يوحى إليه من ربه ، ليبلغه للناس . فإذا آمن الإنسان بداعى فطرته من غير دعوة رسول، كان مهيئا لاستقبال دعوة الرسول ، متلاقياً بإيمانه الفطرى مع الايمان الذى يدعو إليه رسول الله ، فيجمع بين إيمان الفطرة ، وإيمان الدعوة جمعاً يؤاخى بينهما ويمزجهما مزج النور بالنور : (نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء) سورة النور : ٣٥) .

وفى قوله تعالى: (إن الله لايستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا ؟ يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً ، وما يضل به إلا الفاسقين، الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون) سورة البقرة :٢٦ - ٢٧

فى هذا القول الكريم بيان لإيمان الفطرة الموصول بإيمان الدعوة . ففى قوله تعالى : (الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه) وصف كاشف لفسق أولئك الذين فسقوا عن أمر ربهم ، فخرجوا من الإيمان إلى الكفر ، ونقضوا بذلك الميثاق الذى أخذه الله تعالى على الناس جميعا ، وهم فى ظهور آبائهم ، وذلك فى قوله تعالى : (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا ، أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل ، وكنا ذرية من بعدهم ، أفتهلكنا بما فعل المبطلون) كما نقضوا الميثاق الذى أخذه الله تعالى على أنبيائهم ، وذلك فى قوله تعالى : (وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه ، قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ؟ قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين) (سورة آل عمران : ٨١) .

وفى قوله تعالى : (ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل) إشارة إلى أن الذين كفروا بالله قد قطعوا ما أمر الله تعالى به أن يوصل ، وهو إيمان الفطرة ووصله بإيمان الدعوة ، ثم وصل إيمان المؤمنين بالرسالات السابقة على الإسلام بالإيمان بالإسلام . كما يقول تعالى : (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل ، وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون) (البقرة : ١٣٦) .

ومن هنا كانت مهمة رسل الله — عليهم الصلاة والسلام — هى تبليغ رسالات الله إلى أقوامهم ، ليذكروهم بهذا ، ما غفلوا عنه من الإيمان المستقر

في فطرتهم بما دخل عليهم من موروثات الضالين من آبائهم وأقوامهم ، تلك الموروثات التي زينها الشيطان لهم .

وفي هذا يقول الله تعالى لنبيه الكريم : (فذكر إن نفعت الذكرى) (سورة الأعلى : ٩) ويقول سبحانه : (فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر) (سورة الغاشية : ٢١ – ٢٢) ويقول جل شأنه (فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) (سورة ق : ٤٥) .

ويقول تعالى عن القرآن الكريم : (إن هو إلا ذكر وقرآن مبين) (سورة يس : ٦٩) ويقول سبحانه : (وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون ، وما هو إلا ذكر للعالمين) (سورة ن : ٥١ – ٥٢) . ويقول تبارك اسمه : (إنا نحن نزلنا الذكر ، وإنا له لحافظون) (سورة الحجر : ٩) ويقول سبحانه : (ص ، والقرآن ذي الذكر) (سورة ص:١) . وهكذا تتوارد آيات الله تعالى عن القرآن الكريم ، وأنه ذكر يتذكر به أولو الألباب طريقهم المستقيم إلى الله ، وتنبعث به فطرتهم من غفلتها لتفتح عينها على نور الحق ، كما يتحدث القرآن الكريم عن الرسول – صلوات الله وسلامه عليه – وأنه مذكر بهذا الذكر الذي يساق من آيات الله إلى الفطرة (وما يتذكر إلا من ينيب) (سورة غافر : ١٣) . والمنيب هو من يرجع إلى فطرته . فيستلهم منها الإيمان بالله الذي يدعو إليه رسول الله .

●★●

الفصل الثانى

الإيمان والعقل

وإذا كانت الفطرة هى النواة المستقرة فيها نطفة الإيمان ، فإن العقل هو الذى يحتضن هذه النطفة، ويمدها بالغذاء الذى يخرج خبأها ، ويفتح زهرها وينضج ثمرها . . والعقل هنا ، ليس هو العقل المريض السقيم ، الذى تداعت عليه علل الجهل ، وتسلطت عليه آفات الهوى ، فهذا أشبه بالماء الآسن الذى تسبح فيه الجراثيم والديدان ، ومثل ذلك العقل إن ساق شيئاً منه إلى الفطرة ، فإنما يسوق إليها مايعلها ، ويمرضها ، ويغتال موطن الحياة منها . وإنما الذى يعتبر عقلا حقاً ، هو العقل السليم ، المهيأ للاتصال بهذا الوجود واصطياد ما يقع فى شباك مدركاته من العلوم والمعارف ، التى تسكتحل الفطرة بأنوارها ، فإذا هى بصر وبصيرة ، تهتدى إلى مواقع الحق ، وتتجه إلى الله بإيمان وثيق ، وولاء مطلق .

ولهذا كانت دعوة القرآن الكريم للناس أن يسوقوا عقولهم إلى آفاق النظر فى هذا الوجود ، ليطالعوا فى صحفه ما سطر من آيات الله ، الدالة على بديع صنعه ، وروعة حكمته ، وسلطان قدرته ، ومحيط علمه . فإذا ورد العقل هذا المورد استدل بالمخلوقات على الخالق ، وبالمبدعات على المبدع ، فينشرح لذلك صدره بالإيمان بالله ، ويخفق قلبه خفقات الولاء والخشوع لله رب العالمين .

يقول الله تعالى ، موجها عقول العقلاء إلى موارد العلم ، باسطاً بين يديها كتاب الكون كله ، لتقرأ ، وتتدبر ، وتتعظ ، وتؤمن : (إن فى خلق

السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء ، فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة، وتصريف الرياح ، والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) (سورة البقرة : ١٦٤) . ويقول سبحانه : (والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، إن فى ذلك لآية لقوم يسمعون ، وإن لكم فى الأنعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ، ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً ، إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون) (سورة النحل : ٦٥ — ٦٧) . ويقول تبارك اسمه : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون (سورة العنكبوت : ٤٣) . ويقول سبحانه : « إن فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » (سورة آل عمران : ١٩٠) .

ثم إن الله تعالى قد شدد النكير على أولئك الذين أهملوا عقولهم ، وشردوا بها فى متاهات الضلال ، فكانوا بهذا أضل سبيلا ، وأنزل منزلة من عالم الحيوان فيقول سبحانه : « ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، صم بكم عمى فهم لا يعقلون » (سورة البقرة : ١٧٦) . ويقول جل شأنه : « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » (سورة الأنفال : ٢٤) . ويقول تبارك اسمه : «ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » (سورة الأعراف : ١٧٩) . ويقول الحق سبحانه فى أصحاب النار ، وهم يلطمون الخدود حسرة وندماً على أنهم عطلوا

قوى المعرفة التى منحها الله إياهم ، فضلوا وكفروا : « وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير ، إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهى تفور ، تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير ؟ قالوا بلى قد جاءنا نذير ، فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شىء إن أنتم إلا فى ضلال كبير ، وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ، فاعترفوا بذنبهم ، فسحقاً لأصحاب السعير » (سورة الملك : ٦ — ١١) .

ومن هنا كانت التكاليف الشرعية منوطة بأصحاب العقل من الناس . فمن زايله العقل لمرض ، أو جنون ، أو كان صغيراً لم يبلغ الحلم ، فلا تكليف عليه .

وإذن فإن الدين مرتبط بالعقل أشد الارتباط وأوثقه ، وإنه لا دين بغير عقل ، إذ الدين أساسه المعرفة ، ولا معرفة إذا لم يكن هناك عقل يدرك ويميز بين المدركات ، خيرها وشرها . صحيحها وسقيمها ، حقها وباطلها .

وإذا كان بعض الناس قد غالى بسلطان العقل ، وجعله الحاكم على أحكام الدين المنزلة من عند الله ، بمعنى أنه يعرض أحكام الدين على عقله أولا فما قبله هذا العقل أجازه وارتضاه ، وما رده العقل طرحه ولم يأخذ به — نقول : إذا كان بعض الناس يذهب بالعقل هذا المذهب ، فإن ذلك يعد ظلماً للعقل نفسه ، إذ يحرمه التلقى من مصدر العلم كله المنزل من عند الله على رسول الله ، فيكون أشبه بالصبى الذى يقدم نفسه على أستاذه ، أو كالمريض الذى يرى أنه أقدر من الطبيب على معرفة الداء ، ووصف الدواء .. وهذا من الغرور الذى يلقى بصاحبه فى التهلكة ! !

وأسوأ حالا من هؤلاء المغرورين بعقولهم ، المغترين بها ، حيث

يحكمونها فى أحكام الله ـ أسوأ حالا منهم أولئك الذين يهملون عقولهم ، ولا يشعرون بمكانها فيهم ، ولا يردون بها موارد العلم والمعرفة ، وإذا هم إمعات يقادون لكل من يقودهم ولو إلى الهاوية !

وفى المأثور : (لا يكن أحدكم إمعة . يقول أنا مع الناس ، إن أحسنوا أحسنت ، وإن أساءوا أسأت ، ولكن ليقل أنا مع الحق حيث كان) .

● ✱ ●

وخير الناس ، وأهداهم سبيلا من كان معه عقله ، حيث كان ، ينظر به فى كل أمر يعرض له ، نظراً واعياً متدبراً . فاذا كان هذا الأمر من الله تعالى أسلم عقله له ، وأخضعه لما جاء الله تعالى به ، موقنا أن ذلك هو الحق الذى لا ينازع فيه ، سواء وافق عقله أم لم يوافقه . . أما إذا كان هذا الأمر مما تتوارد عليه عقول الناس ، فهو شريك لهم بعقله فيه ، يحاجهم بما عنده ، طالباً للحق ، من غير تعصب لرأيه ، أو طلب للغلبة ، أو اتباع للهوى . وذلك هو شأن العقلاء الراشدين من الناس .

يقول الدكتور محمود حب الله :

« والإسلام دين عقلى ، لأنه قد راعى قوانين العقل ، فى كل ما جاء به من شرائع وعقائد ، ثم تحاكم إليه فيها ، فقضاياه ، وأحكامه ، وتكاليفه ، وأوامره ونواهيه ، وكل ما جاء به معقولة كلها ، وموجهة للعقل ، ومعروضة عليه ، ويقبلها حين يقبلها عن بينة وتدبر ، واختيار . وذلك لأنه مطمئن إلى صحة كل ما فيه ، من شرائع وعقائد ، وواثق من أنه ليس فيها ما يأباه العقل ، ويستعصى على الفهم . وليس على المرء إلا أن ينظر فيه بتدبر وإمعان ، مجردا عن الهوى والتعصب ، ومن كل الأفكار المغرضة ، ليرى كيف أنه

أى الإسلام — يتفق وقوانين العقل الخالص ، ويستجيب للمنطق العام ، والسنن العامة ، وليس على الجماعة أو الدعاة إلا أن تهيىء للمرء سبيل هذا النظر ، حتى يؤمن — إن شاء — عن بينة ، أو يكفر — إن شاء — عن بينة كذلك ، وكلا من الكفر والإيمان عمل عقله وإرادته ، ونتيجة تدبره واختياره ، ولذا كان مسئولا عنهما ، ولذا صح أن يثاب أو يعاقب ، ولذا لم يكلف كل من المجنون والصبى ، والمضطر ، بل من يعقل الخطاب ، ويقدر على التنفيذ »[1] .

وهذا الذى يقوله الدكتور محمود حب الله ، هو مستمد من معنى قوله تعالى : « وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر » (سورة الكهف : ٢٩) . . وقوله سبحانه : « لا إكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى ، فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله ، فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها » (سورة البقرة : ١٥٦) . . وقوله جل شأنه لنبيه الكريم ، صلوات الله وسلامه عليه : « فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر » (سورة الغاشية : ٢١ ٢٢) وقوله تبارك اسمه : « فإنما عليك البلاغ ، وعلينا الحساب » (سورة الرعد : ٤٠) وقوله سبحانه وتعالى : « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » ؟ (سورة يونس : ٤٩٩) .

وذلك أن الدين عقيدة ، ولا عقيدة عن إكراه ، لأن العقيدة لا تثمر الثمر المرجو منها إلا إذا تقبلها العقل ، وانشرح لها الصدر ، واطمأن بها القلب ، وسرت فى مشاعر الإنسان مسرى الروح فى الجسد . . أما إذا جاء

---

(١) من كتاب : « الحياة الوجدانية والعقيدة الدينية » للدكتور محمود حب الله ص ٢٧٨ .

المعتقد عن إكراه، فانه يكون أشبه بالطعام الفاسد، الذي يأكله الإنسان عن إكراه، واضطرار، إن لم تتقيأه المعدة، أضر صاحبه، وأهلكه.

●★●

ولا ندع الحديث عن العقل، ومكانه من الإيمان، والتهدى به إلى الله تعالى، والاقرار بوحدانيته، والولاء له سبحانه — دون أن نأتى له بشاهد من مقولات أحد العقلاء المشهود لهم بسداد الرأى، وحسن التقدير للأمور وإن كان من غير المسلمين.

والشاهد الذى نفسح له مكانا فى هذا المقام. هو السياسى الإيطالى المعروف: «مازينى» الذي كان من رجالات أوربا المعدودين فى القرن التاسع عشر.

يقول: «مازينى» فى مقام الحديث عن «الله» سبحانه وتعالى:

«إن الله موجود.. ولست اليوم أحاول البرهنة على وجوده!!

«الله موجود.. لأننا موجودون، وهو موجود فينا، وفى شعور الإنسانية جمعاء، وفى كل ما يحيط بها من عوالم.. وإنا لنشعر بذلك فى كل الأوقات.. فنشعر به فى ساعات الضيق والشدة، كما نشعر به فى حالات السرور والنعمة..

«ولم يكن أول ملحد فى الأرض، إلا أحد المجرمين الذين أخفوا إجرامهم عن كل الناس، وظنوا أنهم يتخلصون بإنكارهم لوجود الله، من شهادة الشاهد الذى لا تخفى عليه خافية.. ولعله كان من الجبارين الذين كانوا يعيثون فسادا فى الأرض، فتحكموا فى أرواح الناس وفى حرياتهم

وحاولوا أن يتحكموا كذلك في توجيه خضوعهم وعباداتهم، فألهوا أنفسهم، أو ألهوا ما شاءوا من المواد والطبائع .

« ولقد جاء بعد هذا الصنف من الناس، آخرون، أدى بهم الانحراف الفلسفي، وقصر النظر إلى تكوين نظريات إلحادية، وكانوا من القلة بمكان فمنعهم الخجل والحياء من الظهور ! !

«وجاء بعد هؤلاء آخرون، أنكروا وجود الله، لما رأوا من الأفكار البدائية والمبادىء اللامعقولة التي تحيط باسمه، والتي تنسب إليه[1]، ولكن لم يكن ذلك الإنكار إلا لأجل محدود، لم يتخلصوا أثناءه من كل أنواع العبادات، بل عبدوا الطبيعة أو العقل!

«ويبغض الآن كثير من الناس الأديان، لما اتصل بها من فساد وانحطاط[2]، من غير تفرقة بين الخبيث والطيب .

« فلما رأوا أن من القسيسين ورجال الدين من يدنس اسم الله لقاء دراهم معدودات، ويفاضل بين الله والإنسان، ويفضل جانب الأخير عندما يدعوه النظر القاصر إلى ذلك[3]، ورأوا أن الدين قد استغله القوى أداة بطش وجبروت ليخضع به الضعفاء وذوى الحاجة — لما رأوا ذلك وأمثاله، أنكروا الأديان . ولكنهم لم يكونوا على حق في ذلك، فليس لنا أن

---

(١) يشير بهذا الى ما يدخل على الدين الحق من ضلالات الضالين، وسفاهات السفهاء، وأصحاب الأهواء والبدع .

(٢) هو يتحدث عما كان يراه من متناقضات فى الديانة المسيحية التى تسلط عليها رجال الدين، فأفسدوها بتأويلاتهم، طلبا للتسلط على أتباعهم .

(٣) لعله يشير بذلك الى ما وقعت فيه المسيحية من تأليه المسيح ونسبة بنوته الى الله نسبة حقيقية، فتركوا الله تعالى، وعبدوا المسيح !

ننكر وجود الشمس ، وأثرها فى الحياة الأرضية ، حين يحجبها عنا البخار المتكاثف ، وليس لنا أن نرفض الحرية الشخصية ونلغيها ، لأن بعض الأشخاص يستغلونها استغلالا سيئا ، وليس لنا أن ننكر الأديان كذلك لأنه قد أسيء استعمالها ، أو دخلها كثير من الأباطيل والأكاذيب ، بفعل الإنسان . . ذلك لأن لها من القوى الذاتية ما يضمن لها الخلود ، على الرغم مما يلصقه الناس بها من أباطيل وأوهام . ولابد أن يموت الكذب يوما ولا بد أن تفتضح الأباطيل ، وينكشف أمرها ، ويبقى اسم الله مطهرا من جميع الأرجاس ، وخالداً أبد الآبدين[1] » .

● ★ ●

هذا مايقرره رجل من العقلاء الذين لم يستسلموا لموروثات الآباء والأجداد ، ولم يتقبل كل ما يرد عليه من تلك الموروثات من ضلالات وخرافات ، بل عرض تلك الموروثات على عقله ، متجردا من الهوى ، طالباً للحق ، فانكشف له مادخل على دينه الموروث ، من تأويلات علماء هذا الدين ، التى أرادوا بها إعلاء سلطانهم فى الناس ، حيث جعل رجال الكنيسة إلى أيديهم غفران الذنوب من جهة ، والحرمان من المغفرة من جهة أخرى وذلك بما يملكون بادعائهم ، من صكوك الغفران ، وصكوك الحرمان ، إلى غير ذلك مما لا يقبله عقل عاقل ، مثل ادعائهم أن الله تعالى ابنا هو المسيح ، وأن المسيح قدم نفسه للصلب ليغسل بدمه خطيئة آدم ، وخطيئة أبناء آدم ، الذين ورثوا الخطيئة ابنا عن أب ، وأبا عن جد ، حتى الأب الأول آدم !

---

(١) نقلا من كتاب : « الحياة الوجدانية ، والعقيدة الدينية » للمرحوم الدكتور محمود حب الله ، ص : ٢٧٢ — ٢٧٣ .

ولهذا ، فإنه منذ انجلت عن أوربا ظلمات القرون الوسطى وأخذت العقول تتحرر من الجهل الذى غطى عليها ، بدأ الناس هناك يشكون فى الدين الذى يدينون به ، وأخذ الصراع يشتد بين العلماء ورجال الكنيسة ، حتى ذهب فى سبيل ذلك كثير من ضحايا العلم ، الذين أهدرت الكنيسة دماءهم ، ثم بعد نحو قرن أو أكثر ، غلب سلطان العلم سلطان الكنيسة ؛ وانكمش ظل رجال الدين داخل الكنيسة ، فلم يعد لهم شأن فيما يقول العلم ، حتى قامت دول تحت شعار « العلمانية » التى لاشأن لها فيما يدور داخل الكنيسة التى لاسلطان لها على مايقرره العلم .

وإذا كان هذا ماوقع من صراع : بين العلم والدين المسيحى الذى أخرجه رجال الكنيسة من دائرة العقل ، بما أولوا وحرفوا ، فان الإسلام يفسح فى رحابه مكانا مكينا للعقل ، ويدعوه إليه ، حفيا به ، مكرماً له ، حتى يشهد وجه الحق مشرقا ، فيقبس من أنواره ، ويقطف من ثماره ، مايمده بأسباب القوة ، ويبلغ به مبلغ الرشد ، وإذا هو قبس من أقباس العلم المستمد من نور الله .

●✱●

الفصل الثالث

المسلمون .. وعلماء المسلمين

أما وقد مال بنا الحديث إلى العلم والدين ، وما قد يقع بينهما من وفاق أو خلاف .. وأما وقد ألمحنا — فى إيجاز — إلى شىء من هذا الصراع الحاد العنيف الذى وقع بين العلم والدين المسيحى ، الأمر الذى أدى إلى الفصل بين العلم وهذا الدين ، فصلا قائماً بين عدوين لا سبيل إلى أن يضع أحدهما يده فى يد الآخر أبداً .

نقول : أما وقد مال بنا الحديث إلى ما بين العلم والدين المسيحى من خلاف شديد ، احتدم فيه الصراع بينهما زمناً ، حتى انتهى الأمر إلى تلك العزلة الباردة التى تقيم كلا منهما فى واد بعيد عن صاحبه بعد ما بين المشرق والمغرب — فإن لنا أن نسأل بعد هذا :

أولا : هل يمكن أن يقع بين الإسلام وبين العلم صراع مثل هذا الصراع الذى قام ويقوم إلى اليوم بين الدين المسيحى وبين العلم ؟

ثانياً : إذا قام بين الإسلام وبين العلم صراع كهذا الصراع — فهل منشأ هذا الصراع لأن الإسلام يناقض حقائق العلم ، أو لأن العلم تخطى حدود الإسلام ، وجاء بالجديد من المنكر الذى لا يجد له مكاناً فى الإسلام ؟

ثالثاً : إذا سد الإسلام بابه دون حقائق العلم ، فهل يكون هو الدين كما ضم عليه كتاب الله وسنة رسوله ؟ أم أن سحباً من الغبار زحفت على هذا الدين من الأدعياء والمضللين الكائدين لدين الله ، فحجبت الأبصار عن

حقائقه العليا وأضلت العقول عن موارده الصافية ، فلم تر العيون منه إلا أشباحاً باهتة ، ولم تمسك العقول من حقائقه إلا بما طفا على سطحه من أباطيل المبطلين ، وإفك الآفكين ؟

رابعاً : إذا أخذ العلم طريقه فى عزلة عن الإسلام ، وفى استقلال عن الأخذ بمناهجه ، والتهدى بأنواره ، ووزن الحقائق بميزانه ـ فهل يكون هذا العلم علماً ينتفع به ، ويثمر الخير لأهله ، ويقيمهم على جناح أمن وسلام فى هذه الحياة ؟

وفى حيدة مطلقة ، وبنية خالصة لوجه الحق ، نقرر :

أولا : أنه لا يمكن أن يقع صراع أبداً بين الإسلام ، وبين العلم ، فى أى موقع من مواقعه ، وفى أى متجه من متجهاته ، شريطة أن يكون هذا العلم مستولداً من عقول سليمة ، طالبة للحق ، وللخير الذى يكشف للناس أسرار هذا الوجود ، وما تمكن لهم تلك الأسرار ما يمكنهم تسخيره من القوى التى أودعها الله تعالى فى هذا الكون العظيم .

فالإسلام يزكى كل علم يرفع من إنسانية الإنسان ، ويطلعه على ما فى آيات الله الكونية من عظمة الخالق ، وقدرته ، وعلمه ، وحكمته . . وما ترك الإسلام شيئاً يمكن أن يكون مجالا لنظر الإنسان ، ومراداً لعقله ، إلا دعا إليه وحث على النظر فيه . . فى السماء والأرض . . فى النجوم والأقمار . . فى البر والبحر .. فى السهول والجبال .. فى ظاهر الأرض وباطنها .. فى الحيوان والنبات .. فى الإنسان : نطفة وعلقة ، ومضغة ، وعظاماً ، ولحماً يكسو العظام .. فى الحياة وفى الموت ، وفيما بعد الموت .

ولم يقم الإسلام على الإنسان فى كل هذا أى قيد يقيده به ، أو يمسك

به عن شيء منه .. وغاية ما يطلبه الإسلام هنا ، هو أن يكون الإنسان حريصاً على نفسه ، ممسكاً هواه أن يجنح به إلى مزالق الضلال ، فيهوى من حالق ، حين يجاوز مده ، ويلقى بنفسه فى البحر وهو لا يحسن السباحة فيه ! !

ثانياً : إذا قام الأمر على هذا الوجه من جهة العلم ، فإنه لا يمكن أبداً أن يقع صراع بينه وبين الإسلام . بل إنه كلما أخلص العلم فى طلب الحقائق وتمحيصها ، وجد يد الإسلام تمتد إليه ، معينة له ، آخذة به إلى غاية أعلى وأمكن من تلك الغاية التى وصل إليها .. فإذا وقع صدام بين العلم والإسلام ، فإن منشأ ذلك ـ من غير شك ـ هو من جهة العلم الذى لم يتحر فيه صاحبه وجه الحق ، أو لأن يده قصرت عن أن ترد مورد الحقيقة ، فكان هذا علماً باطلا ، أو متلبساً بباطل ، والإسلام كله حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه .. وهيهات أن يلتقى الحق مع الباطل وأن يجتمعا على وفاق أبداً

ثالثاً : لا يمكن أن يغلق الإسلام بابه دون العلم الذى خلص للحق ، وتمحص من الباطل .. لأن الإسلام حق منزل من الحق سبحانه . وكل ما كان من موارد الحق ، فهو واقع فى محيط الإسلام ، منه خرج ، وإليه يعود ، أشبه بالسحب المواطر ، تمطر البحر بمائها الذى حملته منه .. فهو منه وإليه ، كما قيل :

كالبحر يمطره السحاب وماله   فضل عليه ، لأنه من مائه

وإنما يغلق الإسلام بابه دون كل علم صدر عن جاهل ، أو جاء من عالم باع نفسه للشيطان ، فجاء علمه محملا بالبدع والأباطيل .

رابعاً : أن كل علم لا يجد له مكاناً فى ساحة الإسلام ، هو علم زيف ، يرمى به فى وجه صاحبه ، كما يفعل الصيرفى الحاذق بالنقد الزائف ، ليس لصاحبه إلا أن يساق إلى موقف الاتهام ، ليحاسب ويعاقب على ما اقترف من خداع وتضليل .

— ٢ —

ونعود بعد هذا لنسأل : إذا كان مع المسلم عقل ، وكان هذا العقل وسيلة لتحصيل العلم والمعرفة ، وكان من أرقى مطالب العلم والمعرفة ، ومن أشرف آياتهما ، العلم بالله ، والتعرف على ما يجب على العبد من الولاء له ، والإقرار بوحدانيته ، والامتثال لإطاعة أوامره ، واجتناب نواهيه ـ إذا كان هذا فهل مما يجوز للمسلم أن يتلقى دينه ، وأحكام دينه ، متابعاً فى هذا غيره ، مقلداً له ، من غير نظر عقلى منه ، ومن غير إدراك ووعى لما يلقى عليه من أمر دينه ، عقيدة أو شريعة ؟

ومن الحق أن نقرر أن كثيراً من المسلمين يتلقون أمور دينهم متابعة وتقليداً ، إما عن وراثة الآباء ، الذين كانوا أيضاً مقلدين وراثة عن آبائهم وهكذا ، وإما عن تلقيات من علماء الدين ، دون مناقشة أو مراجعة .

وهذا من شأنه ــ دون شك ــ أن يقيم الدين عند هؤلاء المقلدين فى حال ركود وسكون ، لا تنبعث منه حرارة تحرك المشاعر ، وتثير الوجدان ، وتبعث فى القلب خفقات الأشواق إلى الملأ الأعلى .

وإذا كان هذا الإيمان الخامد الساكن ، يباعد بين أهله وبين عواصف الشك ورياحه ، فإنه مع هذا يجعل العبادات التى تؤدى فى ظله ، عبادات آلية ، يأتيها صاحبها دون وعى لها ، أو إحساس بها ، ولهذا فإنها لا تطهره

من سمائها ــ إن هى أمطرت ــ إلا بقطرات لا تنبت زرعاً ، ولا تطلع زهراً أو ثمراً .

ثم إنه إذا ورد على أصحاب هذا الدين الخامد ، وارد من شك يسوقه إليهم ضال من الضالين ، أو ذو بدعة من المبتدعين ، لم يؤمن عليهم أن يقعوا فريسة لهذا الضال ، أو ذاك المبتدع ! !

ومن هنا فإن عوام المسلمين الذين تلقوا دينهم عن متابعة وتقليد لغيرهم ، كانوا مرعى خصبا ، للضالين وأصحاب الأهواء والبدع ، الذين مزقوا شمل الوحدة الإسلامية ، بما نجم منهم من فرق ، ذهبت كل فرقة منهم بشطر من جماعة هؤلاء المسلمين ، المقلدين . . كفرق الخوارج ، والقدرية ، وإخوان الصفا ، وبعض فرق الشيعة ، والمتصوفة ، وغيرهم وغيرهم ، ممن انتسب إلى الإسلام وكانت له دعوى ادعاها فيه ، كالقاديانية ، والبهائية ، وما تفرع منهما .

●★●

والذى يعنينا من هذه الفرق فى بحثنا هـذا ، هو فرقة المتصوفة ، التى تضم تحت جناحها أعداداً لا حصر فى كل بلد إسلامى . وهؤلاء الذين يدورون فى فلك المتصوفة هم من المنتسبين إلى أهل السنة الذين يتمذهبون بالمذاهب السنية الأربعة : الحنفية ، والشافعية ، والمالكية ، والحنبلية . . وسوف نعرض للتصوف والمتصوفة فى المباحث التالية ، بعد هذا إن شاء الله .

وهنا سؤال يقتضينا المقام أن نجيب عليه ، وهو :

ما حكم الإسلام فى المسلم المقلد ، الذى يتلقى الإسلام عقيدة وشريعة ، وراثة ، من أهله ومجتمعه ، أو متابعة لغيره من أهل العلم عن تسليم مطلق دون أن يدخل بعقله فى شىء مما يلقى إليه ؟

وهذا ما نجيب عليه فى الفصل التالى . . إن شاء الله .

الفصل الرابع

التقليد والمقلدون

— ١ —

اختلف العلماء فى صحة إيمان المقلد، وذهبوا فى ذلك مذاهب شتى، فمنهم من قال بصحة إيمانه، إذا كان عاجزاً عن النظر بعقله، ومنهم من يرى أن الاستدلال شرط لصحة الإيمان، وعلى هذا يكون إيمان المقلد من غير بحث عن الدليل أو مشاركة فى البحث عنه، غير صحيح، وممن يرى هذا الرأى الأشاعرة، وجمهرة كبيرة من العلماء من بينهم محمد بن جرير الطبرى صاحب التفسير المعروف.

والحق أن الأمر يقتضى شيئاً من التحديد للمقلد الذى لا يصح إيمانه، إذ المقلدون ليسوا جميعاً على مستوى واحد، فى موقفهم من المقلدين لهم.

فهناك من المقلدين من هم أشبه بالأطفال فى تقليدهم للكبار تقليداً آليا دون إدراك لما يرجى من وراء ما يقلدون .. ومثل هؤلاء من الناس، يعدون فى عداد غير الراشدين، الذين رفع عنهم التكليف، فيلحقون بالبله والحمقى: « لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لا يسمعون بها، أولئك كالأنعام بل هم أضل، أولئك هم الغافلون» (سورة الأعراف: ١٧٩).

وهذا الصنف من المقلدين إنما يسقط عنهم التكليف إذا كان ذلك

هو مستواهم العقلى الذى عاشوا به ، وصحبهم فى جميع تصرفاتهم . . أما إذا كانت لهم عقول يحسنون بها التصرف فى أمور معاشهم ، فإذا جاءوا إلى أمور دينهم لم يتكلفوا لها جهداً ، ولم يوجهوا إليها عقلا — فهؤلاء لا يرفع عنهم التكليف ، بل هم مكلفون ومحاسبون على ما يكون منهم ، من كفر أو شرك ، أو تقصير فى توجيه عقولهم إلى فهم حقائق دينهم .

ولهذا يرى كثير من علماء المسلمين أن المسلم الذى معه فيما قل ، لا يكون مقلداً ، إذ يحمله هذا العقل دائماً على أن يفكر فيما يرى أو يسمع . وأنه حين يتلقى أحكام دينه من أهل العلم ، فإنه يدرك كثيراً مما يلقاه ، وإن خفى عليه الكثير أيضاً ، إلا أنه فى ممارسته لأمور دينه وفى اشتراكه مع جماعة المسلمين فى أداء العبادات ، وفى المعاملات وغيرها ، كل هذا يتدرج به شيئاً فشيئاً إلى مزيد من المعرفة بحقائق دينه ، وإن حسب مع هذا من المقلدين ، إذ لا بد من أن تعرض له أمور يحتاج فيها إلى رأى أهل العلم الذين يستفتيهم فيفتونه بحكم الشرع فيها .

وإذن فإنه يمكن القول بأنه لا يكاد يرى مقلد فى الإيمان بالله، وبرسوله، وبأن القرآن كلام الله ، وبالبعث والحساب ، والجزاء والجنة والنار . . إذ أن العامى حين يسمع الناس يقولون « إن للخلق ربا خلقهم ، وخلق كل شىء وهو الذى يستحق العبادة وحده لا شريك له — فاذا تكرر على أذنيه ذلك القول يوما بعد يوم ، ورأى ذلك مجمعا عليه من العقلاء ، حكم بصحة إدراك هؤلاء ، لحسن ظنه بهم ، فاعتقد بما اعتقدوا به ، وبذلك يكون قد قام بالواجب عليه من الإيمان ، إذ لم يبق سوى الاستدلال ، ولما كان مقصود الاستدلال ، هو حصـــول الجزم ، وقد حصل الجزم والاعتقاد بمتابعة

الإجماع ، وحسن الظن بأهل العقل والعلم - فقام ذلك الاستدلال الضمنى مقام الاستدلال الذاتى .

وقد أمر الله تعالى الذين يغيب عنهم شىء من فروع الدين أن يسألوا أهل العلم والتقوى فيهم ، فقال تعالى : « فاسألوا أهل الذكر ، إن كنتم لا تعلمون » (سورة النحل : ٤٣) وقال سبحانه : « وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ، ولو ردوه إلى الرسول ، وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذى يستنبطونه منهم ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا » (سورة النساء : ٨٣) .

وإنه لظالم لنفسه ، مقصر فى أمر دينه ، سالك مسالك التيه والضلال ، من عرض له أمر من أمور دينه ، وهو لا يدرى وجه الحق منه ، ثم لم يسأل أهل الذكر عنه ، ويعرف حكم الشرع فيه .

وإنه لواجب شرعًا على أهل العلم أن يكشفوا حقائق الدين للعوام وأشباه العوام وأن يقوموا مقام الرسل فيهم ، بالدعوة إلى الحق ، وإزالة الشبهات ، وفضح الضلالات .. يقول الله تعالى : « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ، ولا تكتمونه » (سورة آل عمران : ١٨٧) .

وخلاصة القول فى شأن التقليد والمقلدين فى الإسلام :

أولا : أن أصول العقيدة والشريعة لا يجوز التقليد فيها ، ولا يصح إيمان المقلد فى تلك الأصول . . فالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، واليوم الآخر ، لا يكون الإيمان صحيحًا بها إلا باعتقاد جازم ، ولا يقع

الاعتقاد إلا مع إدراك وعلم . . وكذلك الإيمان بما افترض الله على المسلم من عبادات ، وما حرم عليه من محرمات .

وقد توعد الله تعالى أولئك الذين وقعوا فريسة فى أيدى دعاة الضلال وأئمة الفجور والفسوق ، وأخذهم بما أخذ به قادتهم إلى هذا الضلال . وفى ذلك يقول الحق سبحانه : « إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ، ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ، وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا ؟ كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم ، وما هم بخارجين من النار » . (سورة البقرة : ١٦٦ — ١٦٧) . ويقول سبحانه : « وبرزوا لله جميعاً ، فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء ؟ قالوا لو هدانا الله لهديناكم ، سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ، وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى ، فلا تلومونى ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى ، إنى كفرت بما أشركتمونى من قبل ، إن الظالمين لهم عذاب أليم » (سورة ابراهيم : ٢١ — ٢٢) . . ويقول تعالى : « وإذ يتحاجون فى النار ، فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً ، فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار ؟ قال الذين استكبروا إنا كل فيها ، إن الله قد حكم بين العباد » (سورة غافر : ٤٧ — ٤٨) . ويقول سبحانه : « ويوم يناديهم فيقول أين شركائى الذين كنتم تزعمون ؟ قال الذين حق عليهم القول ربنا هؤلاء الذين أغوينا ، أغويناهم كما غوينا ، تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون ، وقيل ادعوا شركاءكم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم

ورأوا العذاب ، لو أنهم كانوا يهتدون » (سورة القصص : ٦٣ ـ ٦٤) .
ويقول تبارك اسمه : « ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم ، يرجع بعضهم إلى بعض القول ، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين ، قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم ؟ بل كنتم مجرمين ، وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ، ونجعل له أنداداً ، وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا . . هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ؟ » (سورة سبأ : ٣١ ـ ٣٣) .

ونعود بعد هذا لنسأل سؤالا ذكرناه آنفًا وهو :

كم من المنتسبين إلى الإسلام منذ أخريات عصر الصحابة وإلى اليوم ، قد زهدوا فى عقولهم واستغنوا عنها فى التعرف على دينهم ، وتحولوا إلى جماعات من العميان فأسلموا أنفسهم لأهل الأهواء والبدع ، يقودونهم إلى حيث يشاءون ، كما يقود الجزار بهيمته إلى المذبح ؟ إنهم كثيرون وكثيرون فى كل بلد ، وفى كل جيل ، قد ركبوا طرقًا مختلفة ضالة ، من الطرق التى أشار إليه الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى قوله : « افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها فى النار إلا واحدة » قيل من هى يارسول الله ؟ قال : « ما أنا عليه وأصحابى اليوم » .

والذى يعنينا النظر إليه فى هذا المقام ، هو تلك الطرق الصوفية ، التى استهوت كثيراً من العامة وأشباه العامة ، وقد كثرت الأقوال فى التصوف والمتصوفة ، قديما وحديثا واختلفت وجوه الرأى فى أصحاب هذه الطرق ، وفى

الآخذين تلك الطرق معهم .. فهناك من يذهب إلى القول بأن التصوف هو الإسلام فى أعلى منازله ، وأصفى موارده ، وأنه أقوم الطرق وأقربها للاشراف على منازل القرب من الله ، وبلوغ مراتب الولاية .. وذلك على حين يرى كثيرون أن التصوف بدعة مستحدثة فى الإسلام ، محملة بالاستهواء والتغرير ، لا ينجذب إليه إلا الجهال والحمقى ، الذين يتهافتون عليه ، كما يتهافت الفراش على النار ، وأنه مصيـــدة للمآكل الآثمة التى ينصبها المشعوذون والمحتالون ، للتغرير بالناس وسلب أموالهم . واستخدامهم كما تستخدم الأنعام .

ومن هنا ، كان علينا أن نكشف عن وجه هذه الظاهرة — ظاهرة التصوف — وأن نحدد علاقة التصوف بالإسلام — إيجابا أو سلبا — حتى يكون حكمنا عليه بعد هذا قائمًا على ميزان العدل ، والنصح لله ولرسوله وللمؤمنين ، « ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حى عن بينة » (سورة الأنفال : ٤٢) .

ومع ما نعرف من ثقل هـذه الأمانة ، وعظم تلك المسئولية فى هذا الموقف الذى نلقى الله تعالى به ـ فإنى لن أحجم أبداً عن حمل هذه الأمانة ، وتحمل تبعاتها ، امتثالا لقوله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون » (سورة آل عمران : ١٠٤) ولقوله سبحانه : «ولا تكتموا الشهادة ، ومن يكتمها فإنه آثم قلبه » (سورة البقرة : ٢٨٣) .

ولقوله صلى الله عليه وسلم : « لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر

ثم لتأخذن على يد الظالم ، ولتأطرنه[1] على الحق أطرا ، ولتقصرنه على الحق قصرا ، أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض ، ثم يلعنكم كما لعنهم — أى اليهود —[2] » .

ويحسبنا فى هذا الموقف أن نخلص النية ، وأن نتخلص من الهوى ، وأن نتحرى الحق ، ونبغى الخير للمسلمين ، ونحن فى هذا مجتهدون ، إن أخطأنا فلنا أجر ، وإن أصبنا فلنا أجران ، كما يقول الرسول الكريم : من اجتهد فأصاب فله أجران ، ومن اجتهد فأخطأ فله أجر » وذلك أن الخطأ هنا هو خطأ واقع من وراء نية البحث عن الحق ، على خلاف الخطأ المتعمد ، فإن صاحبه آثم ، عليه وزر خطئه ووزر من عمل به إلى يوم القيامة : « وإنما الأعمال بالنيات وإنما لكل أمرىء ما نوى » .

هذا ، وإن البحث عن التصوف ، والتحقق من نسبته إلى الإسلام ليقتضينا أن نتعرف على دين الله ، ونتبين الأصول التى قام عليها . . فاذا عرفنا هذا أمكن أن نقيم على ميزان الدين كل قول يقال فيه ، وكل عمل ينسب إليه ، والله يهدى إلى الحق ، وإلى صراط مستقيم .

●★●

(١) أطره على الحق أطرا ، عطفه عليه ، ورده اليه ، وقصره على الحق قصرا ، قهره عليه ، والزمه اياه .

(٢) رواه أبو داود ، والترمذى .



الباب الثاني

ألا لله الدين الخالص



الفصل الأول

الإيمان .. والشرك

فى كل إنسان داع يدعوه إلى الاعتقاد فى قوة من القوى ، سواء كانت تلك القوة مشهودة له ، أو متخيلة له ، فى عالم الأحلام والأوهام ، فيتعبد لهذه القوة بألوان شتى من العبادات ، طمعاً فى عونها ، أو خوفاً من ضرها .

وعلى قدر ما عند الإنسان من عقل ، وبصيرة وإدراك ، يكون معبوده الذى يعبده . . فقد ينحط عقل الإنسان فيعبد شجراً أو حجراً أو نهراً ، أو طائراً أو حشرة ، فإذا ارتقى عقل الإنسان درجة بعد درجة ، خرج من سلطان هذه المعبودات واحداً واحداً ، حتى لا يبقى من عالم المحسوسات شيئاً يعبده ، مهما بلغت قوته ، ومهما كان سلطانه . . وهنا يتجه ببصيرته إلى ما وراء الحس ، فيشهد بفطرته أن فوق هذا العالم المحسوس قوة تقوم على هذا الوجود خلقاً وأمراً . . قوة تنتهى عندها جميع القوى ، وتخضع لسلطانها كل المخلوقات . .

وهذا ما كان من إبراهيم — عليه السلام — حين مد بصره إلى قومه فرآهم ينحتون أحجاراً بأيديهم ، ثم يعبدونها ، ويقدمون لها القرابين . متصاغرين بين يديها ، خاشعين من الذل لها — فأبت عليه فطرته ، وتأبى عليه عقله أن يكون لتلك الدمى الملقاة على الأرض أثر فى نفع الإنسان أو ضره ، وهى جاثمة لا تستطيع التحول عن حالها ، ثم أخذ ابراهيم — عليه

السلام — يدير بصره فى العوالم القائمة على الأرض ، من جماد ، ونبات ، وحيوان ، فرآها جميعها أضعف من الإنسان قدراً ، وأضأل شأناً ، وإنه إذا صح أن يتعبد مخلوق لمخلوق ، وجب أن يتعبد الأدنى للأعلى ، لا أن يعكس الأمر فيتعبد الأعلى للأدنى ، كما يفعل هؤلاء الذين يعبدون ما يعبدون من عوالم الجماد ، والنبات والحيوان ، تلك العوالم التى سخرها الله تعالى للانسان وأقامه خليفة عليها .

وحين أسقط إبراهيم عليه السلام — كل عوالم المخلوقات الأرضية ، وأنزلها من مقام عبودية الإنسان لها ، رفع بصره إلى السماء ، باحثاً عن قوة تخضع لها عوالم السماء كلها . . وفى هذا يقول الله تعالى : « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ، وليكون من الموقنين ، فلما جن عليه الليل رأى كوكباً ، قال هذا ربى . . فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى فلما أفل ، قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من الضالين . . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون ، إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين . . وحاجه قومه ، قال أتحاجونى فى الله وقد هدان ، ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئاً وسع ربى كل شىء علماً ، أفلا تتذكرون ؟ وكيف أخاف ما أشركتم ، ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً ، فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون » (سورة الأنعام : ٧٦ — ٨١) .

وهكذا ينتهى النظر بإبراهيم — عليه السلام — إلى إيمان الفطرة والعقل ثم يأتيه من ربه إيمان الدعوة ، بما حمل إليه الوحى من آيات الله وكلماته .

وكما يرتفع الإنسان من الشرك إلى الإيمان ، بداعى فطرته وعقله ، أو بدعوة رسول من رسل الله تعالى ، فإنه قد يتدلى الإنسان من الإيمان إلى الشرك ، بما يسوق إلى الإيمان من بدع وضلالات ، حتى يختنق إيمانه وتزهق روحه ، من دخان الشرك المتصاعد من هذه البدع وتلك الضلالات ، وهذا ما كان من عرب الجاهلية ، الذى تحولوا من الإيمان الذى كانوا عليه من دعوة إبراهيم واسماعيل عليهما السلام — إلى عبادة الأصنام التى وجدهم الإسلام عاكفين عليها .

● ★ ●

الفصل الثاني

الربوبية والألوهية

من الكلمات الدائرة على ألسنة المسلمين ، كلمتا الرب ، والإله ، وكثير من المسلمين لا يفرقون بين الكلمتين في مدلولهما ، فيجعلون كلمة الرب بمعنى كلمة الإله ، وكلمة الإله مقابلة لكلمة الرب . . والفرق بين الكلمتين هو الذي يفرق بين إيمان وإيمان ، بين إيمان خالص ؛ وإيمان متلبس بالشرك الذي يغتاله ، ويزيله من مكانه في العقول والقلوب .

فالرب :

من التربية ، بحيث يتولى الله سبحانه تصريف شئون خلقه ، وإمدادهم بكل ما يحفظ وجودهم من آلائه ونعمه ، فضلا وإحسانا منه سبحانه : « الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » (سورة طه : ٥٠) .

وأما الإله :

فهو الذي يأله له الخلق ، أي يفزعون إليه فيما ينوبهم ، وهو مشتق من الأله ، أي الفزع . . هذا ، ولم يختلف المثبتون لربوبيته تعالى ولم يشركوا به أحداً فيها ؛ وإن كان بعض المثبتين للألوهية يشركون في ألوهيته ، فيفزعون إلى غيره سبحانه في قضاء حوائجهم .

يقول محمد بن اسماعيل ، الأمير ، اليمني الصنعاني (١٠٩٩ - ١١٨٢ هـ) :
(التوحيد قسمان) :

القسم الأول :

توحيد الربوبية والخالقية والرازقية : ومعنى هذا ، أن الله تعالى وحده ، هو الخالق للعالم ، وهو المربى لهم ، والرازق لهم .. وهذا التوحيد لا ينكره المشركون ، ولا يجعلون لله شريكا فيه ، بل هم مقرون به :

يقول تعالى : « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله » (سورة الزخرف : ٨٧) .

ويقول سبحانه : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ، ليقولن خلقهن العزيز العليم » (سورة الزخرف : ٩) .

ويقول سبحانه : « قل من يرزقكم من السماء والأرض ؟ أم من يملك السمع والأبصار ؟ ومن يخرج الحى من الميت ، ويخرج الميت من الحى ؟ ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون الله . . فقل أفلا تتقون » (سورة يونس : ٣١) . ويقول تعالى : « قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله ، قل أفلا تذكرون ؟ قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم ؟ سيقولون لله . . قل أفلا تتقون ؟ قل من بيده ملكوت كل شىء ، وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون لله . . قل فأنى تسحرون » . (سورة المؤمنون : ٨٤ — ٨٩) .

والقسم الثانى

توحيد الألوهية ، وهو إفراد الله تعالى وحده بجميع العبادات ، والفزع إليه وحده سبحانه فى كل ما ينوب الإنسان ، وما يرجو من جلب خير ، أو دفع ضر ، وهذا هو الذى أشرك فيه المشركون .

وقد جاء رسل الله ـ عليهم الصلاة والسلام ـ بدعوة الناس إلى توحيد الله وتنزيهه سبحانه من أن يكون له شريك، لا للتعريف بأن الله هو الخالق للعالم، وأنه رب السموات والأرض، إذ هم مقرون بهذا، ولهذا لم ترد الآيات القرآنية إلا بصيغة التقرير لوحدانية الله :

« هل من خالق غير الله ؟ » (سورة فاطر : ٣) .

« أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ » (سورة النحل : ١٧) .

« أفي الله شك، فاطر السموات والأرض ؟ » (سورة الشورى : ١٠).

« قل أغير الله أتخذ ولياً، فاطر السموات والأرض ؟ » (سورة الأنعام : ١٤) .

« هذا خلق الله، فأروني ماذا خلق الذين من دونه ؟ » (سورة لقمان : ١١) .

« أروني ماذا خلقوا من الأرض ؟ أم لهم شرك في السموات ؟ » سورة الأحقاف : ٤) .

والرسل مبعوثون للدعوة إلى إفراد العبودية لله وحده :

« فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون » (سورة البقرة : ٢٢) .

« أين شركائي الذين كنتم تزعمون ؟ » (سورة الأنعام : ٢٢) .

« وقيل ادعوا شركاءكم، فدعوهم فلم يستجيبوا لهم » (سورة القصص ٦٤)

« له دعوة الحق، والذين يدعون من دونه، لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه، وما هو ببالغه، وما دعاء الكافرين) إلا في ضلال » (سورة الرعد : ١٤) .

« إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ، فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين » (سورة الأعراف : ١٩٤) .

« والذين تدعون من دون الله ، لا يستطيعون نصركم ، ولا أنفسهم ينصرون » سورة الأعراف : ١٩٧)[١] .

●✱●

وقد عرض شيخ الإسلام الشيخ محمد بن عبد الوهاب هذه القضية عرضاً وافياً ، وذلك فى كتابه : « كشف الشبهات فى التوحيد » ـ يقول رحمه الله تعالى :

« اعلم رحمك الله ، أن التوحيد هو إفراد الله تعالى بالعبادة . وهو ـ أى التوحيد ـ دين الرسل الذين أرسلهم الله به إلى عباده . فأولهم نوح ـ عليه السلام ـ أرسله إلى قومه لما غلوا فى الصالحين : ود ، وسواع ، ويغوث ويعوق ، ونسراً[٢] وآخر الرسل « محمد » ـ صلى الله عليه وسلم ، وهو الذى كسر صور هؤلاء الصالحين ـ أرسله الله تعالى إلى قوم يتعبدون ، ويحجون ويتصدقون ، ويذكرون الله ، ولكنهم يجعلون بعض الخلائق وسائط بينهم وبين الله . يقولون : نريد منهم التقرب إلى الله ، ونريد شفاعتهم عنده ، مثل الملائكة ، وعيسى ، وأناس غيرهم من الصالحين . فبعث الله محمداً ـ

---

(١) من كتاب : تطهير الاعتقاد عن أدران الالحاد ، لمحمد بن اسماعيل الصنعانى .

(٢) وهؤلاء من أهل الصلاح والتقوى فى زمنهم ، فلما ماتوا تعلق قومهم بهم ، وأقاموا على قبورهم المبانى الضخمة العالية ، وجعلوا يزورونهم .. ثم مع تراخى الزمن ، رفعوهم الى مقام الألوهية ، وعبدوهم من دون الله .. فكانت دعوة نوح عليه السلام ، هى كشف هذا الضلال الذى غرق فيه قومه .

صلى الله عليه وسلم - يجدد لهم دين أبيهم ابراهيم - عليه السلام - ويخبرهم أن هذا التقرب والاعتقاد محض حق الله ، لا يصلح منه شيء لغيره ، لا لملك مقرب ، ولا لنبي مرسل ، فضلا عن غيرهما ، وإلا فإن هؤلاء المشركين يشهدون أن الله هو الخالق وحده ، لا شريك له ، وأنه لا يرزق إلا هو ، ولا يحي إلا هو ، ولا يميت إلا هو ، ولا يدبر الأمر إلا هو ، وأن جميع السموات ومن فيهن ، والأرضين السبع ومن فيهن ، كلهم عبيده وتحت تصرفه وقهره » .

ثم يقول الشيخ - رحمه الله - :

« فإذا أردت الدليل على أن هؤلاء الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يشهدون بهذا ، فأقرأ قوله تعالى : « قل من يرزقكم من السماء والأرض ؟ أم من يملك السمع والأبصار ؟ ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ؟ ومن يدبر الأمر ؟ فسيقولون الله . فقل أفلا تتقون ؟ » (سورة يونس : ٣١) . وغير ذلك من الآيات .

« فإذا تحققت أنهم مقرون بهذا ، ولم يدخلهم هذا في التوحيد الذي دعاهم إليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعرفت أن التوحيد الذي جحدوه ، هو توحيد العبادة ، الذي يسميه المشركون في زماننا (الاعتقاد) كما كانوا يدعون الله سبحانه ليلا ونهاراً ، ثم منهم من يدعون الملائكة لأجل صلاحهم وقربهم إلى الله ، ليشفعوا لهم ، أو يدعون رجلا صالحاً ، مثل « اللات » أو نبياً مثل عيسى ، وعرفت أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قاتلهم على هذا الشرك ، ودعاهم إلى إخلاص العبادة لله وحده

كما قال تعالى : « له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء » (سورة الرعد : ١٥) . وتحققت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم - قاتلهم ليكون الدعاء كله لله ، والذبح كله لله ، والاستغاثة كلها لله ، وجميع العبادات كلها لله ، وعرفت أن إقرارهم بتوحيد الربوبية لم يدخلهم في الإسلام وأن قصدهم الملائكة والأنبياء والأولياء يريدون شفاعتهم ، والتقرب إلى الله بذلك ، هو الذى أحل دماءهم وأموالهم - إذا عرفت هذا ، عرفت حينئذ التوحيد الذى دعت إليه الرسل ، وأبى عن الإقرار به المشركون . وهذا التوحيد ، هو قولك : « لا إله إلا الله » - فإن الإله عندهم - أى المشركين - هو الذى يقصد لأجل هذه الأمور ، سواء كان ملكا ، أو نبياً أو ولياً أو شجرة ، أو قبراً ، أو جنياً ، ولم يريدوا أن الله هو الخالق ، الرازق المدبر ، فإنهم يعلمون أن ذلك لله وحده ، وإنما يعنون بالاله ما يعنى المشركون فى زماننا بلفظ « السيد » - فأتاهم النبى صلى الله عليه وسلم - يدعوهم إلى كلمة التوحيد : « لا إله إلا الله » والمراد من هذه الكلمة معناها ، لا مجرد لفظها والكفار والجهال ، يعلمون أن مراد النبى صلى الله عليه وسلم ، بهذه الكلمة هو إفراد الله تعالى بالتعلق به ، وبالكفر بما يعبدون من دون الله ، والبراء مما يعبدون من دونه . فإنهم لما قال لهم النبى - صلى الله عليه وسلم : قولوا : لا إله إلا الله قالوا : « أجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ إن هذا لشيء عجاب »[1] (سورة ص : ٥)[2] .

ثم يمضى الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فى زيادة هذا الأمر وضوحاً فيقول:

---

(١) وهذا الاستفهام منهم على سبيل الجحد والانكار .
(٢) انظر كتاب : كشف الشبهات فى التوحيد : ص ٨ - ٩ .

« وأنا أذكر لك أشياء مما ذكر الله تعالى فى كتابه ، جواباً لكلام احتج به المشركون فى زماننا ، علينا ، فنقول : « جواب أهل الباطل من طريقين : مجمل ، ومفصل .

« أما المجمل ، فهو الأمر العظيم ، والفائدة الكبيرة لمن عقلها ، وذلك قوله تعالى : « هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ، ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون فى العلم يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولوا الألباب » (سورة آل عمران : ٧) . وقد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه ، فأولئك الذين سمى الله ، فاحذروهم »[١] . ومثال ذلك : إذا قال لك بعض المشركين : « ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (سورة يونس : ٦٢) وأن الشفاعة حق ، وأن الأنبياء لهم جاه عند الله ، أو ذكر كلاماً للنبى صلى الله عليه وسلم يستدل به على شىء من باطله ، وأنت لا تفهم معنى الكلام الذى ذكره — فجاوبه بقولك : إن الله تعالى ذكر أن الذين فى قلوبهم زيغ يتركون المحكم ويتبعون المتشابه وما ذكرته لك من أن الله تعالى ذكر أن المشركين يقرون بالربوبية، وأن كفرهم هو بتعلقهم على الملائكة والأنبياء والأولياء ، مع قولهم :

---

(١) والذين سمى الله تعالى هم الذين فى قلوبهم زيغ ، كما جاء فى الآية الكريمة .

« هؤلاء شفعاؤنا عند الله » — وهذا أمر محكم بين ، لا يقدر أحد أن يغير معناه ، وما ذكرت لي أيها المشرك ، من القرآن أو كلام النبي صلى الله عليه وسلم لا أعرف معناه ، ولكني أقطع أن الله تعالى لا يتناقض ، وأن كلام النبي صلى الله عليه وسلم ، لا يخالف كلام الله . وهذا كلام سديد ، لا يفهمه إلا من وفقه الله فلا تستهونه فإنه كما قال الله تعالى : « وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » (سورة فصلت : ٣٥) » .

ثم يقول الشيخ — رحمه الله : —

« وأما الجواب المفصل . فإن أعداء الله لهم اعتراضات كثيرة ، يصدون بها الناس ، منها قولهم : نحن لا نشرك بالله ، بل نشهد أنه لا يخلق ، ولا يرزق ، ولا ينفع ولا يضر ، إلا الله وحده ، لا شريك له ، وأن محمداً صلى الله عليه وسلم لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً ، فضلا عن (عبد القادر) — الجيلاني ، أو غيره .

« ولكن أنا مذنب ، وهؤلاء الصالحون لهم جاه عند الله ، وأطلب من الله بهم ! !

« فجاوبه : بأن الذين قاتلهم رسول الله — صلى الله عليه وسلم — مقرون بما ذكرت ، ومقرون أن أوثانهم لا تدبر شيئاً ، وإنما أرادوا الجاه والشفاعة بهم . واقرأ عليه ما ذكر الله تعالى في كتابه ووضحه . فإن قال إن هذه الآيات نزلت فيمن يعبدون الأصنام ، فكيف تجعلون الصالحين أصناماً ؟ — فجاوبه بما تقدم ، فإنه إذا أقر أن الكفار يشهدون بالربوبية كلها لله ، وأنهم ما أرادوا ممن قصدوا إلا الشفاعة .

فاذكر له أن الكفار ، منهم من يدعو الصالحين ، ومنهم من يدعو الأولياء الذين قال الله فيهم : « أولئك الذين يدعون ، يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمته ، ويخافون عذابه » (سورة الإسراء : ٥٧) . ويدعون عيسى بن مريم وأمه ، وقد قال الله تعالى : « ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة ، كانا يأكلان الطعام . انظر كيف نبين لهم الآيات ، ثم انظر أنى يؤفكون » (سورة المائدة : ٧٨) . واذكر قوله تعالى : « يوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟ قالوا سبحانك ، أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن ، أكثرهم بهم مؤمنون » (سورة سبأ : ٤٠ — ٤١) . ثم قل له : أعرفت أن الله كفر من قصد الأصنام ، وكفر أيضا من قصد الصالحين ، وقاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

« فإن قال : الكفار يريدون منهم ، وأنا أشهد أن الله هو النافع الضار ، المدبر ، لا أريد إلا منه . والصالحون ليس لهم من الأمر شيء ولكن أقصدهم أرجو من الله شفاعتهم ! !

« فالجواب : أن هذا وقول الكفار سواء بسواء . واقرأ عليه قوله تعالى : على لسانهم : « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » (سورة الزمر : ٣) .

وقوله تعالى على لسانهم أيضاً : « هؤلاء شفعاؤنا عند الله » (سورة يونس : ١٨) .

ثم يمضى الشيخ رحمه الله ، فى دحض حجج أهل الشرك ـ فيقول :

« فإن قال ـ أى المشرك ـ : الشرك عبادة الأصنام ، ونحن لا نعبد الأصنام ! !

« فقل له : وما معنى عبادة الأصنام ؟ أتظن أن عبادها يعتقدون أن تلك الأخشاب والأحجار ، تخلق ، وترزق ، وتدبر أمر من دعاها ؟ فهذا يكذبه القرآن بما نطق به على ألسنتهم .

« وإن قال : الشرك هو من قصد خشبة أو حجراً أو بنية ، أو غيرهما ، يدعو ذلك ويذبح له ، ويقول : إنه يقربنا إلى الله زلفى ، ويدفع عنا البلاء ببركته .

« فقل له : صدقت . . وهذا هو فعلكم عند الأحجار والبنايات التى على القبور وغيرها . »[1] .

ثم ينهى الشيخ ـ رحمه الله ـ هذا الموقف بقوله :

« فإذا عرفت أن هذا الذى يسميه المشركون فى وقتنا هذا «الاعتقاد» ـ أى الاعتقاد فى جاه من يتوسلون به ـ هو الشرك الذي نزل فيه القرآن ، وقاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس عليه ـ فاعلم أن شرك الأولين ـ ـ أى أهل الجاهلية ـ أخف من شرك أهل وقتنا ، بأمرين :

(أحدهما) :

« أن الأولين لا يشركون ، ولا يدعون الملائكة والأولياء والأوثان مع الله إلا فى الرخاء . . أما فى الشدة فإنهم يخلصون لله الدين ، كما قال

(١) ص : ١٠ ـ ١١ من كتاب كشف الشبهات .

الله تعالى : (قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة ، أغير الله تدعون إن كنتم صادقين ؟ بل إياه تدعون ، فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما تشركون) . (سورة الأنعام : ٤٠ - ٤١) وقوله سبحانه : « وإذا غشيهم موج كالظلل ، دعوا الله مخلصين له الدين » . (سورة لقمان : ٣٢) .

فمن فهم هذه المسألة التي وضحها الله تعالى في كتابه ، وهي أن المشركين الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم - يدعون الله ، ويدعون غيره في الرخاء ، وأما في الضر والشدة ، فلا يدعون إلا الله وحده لا شريك له - وينسون سادتهم - فمن فهم هذا ، تبين له الفرق بين شرك أهل زماننا ، وشرك الأولين ! ولكن أين من يفهم قلبه هذه المسألة فهماً راسخاً ؟ والله المستعان .

(الأمر الثاني) :

« أن المشركين الأولين يدعون مع الله أناساً مقربين عند الله ، إما أنبياء وإما أولياء ، وإما ملائكة ، أو يدعون أشجاراً وأحجاراً مطيعة لله ، ليست عاصية وأهل زماننا ، يدعون مع الله أناساً أفسق الناس ، والذين يدعونهم هم أنفسهم الذين يذكرون عنهم الفجور ، من الزنا ، والسرقة ، وترك الصلاة ، وغير ذلك »[1] .

● ★ ●

ونقول ، رحم الله الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ورضي عنه ، فقد فتح

---

(١) ص : ١٦ - ١٧ من كتاب كشف الشبهات .

بصره وبصيرته على هذه الأمة ، وهى تموج فى بحار الشرك والكفر ، لا يكاد يبدو للاسلام فيها أى معلم من معالمه ، فى عقيدة أو شريعة أو سلوك ، فألهمه الله أن يقوم فى وجه هذا الضلال الغليظ، وأن يقيم ما استطاع أهله وعشيرته على صراط الله ، وأن يجدد لهم إيمانهم مبرأ من الشرك ، ودخائل الشرك ، حتى استطاع بمؤازرة من هداهم الله إلى الحق ، وشرح صدورهم له ـ أن يفتح طاقة من نوره ، حيث مطلع الرسالة الإسلامية ، ثم ما زالت تلك الطاقة تتسع ، وتتسع حتى وسعت الجزيرة العربية كلها ، ثم جاوزتها إلى آفاق كثيرة من أوطان الإسلام .

ومع هذا فإن جراثيم الشرك ما زالت تسبح فى عقول كثير من المسلمين وتغتال مواطن الإيمان من قلوبهم ، حتى لتكاد تلك الجراثيم تتسلط على أوطان بأكملها ، ولسان الحال هنا أفصح من كل مقال . . فهناك من أوطان المسلمين من دخلت فى الشيوعية رسمياً ، وآمنت بما آمن به الشيوعيون من أنه لا إله ، ولا بعث ، ولا حساب ولا جزاء ، وأن الدين هو « أفيون » الشعوب ، وأنه إذا كان هناك دين ، فهو المادة والدولة . . وهناك أوطان إسلامية لم تعلن رسمياً أنها تدين بالشيوعية لسبب أو لآخر ـ ولكنها تسير إليها بخطوات حثيثة واسعة !

وما ذلك إلا لأن الإسلام ، قد أخلى أو أوشك أن يخلى مكانه من عقول الناس وقلوبهم فى هذه الأوطان ، بما دخل عليهم من بدع المبتدعين ، وضلالات المضللين . ومن هنا وجد الإلحاد مكاناً خالياً مهيئاً له .

ولو أنه كان للاسلام مكانه الصحيح فى تلك الأوطان التى دينها

الإسلام ، لما جرؤ حاكم قائم على دولة إسلامية أن يعلن على الملأ إبطال أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قائلا فى تحد وقاح : «حسبنا القرآن»!! بل إن هذا الجاهل المغرور ، جعل يغير فى القرآن بما أملاه عليه شيطانه فكان يؤم الناس بالصلاة عن عمد وسبق إصرار لتبديل كلمات الله فيقرأ كل آية مصدرة بخطاب الله تعالى لرسوله الكريم بقوله تعالى : «قل» دون أن يذكر كلمة «قل» بل يقرأ : « الله أحد الله الصمد » .. « أعوذ برب الخلق » . « أعوذ برب الناس » دون كلمة قل فى السور الثلاث ، مدعياً أن الله قال ذلك للنبى ، ولم يقله لنا ! سبحانك هذا بهتان عظيم !!

والحق يدعونا أن نذكر اسم هذا الحاكم ، وأن نلعنه على الملأ ليكون تحت لعنة الله والملائكة والناس أجمعين .. إنه هو « معمر القذافى » مسيلمة هذا الزمن ، وحاكم ليبيا ، الدولة المسلمة العريقة فى الإسلام .

ولو أن الإسلام كان على صحته وسلامته ، وبكل حقائقه العليا ، راسخاً فى العقول والقلوب ، لما كان لأى مذهب ضال ، أو دين فاسد أن يزحزح الإسلام قيد أنملة من مكانه . . وهل تجد الجراثيم لها مكاناً فى الجسد السليم ؟ إنها تموت بمجرد أن تتصل بمثل هذا الجسد ، حيث تأتى عليها قوى المناعة والحصانة من هذا الجسد ، فتهلكها قبل أن تنال منه شيئاً .

فهل للمسلمين اليوم ، من يجدد لهم دينهم ، كما فعل محمد بن عبد الوهاب؟ إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة دينها » . وقد مضى على وفاة محمد بن عبد الوهاب

أكثر من مائتي سنة(1) . ومعنى هذا أن هذا المجدد قد أظل زمانه والمكان خال مهيأ لاستقباله ، ولا شك أن المجدد بعد المائة الأولى من وفاة هذا الإمام قد ظهر فى آل سعود ، الذين حملوا الأمانة من بعده ، إلى أن تم لهم فتح الجزيرة العربية كلها ، وجدّدا لأهلها دينهم ، فمن هو ذلك المجدد الذى ندبه الله لتلك المهمة الجليلة العظيمة فى وقتنا هذا ، وفى المائة الثانية من وفاة الإمام ؟ ذلك ما ينكشف عنه الغد ، « وإن غداً لناظره قريب » .

●✱●

هذا ، وقد آن لنا أن نلتقى بتلك الجبهة التى يحاول ذلك المجدد المنتظر أن يتولى جهادها ، ودفع ما تسوقه إلى المسلمين من بلاء ..

(1) ولد — رحمه الله سنة ١١١٥ — وتوفى سنة ١١٧٩ هـ .



الباب الثالث

عالم التصوف والمتصوفة



الفصل الاول

من ظاهر هذا العالم الصوفى

كلمة التصوف :

لم تدخل فى قاموس اللغة العربية ، ولم تجر على ألسنة العرب فى الجاهلية وفى صدر الإسلام ومدة عصر الخلافة الأموية ، لفظة (التصوف) !

فهى كلمة ولدت فيما ولد ، واستحدث ، من كلمات فى العصر العباسى الأول ، حيث اشتد اختلاط المسلمين من الفرس ، والروم ، بالعرب ، وامتزجوا بهم ، وأصهروا إليهم ، ثم اتسع نفوذهم السياسى ، والاجتماعى ، حتى اصطبغت الدولة بالصبغة الفارسية ، فى أنظمتها السياسية ، وفى مظاهر حياتها الاجتماعية ، وحتى كادت الخلافة تتحول إلى الفرس على يد «البرامكة» فى خلافة الرشيد ، لولا أن تنبه لهم ، وفتك بهم .

فى هذا الجو ولدت كلمة « التصوف » تلك الكلمة الوافدة على اللغة العربية ، والتى لم يرد لها ذكر فى كتاب الله ، ولا على لسان رسول الله ، ولا على ألسنة الصحابة والتابعين . بل إنها لم تجر على ألسنة الشعراء ، والخطباء فى الجاهلية .

والكلمات أشبه بالكائنات الحية ، فى أعمارها ، وآثارها . . فبعض الكلمات يموت بعد مولده ، لا يكاد يجرى على لسان أو بضعة ألسنة ، حتى

يختفى إلى الأبد ، وبعض الكلمات يولد ، ثم تمتد حياته مع الناس جيلا بعد جيل ، ما دام للناس حياة على هذه الأرض . . ومن تلك الكلمات الحية تتغذى العقول، وتتخلق المدركات وتنمو المشاعر، حيث تبعث الدفء والأمل والحياة فى الناس . . ومن بين تلك الكلمات التى تتصل بحياة الناس ما هو طيب ، ومنها ما هو خبيث . . فمن الكلم الطيب قام التوحيد والإيمان الحق بالله ، ومن الكلمات الخبيثة ، قامت المذاهب الضالة ، والديانات المنحرفة التى يتوارثها الناس جيلا بعد جيل ، فى كثير من الأمم والشعوب .

وبين هذه الكلمات التى تموت ليومها ، والكلمات التى تصحب الزمن على امتداده ، أشكال كثيرة من الكلمات التى تملأ الفراغ الذى بين هذين الطرفين من الكلام .

وكلمة « التصوف » من الكلمات التى امتد بها الزمن طويلا ، فهى تعيش فى المجتمع الإسلامى منذ اثنى عشر قرناً ، ولا زالت تحيا ، وتتحرك فى هذا المجتمع إلى اليوم .

والكلمات التى تصحب الناس فى حياتهم زمناً بعد زمن ، وقروناً بعد قرون ، قد تكون من مواليد البركة والخير ، أو من مواليد الشؤم والشر . . فكما أن الحق والباطل والخير والشر ، والهدى والضلال ، هى معان تعيش فى الحياة مع الناس ، على ما بينها من تضاد — كذلك الكلمات التى تدل على هذه المعانى المتضادة ، تعيش فى الحياة مع الناس ، وتجرى على ألسنتهم ، وتؤثر فى سلوكهم . إما حقاً وخيراً وهدى مع كلمات الحق والخير ، والهدى ، وإما شراً وبلاء ، مع كلمات الباطل والشر ، والضلال .

وقد ضرب الله تعالى مثلا للكلمة الطيبة ، وآثارها المباركة ، وثمراتها

الطيبة . . فقال تعالى : « ألم تر كيف ضرب الله مثلا ، كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون » (سورة إبراهيم : ٢٤ — ٢٥) .

كذلك ضرب الله سبحانه مثلا للكلمة الخبيثة ، وآثارها السيئة، وثمراتها النكدة ، فقال تعالى : « ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار » (سورة إبراهيم : ٢٦) .

وإذا كان هذا شأن الكلمة — طيبة كانت أو خبيثة — فى حياة الناس وتأثرهم بها ، فى صياغة أفكارهم ، وفى تشكيل أعمالهم — إذا كان هذا شأن الكلمة ، فإن الحكمة تقضى بأن يتحري الإنسان اختيار الكلمات التى يصحبها فى حياته ، ويتعامل بها مع الناس — أخذاً وإعطاء — كما يتحري ذلك فى اختيار أصدقائه ومعارفه ، وشركائه ، فإن الكلمات هن أمهات الأعمال ، فالكلمات الطيبة تغرى بالأعمال الناجحة الطيبة ، والكلمات الخبيثة توحى بالأعمال الفاسدة المنكرة .

والسؤال هنا هو : ماذا توحى كلمة « التصوف » من موحيات الأعمال؟ وما وزن هذه الأعمال فى ميزان الخير أو الشر ؟

وقبل الإجابة على هذا السؤال ، يحسن بنا أن نجيب على سؤال آخر هو : ما مدلول كلمة (التصوف) ؟ وما نسبتها إلى اللغة العربية ؟ وهل هى مشتقة من أصل عربى أو معربة من أصل أعجمى ؟

التصوف والصوفية :

اختلف الناس كثيراً فى تحديد المصدر الذي دخلت منه كلمة التصوف

أو الصوفية إلى اللغة العربية . . فيقول «الكلاباذى» فى كتابه : « التعرف لمذهب أهل التصوف » :

« قالت طائفة : إنما سميت الصوفية صوفية ، لصفاء أسرارها ، ونقاء آثارها . . !!

« وقال بشر بن الحارث . الصوفى ، هو – أى الصوفى – من صفا قلبه !!

(وقال قوم : إنما سموا صوفية ، لأنهم فى الصف الأول بين يدى الله تعالى بارتفاع هممهم إليه ، وإقبالهم عليه ، ووقوفهم بسرائرهم بين يديه !!

« وقال آخرون . إنما سموا صوفية للبسهم الصوف .

« وقال غيرهم : إنما سموا صوفية لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصفة الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم يعقب الكلاباذى ، على هذه الأقوال ، بقوله :

« أما من نسبهم – أى الصوفية – إلى الصفة والصوف فإنه يعبر عن ظاهر أحوالهم ، وذلك أنهم تركوا الدنيا ، فخرجوا عن الأوطان ، وهجروا الخلان ، وساحوا فى البلاد ، وأجاعوا الأكباد ، وأعروا الأجساد ، ولم يأخذوا من الدنيا إلا ما لا يجوز تركه ، من ستر عورة ، وسد جوعة !!

وقال السرى السقطى فى وصفهم : أكلهم أكل المرضى ، ونومهم نوم الغرقى ، وكلامهم كلام الخرقى . . وهذه كلها أحوال أهل الصفة ، الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانهم كانوا غرباء ، فقراء ، مهاجرين ، خرجوا من ديارهم وأموالهم »[1] .

---

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف ، للكلاباذى ص : ٢٨ – ٢٩ .

وهذه التعريفات للتصوف والمتصوفة ، هى من مقولات المتصوفة أنفسهم ، ومن نظارهم إلى أنفسهم بعين الرضا عما هم فيه . . وعين الرضا عن كل عيب كليلة ، كما يقولون .

ويقول ابن الجوزى ، فى كتابه : « تلبيس إبليس » عن منشأ الصوفية :

« الصوفية ، من جملة الزهاد ، وقد ذكرنا تلبيس إبليس على الزهاد ، إلا أن الصوفية انفردوا عن الزهاد بصفات وأحوال ، وتوسموا بسمات .

والتصوف طريقة كان ابتداؤها الزهد الكلى ، ثم ترخص المنتسبون إليها بالسماع والرقص ، فمال إليهم طلاب الآخرة من العوام ، لما يظهرونه من الزهد . . ومال إليهم طلاب الدنيا لما يرون عنده — أى التصوف — من الراحة واللعب ! ! ثم يقول ابن الجوزى .

« كانت النسبة فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان والإسلام ، فيقال : مسلم ومؤمن . . ثم حدث اسم . زاهد ، وعابد ، ثم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد ، فتخلوا عن الدنيا ، وانقطعوا إلى العبادة واتخذوا فى ذلك طريقة تفردوا بها ، وأخلاقاً تخلقوا بها ، ورأوا أن أول من انفرد بخدمة سبحانه وتعالى عند بيته الحرام ، رجل كان يقال له « صوفة » واسمه الغوث بن مر[1] ، فانتسبوا إليه لمشابهتهم إياه فى الانقطاع إلى الله سبحانه وتعالى ، فسموا بالصوفية .

ثم يقول ابن الجوزى :

« وقد ذهب قوم إلى أن التصوف ، منسوب إلى أهل الصفة . . فإن

---

(١) وقيل ان اسمه صوفة بن آد بن طابخة ، كما يقرر ذلك ابن تيمية .

أهل الصفة كانوا فقراء ، يقدمون على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس لهم أهل ولا مال ، فبنيت لهم صفة فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقيل لهم أهل الصفة .. » وفى الصحيح ، عن الحسن ، قال : بنيت صفة لضعفاء المسلمين ، فجعل المسلمون يوصلون إليها ما استطاعوا من خير ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتيهم ، فيقول : السلام عليكم يا أهل الصفة فيقولون : وعليك السلام يا رسول الله .. فيقول : كيف أصبحتم ؟ فيقولون : بخير يا رسول الله » .

ويعلق ابن الجوزى على هذا بقوله :

« وهؤلاء القوم ، إنما قعدوا فى المسجد ضرورة ، وإنما أكلوا من الصدقة ضرورة ، فلما فتح الله على المسلمين ، استغنوا عن تلك الحال ، وخرجوا منها

ثم يقول ابن الجوزى :

« ونسبة الصوفى إلى أهل الصفة غلط من جهة اللغة ، لأنه لو كان كذلك لقيل : صفى .

« وقد ذهب ذاهب إلى أنه — أى التصوف — من « الصوفانة » وهى بقلة رعناء قصيرة ، فنسبوا إليها لاجتزائهم بنبات الصحراء ! !

« وهذا أيضاً غلط ، لأنه لو نسبوا إليها لقيل : صوفانى .

« وقال آخرون : هو منسوب إلى صوفة القفا ، وهى الشعرات النابتة فى مؤخرة العنق ، كأن الصوفى عطف به إلى الحق ، وصرفه عن الخلق ! !

« وقال آخرون ، بل هو منسوب إلى الصوف » وهذا يحتمل(١) ! !

(١) أى من جهة اللغة ، فان النسبة الى الصوف ، صوفى .

ثم ينتهى ابن الجوزى إلى بيان الجهة التى ينسب إليها الصوفى ، فيقول : « والصحيح الأول »[١] .

أى أن ابن الجوزى يرى صحة نسب الصوفية إلى «صوفة» واسمه الغوث ابن مر كما ذكر من قبل .

ونقول إن نسبة الصوفية إلى « صوفة » هذا الذى عاش فى الجاهلية — إذا صح أن الصوفية نسبوا طريقتهم — أو طرقهم — إليه — هذه النسبة تلقى ظلالا من التهم حول صحة نسبتهم إلى الإسلام ، لأن الرجل الذى انتسبوا إليه لم يكن على دين صحيح ، وإن سلك مسلك الزهد والتعبد ، حيث لا يستبعد أن يكون هذا مذهباً شخصياً له ، أو أنه تلقاه من بعض النساك والرهبان ، أو وصل إليه من بعض أصحاب الديانات الهندية .

وأياً كان هذا الرجل من الزهد ، والعبادة ، فإنه على فرض أنه كان مؤمناً بالله — لم يكن مؤمناً بمحمد رسول الله — صلوات وسلامه عليه ، الأمر الذى لا يتحقق إيمان المسلم معه إلا بالإيمـان برسول الله صلى الله عليه وسلم ثم برسل الله جميعاً — بعد الإيمان بالله .

ولذن ، فإن على الصوفية أن يتبرءوا من نسبتهم إلى صوفة هذا ، إن أرادوا أن يكون بينهم وبين الإسلام نسب صحيح ! !

وأما نسبة الصوفية إلى أهل الصفة ، فإنها غير صحيحة من جهتين :

---

(٢) تلبيس ابليس ، لابن الجوزى ص ١٦١ — ١٦٢ . طبعة ١٣٩٦ هـ .

الجهة الأولى :

وهى اللغة ، حيث أن النسبة إلى الصفة لغة هى « صفى » (بضم الصاد ، وتشديد الفاء مع الكسر) .

الجهة الثانية :

هى الصفة الجامعة بين المنسوب والمنسوب إليه . . فأهل الصفة لم يكونوا أشخاصاً بأعيانهم ، ولم تكن لهم صفة تميزهم فى عباداتهم عن سائر المسلمين ، كما أنه لم تكن الصفة مكاناً جامعاً لهم ، إلا فى حال عارض ، فلما ذهب هذا الحال العارض خلا السكان منهم ، والصوفية على غير هذا ، بما لهم من صفات ، وشارات ، يتميزون بها .

يقول ابن تيمية - رضى الله عنه - فى كتابه : « الفرقان : بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » :

« وكانت الصفة شمالى مسجده - صلى الله عليه وسلم - ينزل إليها الغرباء الذين ليس لهم أهل وأصحاب ، ينزلون عندهم ، فإن المؤمنين كانوا يهاجرون إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى المدينة ، فمن أمكنه أن ينزل فى مكان نزل به ، ومن تعذر ذلك عليه نزل فى المسجد ، إلى أن يتيسر له مكان ينتقل إليه !

ثم يقول ابن تيمية :

« ولم يكن أهل الصفة ناساً بأعيانهم ، يلازمون الصفة ، بل كانوا يقلون تارة ، ويكثرون أخرى ، ويقيم الرجل بها زماناً ، ثم ينتقل منها . .

والذين ينزلون بها هم من جنس سائر المسلمين ، ليس لهم مزية فى علم أو دين بل فيهم من ارتد عن الإسلام ، وقتله النبى صلى الله عليه وسلم ، كالعرنيين[١] الذين اجتووا المدينة[٢] حتى استوخموها ، فأمر لهم النبى صلى الله عليه وسلم بلقاح — أى إبل ذات لبن — وأمرهم أن يشربوا من أبوالها وألبانها . فلما صحوا قتلوا الراعى ، واستاقوا الإبل ، فأرسل النبى صلى الله عليه وسلم فى طلبهم ، فأتى بهم ، فأمر بقطع أيديهم وأرجلهم وسمرت أعينهم ، وتركوا فى الحرة ، يستسقون ولا يسقون . وحديثهم وارد فى الصحيحين من حديث أنس ، وفيه أنهم أنزلوا الصفة : فكان ينزلها مثل هؤلاء ، ونزلها من خيار المسلمين : سعد بن أبى وقاص ، وهو أفضل من نزل بالصفة ، ونزلها أبو هريرة وغيره .

« وأما الأنصار ، فلم يكن أحد منهم من أهل الصفة ، وكذلك أكابر الصحابة كأبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وطلحة ، والزبير ، وعبدالرحمن ابن عوف ، وأبى عبيدة وغيرهم »[٣] .

●★●

---

(١) نسبة الى عرينة ، قبيلة عربية ، وقد وفد على النبى صلى الله عليه وسلم بعض منهم ، فأعلنوا اسلامهم ، واستضافهم المسلمون مدة : ثم أصابهم مرض فى المدينة ، فأخرجهم النبى الى البادية ، وسير معهم بعض الابل مع واستاقوا الابل يريدون قومهم ، فلحق بهم المسلمون ، وجاءوا بهم الى رسول واستاقوا الابل . يريدون قومهم ، فلحق بهم المسلمون ، وجاءوا بهم الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقام عليهم حد المحاربة الذى جاء فى قوله تعالى : « انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون فى الأرض فسادا ، أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، أو ينفوا من الأرض » (المائدة : ٣٣) .

(٢) اجتووا المدينة : أى كرهوا جوها .

(٣) الفرقان : بين اولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، لابن تيمية .

هذا ، وأليق الأنساب بالصوفية ، نسبتهم إلى الصوف ، من حيث صحة هذا النسب لغة ، ثم من حيث صحته معنى ، إذ كان الغالب على طلائعهم الأولى لبس الخشن من الثياب ، زهداً فى اللين ، والزهد فى طيبات الحياة أيضاً .

يقول ابن تيمية — رضى الله عنه .

« وكان السلف يسمون أهل الدين والعلم « القراء » ، فيدخل فيهم العلماء والنساك ، ثم حدث بعد ذلك اسم « الصوفية » ، والفقراء .

« واسم الصوفية ، هو نسبة إلى لباس الصوف . . هذا هو الصحيح .

« وقد قيل : إنه نسبة إلى صفوة الفقهاء ، وقيل إلى صفوة بن أد ابن طابخة ، قبيلة من العرب كانوا يعرفون بالنسك . وقيل نسبة إلى الصفة ، وقيل نسبة إلى الصفاء . وقيل نسبة إلى الصف المقدم بين يدى الله تعالى .

« وهذه كلها أقوال ضعيفة .

« وهذا — أى التصوف — عرف حادث[1] !! أى أنه لم يكن فى عهد رسول الله ، ولا فى عهد الصحابة والتابعين وبهذا يصدق عليه قول النبى صلى الله عليه وسلم : « كل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار »

ويقول ابن الجوزى : إن « التصوف » قد ظهر فى أواخر المائة الثانية من الهجرة .

(١) المصدر السابق ص : ١٣ .

وهذا يعني أن كلمات التصوف ، والصوفي ، والصوفية ، والمتصوفة ، كان ميلادها في النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة ، حيث لم ينطق بها فم قبل هذا الوقت ، فهي إذن كلمة دخيلة على الإسلام أريد بها من أعداء الإسلام أن يفتحوا بها ثغرة جديدة في سياج الإسلام إلى جانب الثغرات الكثيرة التي فتحت في هذا العصر ، وأن يضربوا الإسلام بسهم في مقاتله إلى السهام التي كان يرمى بها .

وسنرى في هذا البحث إن شاء الله كيف جلب التصوف على الإسلام والمسلمين من شر ، وساق إليهما من بلاء .

●★●

الفصل الثالث

إن الدين عند الله الإسلام

أمة واحدة :

الأمة الإسلامية ، أمة واحدة ، ليست أمماً ، ولا فرقاً ، ولا مذاهب . دستورها القرآن ، وأسوتها رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فكل من آمن بالله ورسوله وبما جاء من عند الله ، وما بينه رسول الله ، كان مسلماً وأخذ مكانه في الأمة المسلمة . . يدين بما يدين به المسلمون ، ويتعبد بما يتعبدون به ، ويصف قدميه مع أقدامهم ، في كل أمر ، كما يفعل المسلمون في الصلاة . . فمن خرج عن الصف قليلا أو كثيراً اعوج به الصف « والله تعالى لا ينظر إلى الصف الأعوج » كما يقول الرسول الكريم .

هكذا المسلمون ، جسد واحد ، وبنيان واحد ، يشد بعضه بعضاً . . فمن شذ عنهم شذ في النار ، كما يقول الرسول . . صلوات الله وسلامه عليه .

وهكذا كان المسلمون في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفي خلافة أبي بكر وعمر ، رضي الله عنهما . . ثم كانت الفتنة التي انتهت بقتل عثمان رضي الله عنه ، ثم الحرب بين علي - رضي الله عنه - وبين عائشة وطلحة والزبير ، ثم الحرب بينه وبين معاوية .

وكانت هذه الحروب عن خلافات اجتهادية ، لم يكفر فيها أحد الفريقين الفريق الآخر .

فلما كانت الحرب بين على ومعاوية — رضى الله عنهما — مرقت من جيش على مارقة ، عرفت بالخوارج ، فكفرت المسلمين جميعاً ، وعدت نفسها هى الجماعة المسلمة ، وهى الفرقة الناجية ، « كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون » (يونس : ١٢) .

ثم توالت الأحداث بعد هذا ، فظهرت فرق كثيرة ، من فرق المعتزلة وفرق الشيعة ، حتى الخوارج ، انقسموا على أنفسهم ، فكانوا فرقاً يكفر بعضها بعضاً .

وقد تحقق بهذا ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم فى حديثه الشريف : « افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وافترقت النصارى على اثنين وسبعين فرقة ، وستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها فى النار إلا واحـــدة . . قالوا : من هى يا رسول الله ؟ قال : ما أنا عليه اليوم وأصحابى[1] » .

وإذا كانت هذه الفرق التى انفصلت عن الأمة الإسلامية ، بسبب دوافع سياسية ومطامع ذاتية ، فعدت من الاثنتين والسبعين فرقة التى أخبر عنها الرسول صلوات الله وسلامه عليه أنها فى النار — فإنه يلحق بهذه الفرق ، ويرد معها موردها من النار ، كل من ابتدع فى الدين بدعة ، سواء أكانت تلك البدعة أفعالا ، فى الدين بالزيادة على ما أمر الله تعالى به ، أم تحيفا على الدين باسقاط حكم من أحكامه . . يقول رسول الله — صلى الله عليه وسلم : « إياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة ، وكل

---

(١) رواه اصحاب الصحاح .

ضلالة فى النار »[1] ويقول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ « إياكم ومحدثات الأمور »[2] . . ويقول : « من فعل أمراً ليس عليه أمرنا فهو رد[3] » . أى مردود عليه ، يحمل وزره يوم القيامة،ويقول سفيان الثورى ـ رضى الله عنه : « لا يقبل قول إلا بعمل ، ولا يستقيم قول وعمل إلا بنية ، ولا يستقيم قول ، وعمل ونية ، إلا بموافقة السنة[4] » ويقول أيضاً : « البدعة أحب إلى الشيطان من المعصية ، لأن المعصية يتاب منها ، والبدعة لا يتاب منها » وذلك لأن صاحب المعصية قد ينظر إلى نفسه فيرى أنه على غير الطريق المستقيم فتنازعه نفسه إلى الخروج من هذا الطريق . . أما صاحب البدعة فإنه يرى أنه على طريق مستقيم ، فلا يتحول عنه أبداً .

ويقول ابن الماجشون : سمعت مالكا يقول : « من ابتدع فى الإسلام بدعة يراها حسنة ، فقد زعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم خان الرسالة ، فإن الله تعالى يقول : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً » (المائدة : ٢) .

ويقول الإمام الشاطبى فى كتابه « الاعتصام » : » إن المبتدع معاند للشرع ، ومشاق له ، لأن الشارع قد عين لمطالب العبد طرقاً خاصة ، على وجوه خاصة ، وقصر الخلق عليها بالأمر والنهى ،والوعد والوعيد ، وأخبر أن الخير فيها ، وأن الشر فى تعديها . . لأن الله يعلم ونحن لا يعلم ، وأنه

---

(١) الفرقان : بين اولياء الرحمن واولياء الشيطان ، لابن تيمية .
(٢) رواه الترمذى ، وقال حديث حسن صحيح .
(٣) من حديث رواه أبو داود والترمذى .
(٤) من حديث ام المؤمنين عائشة فى الصحيحين .
(٥) تلبيس ابليس لابن الجوزى ص : ١٢

إنما أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين.. فالمبتدع معاند لهذا كله ، فانه يزعم أن ثمة طرقاً أخر.. كأن الشرع لا يعلم ، ونحن أيضاً لا نعلم ، بل ربما يفهم من استدراكه الطرق على الشارع ، أنه علم ما لا يعلمه الشارع .

« وهذا إن كان مقصوداً للمبتدع ، فهو كفر بالشريعة والشارع ، وإن كان غير مقصود ، فهو ضلال مبين » ا . ه

التصوف . . إلى أين وجهته ؟

تحسب كلمة « التصوف » كما أشرنا من قبل — فى المستحدث على لسان اللغة العربية، ومن الكلمات ذات الشهرة العالية ، والذيوع الواسع ، فقد ظفرت تلك الكلمة فى هذا المجال ، من الشهرة والذيوع ، بما لم يظفر به سوى أعداد قليلة من الكلمات التى كان لها فى مجال الدين أو السياسة شأن

وقد سجل التاريخ لكلمة « التصوف » تحركات واسعة فى مجال الفكر الإسلامى ، عصرا بعد عصر ، وقل أن يخلو كتاب إسلامى ، أو أدبى من دوران هذه الكلمة فى فصوله وأبوابه ، استهجانا أو استحسانا .

ذلك أن التصوف منذ اتخذ له مكانا فى المجتمع الإسلامى ، وهو مشتبك فى صراع عنيف ، وجدل متصل ، بين أوليائه وخصومه . . وليس مثل الخصومة فى الدين ، والجدل حول أحكامه ومبادئه ، فى إثارة النفوس ، وتهييج المشاعر ، وتحريك الألسنة والأقلام ، إن لم تكن السيوف والسهام ؟!

ويذكر تاريخ الإسلام تلك الخصومات العنيفة المستعرة التى وقعت بين أصحاب المذاهب والنحل من جماعات المسلمين .

وتاريخ الخوارج ، والدماء التى سفكوها ، والدماء التى أريقت منهم ، شهادة قاطعة لما نقول . . فقد بدأ الصراع بينهم وبين جماعة المسلمين ، خلافا فى الرأى ، ثم جدلا فيه ، ثم تعصبا له ، ثم حربا وقتالا من أجله .. وكذلك كان الشأن فيما وقع بين الشيعة والسنة . . بدأ خلافا فى الرأى ، ثم جدالا ، ثم تعصباً وقتالا . .

أما الصوفية فإنهم — وإن لم تكن لهم مشاركة ظاهرة فى الصراع الدموى — فقد كان لهم فى ميدان الصراع الفكرى جولات واسعة شملت جميع ميادين الجدل والمناقشة ، وجذبت إليها طوائف كثيرة من المسلمين ، وبخاصة العوام ، الذين ينقادون وراء كل داعية يأتى بالبدع والجديد من الآراء الخارجة على أصول الشريعة .

ومجال القول فى التصوف والصوفية ، مجال فسيح لكل ذى لسان أو قلم ، من المادحين والقادحين على السواء . . إذ كان عالم التصوف عالما رحب الجوانب مختلف المستويات ، فى مناهجه ، وفى سلوك أتباعه . .

أما مناهج التصوف . فإنها أكثر من أن تضبط لها حدود ، أو يعرف لها وجه ، لأن طبيعة التصوف تسمح لأربابه أن يضعوا من المناهج ، ويرسموا من الطرق ما تفيض به مشاعرهم ، وما ينبعث من أشواقهم ومواجدهم ، حيث يخلى العقل مكانه ، تاركا للذوق ، أو الهوى ، أن يملى ما يشاء .. ومن هنا كان لكل شيخ طريقته التى يسلكها إلى حيث تشير أشواقه ومواجده ، وإلى حيث يملى هواه ، وتبلغ أطماعه .

أما المتصوفة أنفسهم ، فهم أنماط وأشكال لا عدد لها ولا حصر .. ففيهم

العلماء والفقهاء ، وفيهم الشذج والأغفال ، وفيهم الفلاسفة والحكماء وفيهم المجاذيب والمهابيل ، وفيهم أولو الصدق والعزم ، وفيهم الخادعون المضللون . .

من أجل هذا كانت نظرة الناظرين إلى التصوف والمتصوفة ، تأخذ أكثر من أفق .. ومن هنا تباينت وجهات النظر ، واختلفت معايير الرأى ، واضطرب ميزان الحق ، في يد الأولياء والخصوم جميعا .. وحتى لكأن الشاعر عنى المتصوفة بقوله :

لقد عرض الحمام لنا بسجع إذا أصغى له ركب تلاحى

شجا قلب الخلى فقال غنى وبرح بالشجى ، فقال ناحا

الدين . . والتصوف :

ولا بد من نافلة القول أن نشير إلى تلك الصلة بين الدين — أى دين — وبين التصوف . . إذ كان المتجه الذى يتجهان إليه واحداً ، هو التعرف على الله ، والإيمان به ، والتقرب إليه بالعبادات والطاعات ، ومجاهدة النفس ، ومغالبة الهوى ..

فالدين عقيدة وعمل ، والتصوف عقيدة وعمل ، ولا خلاف بينهما فى مناط العقيدة ، وإن اختلفا فى كثير أو قليل من وجوه العمل ..

ولهذه الصلة التى بين الدين والتصوف ، لم يكد يخلو أهل دين من الأديان السماوية أو الوضعية ، من ظاهرة التصوف ، تلك الظاهرة التى تجذب إليها أعدادا كثيرة من المتصوفة ، ينزعون منزع الزهد ، والرهبنة ،

والانقطاع للعبادة ، فى صور وأشكال مختلفة ، وفى طرق وأحوال شتى .

ففى اليهودية متصوفة ، وفى النصرانية متصوفة ، وفى البوذية متصوفة ، وفى الزرادشتية متصوفة .. ثم كان فى الاسلام متصوفة !!

إن المؤمن ، وإن أدرك بعقله حقائق الايمان ، واستسلم لها ، فان قلبه يظل دائما متشوقا إلى مواطن الاطمئنان الذى يجد منه برد السكينة واليقين .. إنه مع إيمانه الراسخ ، فى حاجة إلى نفحة من نفحات السماء ، تقطع الطريق على نزعات الهوى ، ووساوس الشيطان !!

وقد أرانا الله سبحانه المثل فى خليله إبراهيم — عليه السلام — وهو من هو فى وثاقة إيمانه ، وصدق يقينه ، إذ يقول مخاطباً ربه : « رب أرنى كيف تحيي الموتى ؟ قال أو لم تؤمن ؟ قال بلى . . ولكن ليطمئن قلبى » . (سورة البقرة : ٢٦٠) .

فاطمئنان القلب شيء أكبر من الإيمان ، وأبلغ منه .

وهذا موسى عليه السلام يقف هذا الموقف ذاته الذى وقفه إبراهيم — عليه السلام — وهو يطلب الاطمئنان لقلبه ، إذ يقول مخاطباً ربه سبحانه : « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ، قال رب أرنى أنظر إليك ، قال : ان ترانى ، ولكن انظر إلى الجبل ، فان استقر مكانه فسوف ترانى ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا ، فلما أفاق ، قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين » . (سورة الأعراف : ١٤٣) .

وإذا كان أنبياء الله — صلوات الله وسلامه عليهم — قد وجدوا الطريق

مفتوحاً أمامهم إلى رضوان الله ، فسألوا وأعطوا بما اطمأنت به قلوبهم ، ورضيت عنه أنفسهم – فان غير الأنبياء – وهم أشد حاجة إلى اليقين وإلى طمأنينة القلب – ليس بين أيديهم سبيل إلى هذه السبيل المباشرة . . فكان لابد أن يلتمسوا لهم طريقاً آخر ، يبلغ بهم بعض هـذه الغاية ، أو يدنيهم منها .

وقد أخذ الناس من أجل هذا طرقاً كثيرة متعددة ، كلها قائم على المجاهدة والحرمان . . وهم فى هذا بين مقتصد وجائر ، فنجا القليل ، وهلك الكثير .

والذين نجوا هم الذين لم ينقطعوا للعبادة، ولم يجوروا على أنفسهم بالحرمان من طيبات الحياة ، فكسبوا حلالا ، وأكلوا حلالا ، وأتمروا بما أمر الله به ، واجتنبوا ما نهى الله عنه ، فاذا وقع أحدهم فى أمر لا يرضى الله تعالى عنه ضاقت نفسـه بما وقع منه ، وندم على ما فعل ، وأقبل إلى ربه تائباً مستغفراً .

أما الذين هلكوا ، فهم أولئك الذين أسرفوا على أنفسهم ، فاعتزلوا الحياة وأخذوها بالحرمان، وألهبوها بسياط لاترحم، وساقوها سوقاً عنيفاً ، على طريق المجاهدات .

وهنا يكمن الخطر ، وتطل نذر العطب ، حيث تضعف كثير من النفوس عن احتمال ما ألقى عليها من أعباء ثقال ، فتشرد ، وتحرن ، وتركب طريق الغواية والضلال فى غير مبالاة .

فالنفوس إذا لم تحسن سياستها ، ولم تروض باللين مرة ، وبالشدة مرة ، كانت لها ثورة مجنونة ، تأتى على كل شيء ! !

ومن هنا كانت الشريعة الإسلامية قائمة على اليسر ، والسماحة والرفق ، ومجانبة المشقة والحرج ، كما يقول تعالى : « هو اجتباكم ، وما جعل عليكم فى الدين من حرج » (سورة الحج : ٧٨) .. ويقول سبحانه : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها » (سورة البقرة : ٢٨٦) .. ويقول الرسول — صلوات الله وسلامه عليه : « إن هذا الدين متين ، فأوغل فيه برفق ، فانه لا يشاد الدين أحد إلا غلبه »[1] . ويقول : « عليكم هدياً قاصداً »[2] ويقول : « إن المنبت لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى »[3] ! .

ومن هنا أيضاً ، كانت الأمة الإسلامية أمة وسطا ، كما يقول الحق سبحانه : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيداً » (سورة البقرة : ١٤٣) .. والطريق الوسط هو القائم بين جانبي الإفراط والتفريط ، فلا مغالاة ولا تقصير .. لأن المغالاة قد تهوى بصاحبها من علٍ ، كما أن التقصير قد يمسك بصاحبه على مربط البهائم والأنعام .

روى أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كان بين أصحابه ، وبيده مخصرة فخط بها خطاً ، ثم خط خطوطاً عن يمين هذا الخط ، وخط خطوطاً عن شماله .. ثم أشار إلى هذا الخط ، وقال : هذه سبيل الله مستقيمة ، وأشار إلى الخطوط التى على يمين هذا الخط ، والتى عن شماله ، وقال : هذه خطوط

---

(١) رواه اصحاب السنن .

(٢) رواه البخارى .

(٣) رواه البخارى ومسلم .

على رأس كل منها شيطان يدعو إليه ، ثم تلا قوله تعالى : « وأن هذا صراطى مستقيما ، فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله »(١) (سورة الأنعام : ١٥٣) .

وفى صحيح مسلم ، عن بريدة ، قال : « خرجت ذات يوم أمشى ، فإذا برسول الله صلى الله عليه وسلم يمشى ، فأخذ بيدى فانطلقنا جميعاً ، فإذا برجل يصلى ، يطيل الركوع ، ويطيل السجود، فقال صلى الله عليه وسلم أترى هذا يرائى ؟ فقلت الله ورسوله ، أعلم ، ثم أرسل يده ، وطبق بين يديه ثلاث مرات ، يرفع يديه ويضربهما وهو يقول في كل مرة : عليكم هديا قاصداً ، فإن من يشاد الدين يغلبه » .

وقد كفر أهل الكتاب فى غلوهم فى دينهم ، فقال تعالى : « يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ، ولا تقولوا على الله إلا الحق » . (النساء : ١٧١) وقال سبحانه : « قل يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم غير الحق ، ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل ، وأضلوا كثيراً ، وضلوا عن سواء السبيل » (المائدة : ٧٧) .

أين مكان التصوف من هذا الخط الوسط ؟

والوجه الذى ظهر به التصوف فى الإسلام لم يكن على الخط الوسط ، على التحقيق ، وإنما كان على واحد من تلك الخطوط التى على يمينه ، بمعنى أنه خرج عن هـذا الخط الوسط إلى جانب المغالاة ، والافراط . .

---

(١) رواه السنة مع اختلاف فى اللفظ .

ولهذا اتخذ له أصحابه هذا الاسم الحادث فى الإسلام ! فلم يرض المتصوفة أن يكونوا من أهل الزهد والقصد فى متاع الحياة الدنيا ، وفى أيديهم الكثير منها ، بل نفض المخلصون منهم أيديهم من كل شىء منها . ولم يرضوا أن يكونوا مسلمين فى جماعة المسلمين ، بل جعلوا لأنفسهم مكاناً خاصاً بهم ، لا يأخذ أحد مكانه فيه إلا إذا كان متصوفاً.

وحتى لكأن الإسلام لا يتسع لتطلعاتهم إلى منازل القرب من الله ، إذا هم التزموا حدوده ، واستقاموا على أوامره ، واجتنبوا نواهيه .. وحتى لقد سولت لهم أنفسهم أن يزيدوا فى دين الله ما وسوس لهم الشيطان به ، حتى يبلغوا تلك المنزلة التى خيل إليهم أنهم بالغوها بهذه البدع التى ابتدعوها فى دين الله ! ولم يسألوا أنفسهم : أهم خير من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين وقفوا عند حدود الدين التى بينها الرسول لهم ؟ وهل ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من أمور الدين لم يبينها ؟ ثم ماذا يقولون فى قول الله تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » (المائدة : ٣) وماذا يقولون فى قوله صلى الله عليه وسلم : « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه ، فهو رد » أى مردود عليه ؟

يقول ابن خلدون ، فى مقدمته :

« إن طريقة هؤلاء القوم — يعنى المتصوفة — لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم ، طريقة الحق والهداية .. وأصلها العكوف على العبادة ، والانقطاع إلى الله ، والإعراض عن زخرف الحياة الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور ، من لذة ومال وجاه ،

والانفراد عن الخلق فى الخلوة للعبادة ، وكان ذلك عاماً فى الصحابة والسلف ، فلما نشأ الاقبال على الدنيا ، فى القرن الثانى وما بعده ، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة »[١] .

ولنا على هذا الذى يقرره ابن خلدون، تعقيب عليه ، ومراجعة له ، وذلك من وجوه :

فأولا : جعله التصوف امتداداً للزهد الذى كان السمة الغالبة فى عهد الصحابة والتابعين — رضوان الله عليهم — مع أن زهد الصحابة كان زهداً عن امتلاك لما زهدوا فيه ، على حين أن زهد المتصوفة كان زهداً عن عجز واضطرار .. إنه زهد العجز ، والتواكل ، والافلاس .

فالصحابة والتابعون — رضى الله عنهم — كانوا قد امتلأت أيديهم من المغانم التى عادت عليهم من فتوحات الشام ومصر ، والعراق ، فلم تفتنهم هذه المغانم ، ولم تخرجهم عن الحياة التى عاشوها فى صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمن زهد فى متع الحياة مع هذا المال الوفير ، فإنما يجاهد نفساً يغريها هذا المال ، ويأبى عليها أن ترد هذا المورد وهى تحترق ظمأ . وذلك هو الجهاد أبر الجهاد ! !

أما زهد المتصوفة ، فهو عن هروب من الحياة ، وعن فتور الهمة فى العمل والكسب ، وليس بالمستبعد أبداً إذا طال الزمن بهذا الحرمان أن يضيق المتصوف ذرعاً به ، فيتوسل بكثير من الوسائل لاصطياد المال ، وإغراق نفسه فى الشهوات ! وهذا ما انتهى إليه أكثرهم !

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص : ٣٩٨ — مطبعة الشعب بالقاهرة .

وثانياً : ليس صحيحاً ما يقوله ابن خلدون من أن زهد الصحابة والتابعين كان بالانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة ، وأن ذلك كان عاماً في الصحابة والسلف .

فالصحابة والتابعون رضوان الله عليهم ، كانوا يملئون ميادين الحياة كلها ، عملا ، وجهاداً ، في سبيل الله . . وبسيوفهم عز الاسلام ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً . . وبسيوفهم دانت للاسلام دولة الفرس والروم . . ثم مصروا الأمصار وضبطوا سياسة الشعوب التي استظلت بظل الاسلام ، حيث أقاموا ميزان العدل وأقاموا على الرعايا سياجاً حصيناً من الأمن على الدماء ، والأموال ، والأعراض ... وما كان ليتم شيء من هذا أبداً والصحابة والتابعون منفردون عن الخلق في الخلوات للعبادة ! !

إن الاسلام يدعو إلى العمل في ميادين الحياة طلباً للرزق ، بل ويجعل العامل في كسب رزقه كالمجاهد بسيفه في سبيل الله ، بل ومقدماً عليه .

يقول الله تعالى : « إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه ، وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار ، علم أن لن تحصوه فتاب عليكم ، فاقرءوا ما تيسر من القرآن ، علم أن سيكون منكم مرضى ، وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله ، وآخرون يقاتلون في سبيل الله ، فاقرءوا ما تيسر منه »[1] .

لقد قدم الاسلام في هذه الآية ، الذين يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله ، على المجاهدين في سبيل الله ، حيث لا يكون جهاد إلا بالعدد والعتاد ، ولا عدد ولا عتاد إلا بالسعي والعمل .

---

(١) سورة المزمل : ٢٠

بل إن الاسلام جعل العمل مقدمة بين يدى فريضة من أعظم فرائض الاسلام ، وهى الصلاة ، كما جعل العمل موصولا بها بعد أدائها . . وفى هذا يقول الله تعالى . « يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة ، فاسعوا إلى ذكر الله ، وذروا البيع ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، فإذا قضيت الصلاة ، فانتشروا فى الأرض ، وابتغوا من فضل الله ، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون »(١) .

فلو كان ترك العمل ، والانفراد عن الخلق فى الخلوة للعبادة ، ما صلح عليه شأن الأمة الاسلامية ، ويعلو به مكانها فى الحياة ، وتحمى به حوزة الدين ، لكانت دعوة الاسلام إلى ترك العمل واضحة صريحة ، ولكان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رهباناً فى الصوامع ، تاركين الدنيا لأهلها الذين يملكونها ، ويملكون من فيها من المسلمين ، وغير المسلمين ، ولكن الاسلام دين الحياتين ، الدنيا والآخرة جميعاً ، حيث يمسك المسلمون الدنيا بيد ، ويمسكون الآخرة بيد . فتكون لهم الدنيا والآخرة جميعاً . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ، ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً »(٢) .

وقوله سبحانه : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى ، وهو مؤمن ، فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون »(٣) .

ويقول الرسول الكريم — صلوات الله وسلامه عليه : « من آثر دنياه

---

(١) سورة الجمعة ٩ — ١٠ .

(٢) سورة النور ٥٥ .

(٣) سورة النحل ٩٧ .

أضر بآخرته ، ومن آثر آخرته أضر بدنياه ، فآثروا ما يبقى على ما يفنى »[١] ومعنى إيثار ما يبقى — وهو الآخرة — على ما يفنى – وهو الدنيا — هو أن ترجح كفة الآخرة عند المؤمن على كفة الدنيا ، كما يقول تعالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا »[٢] . وإذن فليس فى الاسلام ، ولا من الاسلام ، إطراح الدنيا وتطليقها تطليقاً بائناً ، وإنما الذى كان من الاسلام، هو التحذير من فتنة الدنيا ، والاسترسال وراء شهوات النفس منها ، حتى لا تستولى على وجود الإنسان كله ، فإن حب الحياة ، والرغبة الصارخة فى امتلاك أكبر قدر من متاعها وزينتها ، طبيعة غالبة فى النفس الإنسانية ، تحتاج من المؤمن إلى كبح جماحها حتى يسلس له قيادها ، وإقامتها على طريق معتدل متوازن . . وفى هذا يقول الحق سبحانه : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث . . ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب »[٣] .

●★●

---

(٣) رواه مسلم .
(٤) سورة القصص ٧٧
(٥) سورة ال عمران ١٤ .

الفصل الثالث

وسطية الإسلام

قلنا إن الإسلام دين يسر وسماحة ، أقام أتباعه على طريق وسط ، دون الإفراط وفوق التقصير . . ونقول : إن الإسلام ، كما شدد النكير على المقصرين من أتباعه ، وتوعدهم بالحساب العسير ، والعقاب الأليم ، فى كثير من آيات الكتاب الكريم مثل قوله تعالى : « فويل للمصلين ، الذين هم عن صلاتهم ساهون ، الذين هم يراءون ويمنعون الماعون »[1] وقوله سبحانه : « ويل للمطففين ، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين »[2] . . إلى كثير من آيات القرآن الكريم ، التى تحذر من التقصير فى المأمورات ، والجرأة على تقحم المنهيات ـ فإن الإسلام كذلك شدد النكير على المغالين فى الدين ، المتحاملين على أنفسهم ، المجاوزين بها حد الاعتدال . . وذلك فى مثل قوله تعالى : « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده ، والطيبات من الرزق ؟ قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة »[3] .. فطيبات الحياة الدنيا ، هى للمؤمنين ، وإن شاركهم فيها غيرهم ، ولكن هذه الطيبات هى خالصة للمؤمنين في الحياة الآخرة ، لا يشاركهم فيها غيرهم .

---

(١) سورة الماعون : ٤ ـ ٧ .

(٢) سورة المطففين : ١ ـ ٦ .

(٣) سورة الاعراف : ٣٢ .

وفى صحيح البخارى ، عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى رجلا قائماً فى الشمس ، فقال صلوات الله وسلامه عليه : « ما هذا ؟ » فقالوا : أبو إسرائيل . . نذر أن يقوم في الشمس ، ولا يستظل ولا يتكلم ، ويصوم ! ! فقال صلى الله عليه وسلم « مروه ، فليجلس ، وليتكلم ، وليتم صيامه » .

وثبت فى الصحيحين ، أن رجالا سألوا عن عبادة رسول الله صلى الله عليه وسلم فكأنهم تقالوها - أى رأوها قليلة - فقالوا : وأينا مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ؟ ثم قال أحدهم : أما أنا فأصوم ولا أفطر ، وقال آخر : أما أنا فأقوم الليل ولا أنام ، وقال ثالث : أما أنا فلا آكل اللحم ، وقال رابع : أما أنا فلا أتزوج النساء . فلما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمرهم ، خرج مغضباً ، وخطب فى الناس ، فقال : « ما بال رجال يقول أحدهم كذا ، وكذا ؟ ولكنى : أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام ، وآكل اللحم ، وأتزوج النساء . . فمن رغب عن سنتى ، فليس منى » .

ذلك هو الإسلام : دين ودنيا . . دين حياة وعمل . . حياة تستظل بظل الدين ، فلا تحترق بسعار المادة ، وعمل يزاوج بين الروح والجسد ، فلا يفنى الروح فى كثافة الجسد وضراوة الشهوة ، ولا يفسد الجسد بالجوع المتصل والحرمان الدائم ، والعزلة القاتلة .

وكيف يكون الإســلام على غير هذا ، وهو الذى يعد أتباعه لقيادة الإنسانية ، وخلافة الله تعالى فى أرضه ؟ فأى خلافة تكون بغير سعى دائب

فى الحياة، وعمل متصل لعمرانها، واستخراج خبئها، وكشف أسرارها، وتسخير القوى الكامنة فيها؟

وإذن، فإن كل دعوة تظهر فى المجتمع الإسلامى، يراد منها عزل المسلمين عن الحياة، ونفض أيديهم من مناشط العمل فيها، وانقطاعهم للعبادة فى الصوامع والخلوات ـ هى دعوة شيطانية، يراد بها الكيد للاسلام، وتحويل أهله إلى مجرد أشباح لا يقام لهم وزن فى الدنيا ولا فى الآخرة.

وإذا كان الزهد طريقاً سلكه كثير من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعين، فإن هذا الزهد قد اتسم بسمتين ظاهرتين.

السمة الأولى: أنه كان عملا فرديًا، نابعاً من شعور ذاتى، بمعنى أن الزاهد كان زهده نابعاً من ذات نفسه، كل على قدر طاقته، دون أن يكون زهده مرتبطاً بزهد غيره، ودون أن يكون زهد الزاهد ملتزماً بقواعد ثابتة، وطقوس محددة، وإنما يقوم الزهد أساساً على رياضة النفس، على العزوف عن كثير من شهواتها، وعدم الاسترسال مع رغباتها وأهوائها، فلا تستكثر إن وجدت، ولا تجزع إن لم تجد.

إنه زهد الاستعلاء بالنفس عن مرتع الأنعام إلى هذا المستوى الإنسانى الكريم، الذى يكون فيه الإنسان ممكناً من كل أسباب المتع واللذات، ثم يرد نفسه عن هذا المورد، احتساباً لله، كما يفعل الصائم فى مواجهة الجوع والظمأ، والطعام الشهى، والماء الروى، بين يديه، ولا يقربهما أبداً، حتى يجىء وقت الإفطار.

والسمة الثانية من زهد الصحابة والتابعين: أن هذا الزهد لم يكن أبداً

زهد العاجزين المفلسين ، بل كان زهد الواجدين للمالكين لما ملكته أيديهم ، ولما كان لهذا العمل من ثمرات .

أما زهد عامة المتصوفة ، فهو زهد المفلس العاجز ، الواقع تحت حكم الاضطرار ، الذى ليس لصاحبه فيه حيلة ولا حول ، فإن وجد صاحب هذا الزهد شيئاً يمكن أن يناله بأية حيلة ، هجم عليه كما يهجم الذئب على قاصية الغنم ، فى سعار مجنون .

وأمر كهذا لا يحقق معنى الزهد ، ولا يمكن الإمساك به عند تبدل الحال من فقر إلى غنى ، ومن ضيق إلى سعة ، حيث لا يأمن الإنسان فى تلك الحال ، أن يحطم كل حواجز الخلق والدين ، ليشبع جوعاً طال صبره عليه ، وليترضى من نفسه حرماناً امتد حبسها عليه .. تماماً كما يفعل السجين الذى عاش فى سجنه زماناً ، وهو يطل على الحياة خارج السجن من كوة أحلامه وخيالاته .. فاذا خرج من سجنه إلى واقع الحياة مع الناس ، كان كمن أصابه مس من الجنون ، يقلب بصره فى كل شىء ، ويمد يده إلى أى شىء ، من حرام وحلال ، وخبيث وطيب !!

فالزهد إذا لم يكن عن قدرة على المزهود فيه ولم يكن عن اختيار من الزاهد ، كان فتنة لصاحبه ، وإغراء له بالانحراف إلى جانب النهم الذى لا يجد معه الشبع أبداً .

روى أن « ابن المبارك » الورع الزاهد ، سمع مرة فى مجلس وعظه ، من يقول له : شيخنا الزاهد ، يقول كذا وكذا .. فتغير وجهه . وقال لهذا القائل منكراً عليه قوله : « شيخنا الزاهد » : أنا زاهد ؟ وفيم زهدت ولا شىء

عندى أزهد فيه ؟ الزاهد ، هو خليفتكم هذا ، عمر بن عبد العزيز . . الدنيا كلها بين يديه ، وها أنتم هؤلاء ترونه وقد اكتفى بالكفاف منها ! ! » .

ويقول الغزالى ، فى كتابه « إحياء علوم الدين » :

« والزهد عبارة عن انصراف الرغبة عن الشىء ، إلى ما هو خير منه ، وشرط المرغوب عنه ، أن يكون هو أيضاً مرغوباً فيه ، بوجه من الوجوه . فمن رغب عما ليس مطلوباً لنفسه لا يسمى زاهداً . . فتارك التراب لا يسمى زاهداً .

« ولما كان الزهد رغبة عن محبوب بالجملة ، لم يتصور إلا بالعدول إلى شىء هو أحب منه ، وإلا فترك المحبوب بغير الأحب محال . . فالزهد عبارة عن رغبة عن الدنيا ، عدولا عنها إلى الآخرة ، أو عن غير الله عدولا إلى الله ، وهو الدرجة العليا » .

نعم ، ذلك هو الزهد الذى لا يتحقق إلا عن مجاهدة للنفس ، وصراع بين الشهوات الحاضرة العاجلة ، ابتغاء لمطلب أسمى وأعلى وأكرم ، فيما بعد هذه الحياة الدنيا . . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » (آل عمران : ٩٢) . . وقوله سبحانه : « ويؤثرون على أنفسهم ، ولو كان بهم خصاصة » (الحشر : ٩) . . وقوله جل شأنه : « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءاً ولا شكوراً ، إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً ، فوقاهم الله شر ذلك اليوم ، ولقاهم نضرة وسروراً ، وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً » (الإنسان : ٥ ـ ١٢) .

ذلك هو الزهد ، الذى عرفه الإسلام فى الصدر الأول ، وتحلى به المسلمون فى عهد الصحابة والتابعين .

فإذا جاء « التصوف » بعد هذا ليأخذ مكان هذا الزهد ، وليخيل للناس منه أنه درجة أعلى من الزهد ، وأنه الطريق الذى تنال به الولاية ، والدرجات العالية عند الله ـ فتلك دعوى تحتاج إلى شاهد من واقع الحال يشهد لها ، ويدل عليها . . وهيهات ، هيهات !

لماذا التصوف والمتصوفة ؟

لابن خلدون عبارة ، نقلناها عنه فيما سبق وعلقنا عليها ، يقول فيها :

« طريقة هؤلاء القوم ـ أى المتصوفة ـ لم تزل عند سلف الأمة من الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم ـ طريقة الحق والهداية . . وكان ذلك عاماً فى الصحابة والسلف ، فلما نشأ الإقبال على الدنيا ، فى القرن الثانى للهجرة وما بعده ، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا ، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة » .

ويعنينا من عبارة ابن خلدون هنا ، الفقرة الأخيرة التى يقرر فيها ، أن ظهور التصوف والمتصوفة ، كان نتيجة لجنوح الناس إلى مخالطة الدنيا فى القرن الثانى للهجرة وما بعده ، فكان ذلك من شأنه أن يتخذ المقبلون على العبادة ، الزاهدون فى الدنيا ، اسماً يميزهم عن عامة الناس الذين ألهتهم الحياة الدنيا ، فسموا أنفسهم الصوفية أو المتصوفة ! !

وهذا يعنى أن حركة التصوف إنما كانت وليدة لرد فعل للحياة الخليعة الماجنة التى ظهرت فى العصر العباسى .

وذلك أنه لا جدال فى أن الزمن قد فعل فعله فى نفوس المسلمين . فلقد فتح المسلمون بلاداً زاخرة بالخير ، مليئة بمفاتن الحياة ، هى بلاد فارس والروم ، التى تضم مصر . والشام ، والعراق ، ثم تمتد إلى شمال أفريقية إلى المحيط ، ثم إلى الأندلس وسهول فرنسا .. وقد دخل أهل تلك البلاد فى الإسلام ، ومعهم موروثات متمكنة فى نفوسهم ، من معتقدات وعادات وتقاليد ، إن استطاع الإسلام أن يعفى على كثير منها ، فان كثيراً منها أيضاً قد ظل سابحاً فى خيال كثير منهم ، أو حياً متحركا فى نفوس كثير منهم أيضاً .

ويحتفظ تاريخ العصر العباسى بكثير من ألوان التهتك السافر ، والمجون الخليع ، حيث قامت للخلعاء والماجنين دولة لا ينفض لها سامر إلا قام سامر ، ولا يهلك من زعمائها زعيم إلا خلفه زعماء .. وكانت بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية مسرحاً ومراحاً لهؤلاء السفهاء والسفيهات من الناس ، ثم سرت العدوى إلى أمهات الأمصار فى الأقطار التى تضمها دولة الإسلام .. وكان من هذا أن استخف كثير من الناس بالدين ، وسخروا من المتدينين ، وجاهروا بالفسق والفجور ، وظهر فى الناس أصحاب المقالات الغارقة فى الزيغ والإلحاد ، وعرف فى الناس من يسمون بالزنادقة والملاحدة ، إلى جانب المجان والخلعاء .. وكان على رأس هذه المآثم جماعات ، يزينوها للناس ، ويغرونهم بها ، ويلبسونها لباس الفلسفة والمنطق

فوقع كثير من الغلمان ، والشبان ، والنساء ، فى شباك هذه الدعوات الفاجرة حيث غصت بهم حانات ، الخمر والرقص ، والغناء .

وكان على رأس هذه الفرق جماعات من الشعراء ، والمغنين والمغنيات .. وكان أبو نواس على رأس هذه المدرسة الشيطانية ، ومن شيعته وأتباعه ، أستاذه « والبة بن الحباب » ، « ومطيع بن إياس» « ويحيى بن زياد » ، « وبشار بن برد » ، « وحماد عجرد » ، وعريب المغنية ، وعنان الشاعرة ، وكثير كثير غيرهم .

وكرد فعل لهذه الحياة الغارقة فى اللهو والخلاعة والمجون ، فقد استقذرت بعض النفوس هذا الطعام العفن ، والتمست طريق الفرار من هذا الجو الموبوء ، فلبست ثوب الزهد من رأسها إلى إخمص قدميها ، وودت لو أنها سدت أنوفها حتى لا تتنفس فى هواء هذه البيئة الموبوءة .

ففى مواجهة شعراء الخلاعة والمجون ، قام أبو العتاهية ينشىء القصائد فى الزهد فى الدنيا ، والإزراء على طلابها ، المتعلقين بأذيالها .. كما قام كثير من غير الشعراء من الفقهاء بالتزام العزلة ، بعيداً عن الناس ، فذلك — فى تقديرهم — أدنى إلى السلامة ، فى حال كتلك الحال التى تداعت الفتن فيها على الناس من كل أفق .

فى خلال هذا الصراع ، الظاهر والخفى ، بين أصحاب الأهواء والبدع من جهة ، وبين أصحاب الجد وأهل المروءة والدين من جهة أخرى ، أخذ كل فريق ينعزل بأصحابه ومن هم على شاكلته ، ويجتمع إليهم ، ويرسم الطريق لحياته الجديدة معهم ؛

فأهل الأهواء والمجون ، يجتمعون يوماً هنا ، ويوماً هناك ، غارقين فى ألوان المجانة ، باحثين عن الجديد فى كل ما يثير الشهوات ويغذيها . . وأصحاب الجد ، والخلق الكريم ، يجتمعون فى ساحات المساجد، يتناصحون ويتذاكرون ، ويلتمسون مواطن النجاة من هذا البلاء المحيط بهم ..فكثرت العبادات ، وتنوعت الأذكار والأوراد ، واشتدت حاجة الناس إلى العلماء والفقهاء ، ينشدون عندهم الدواء ، ويتلقون عنهم الوصفات الواقية لهم من هذا البلاء ! !

وفى تاريخ العصر العباسى ، الأدبى ، والسياسى ، والاجتماعى ، مؤلفات كثيرة ، رصدت الحياة فى هذا العصر ، ورسمت صورا دقيقة لهذه المتناقضات التى كان يعيش فيها الناس فى هذا العصر . . فهناك أهل الخلاعة والعربدة والمجون ، فى الحانات والمراقص ، وفى الطرف المقابل أهل الزهد والتقوى ، تحتويهم المساجد والزوايا ، أو تضمهم الخلوات بعيدا عن الناس .

وهنا تسنح الفرصة للغلو فى الدين ، من أهل الصدق والاخلاص ، ومن أصحاب الأهواء ، والبدع ، على السواء . .

فأهل الصدق والاخلاص ، يرون أن الأخذ بالاعتدال فى تلك الحال التى فسد فيها الزمان ، وتمكن فيها سلطان البدع والضلالات ، لا جدوى منه ، فى مقاومة هذا الانحراف العنيف ، فلابد إذن من دواء مر شديد المرارة ، ومن تجربة قاسية ، يمر بها من أراد السلامة لنفسه ، والتمسك بدينه . .

وهذا لاشك أسلوب غير حكيم ، فإن الشر إذا استشرى ، كانت الحكمة هى السلاح الفعال فى مقاومته . .

ولهذا فانه عن طريق المغالاة فى الدين ، استطاع أصحاب الأهواء والبدع

أن يكيدوا لدين الله ، بإدخال كثير من المعتقدات الفاسدة على المسلمين ، في صور من الزهد الغبي ، وألوان من الأذكار في مصاحبة المزمار والغناء ، بحجة أن ذلك يصرف الناس عن مجالس الرقص ، والغناء في الحانات ! ! وصدق الذي يقول :

إذا استشفيت من داء بـــداء
فأقتـــل ما أعلك ما شفاكا

ويكفي أن يخرج من بين يدي هذا الموقف ما عرف بالتصوف ، وما ضم عليه من كثير من البدع التي لم يعرفها الإسلام والمسلمون ، في عصر النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا في عصر الصحابة والتابعين .

في هذا الجو العاصف المضطرب ، تسللت كثير من المذاهب الإلحادية والمانوية ، والصليبية ، إلى المسلمين ، ودخلت عليهم من كل أفق : من أفق السياسة وطلب السلطان ، ومن أفق العصبية للجنس والوطن ، ومن أفق التسلط على العامة والاستهواء للسذج ، بما يقدمه الشيوخ لهم من البدع والضلالات ، يخيلون إليهم من ذلك أنهم سائرون في طريق الولاية والكشف. ومن . ومن . مما يفتن العامة بالتدليس والشعوذة ، الأمر الذي هيأ للتصوف فرصة لاحتواء جماعات كثيرة من المسلمين تحت جناحه . . إذ كان — في ظاهره — دعوة إلى الفرار من هذا العالم المائج المضطرب ، والافلات من أيدي هذه الفتن التي تملأ السهل والوعر ، والعكوف على العبـــادة ، في المساجد ، والزوايا ، والخلوات . .

وإنهم لكى يسوغوا للناس طعم هذه الحياة البعيدة عن واقع الحيـاة ، والمنقطعة عن ملابسة الاتصال بالناس ، ومشاركة العاملين فى هذه الحياة ، فقد قام دعاة التصوف وشيوخه ، ومن ورائهم الكائدون للاسـلام ، والمتربصون الفرصة فيه ، يمدونهم بالبدع والمفتريات ، ويغذونهم بتلك الهلوسات والأوهام ، — قام هؤلاء وأولئك جميعاً يفتحون للناس أبوابا واسعة ، من عالم الغيب ، مما وراء الحس ، حيث يطلعون عليهم من هذا العالم المحجوب المشوق ، برؤى عجيبة من الأسرار التى فى أيدى قوى روحية خارقة ، حتى إنهم ليخيلون إلى الناس من تلك القوى أنها تعيش معهم فى واقعهم ، وإن كانوا لا يرونها ، وأنه ما على من يريد معايشة تلك القوى ، إلا أن يدخل فى عالم التصوف ، ويروض نفسه على ما يأمره به الشيوخ ، وإذا هو مطلع على الغيب ، مع الملائكة الحافين من حول العرش ! !

وفى داخل المساجد ، والزوايا ، والخلوات ، انتصبت للمتصوفة قباب ، تضم تحتها رفات أموات ، يقال عنها إنها رفات فلان من الصالحين ، أو ممن يدعى لهم الصلاح ، ممن كانت لهم حياة معروفة ، أو غير معروفة فى تاريخ الإسلام . . ثم ينسب إلى هؤلاء الموتى الراقدين — أو الذين يقال إنهم راقدون — تحت تلك القباب — ينسب لهم من الكرامات والخوارق ، التى يتصرفون بها فى الحياة ويملكون منها مالا يملكه إلا الله تعالى ، من النفع والضر ، ومن قضاء الحاجات وشفاء المرضى ، بل وإحياء الموتى ، ومنح العلم الكشفى اللدنى لمن يتمسح بأضرحتهم ، ويستشفع بهم ، وينال مرضاتهم بتقديم القرابين والنذور لسدنتهم !

وعلى هـذا الزاد الوهمى الخرافى ، عاش ، ويعيش كثير من ملايين

المسلمين الذى انتظموا فى سلك التصوف ، وما هم فى الواقع إلا غرقى أوهام وطلاب ماء من سراب « يحسبه الظمآن ماء ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، ووجد الله عنده ، فوفاه حسابه ، والله سريع الحساب .

ولأن التصوف — كما أشرنا من قبل — متصل بالدين بطرف من أطرافه ، وهو الزهد — وذلك فى أول نشأة التصوف — فقد كان للتصوف أثره وتأثيره فى جذب الناس إليه ، وتعلقهم به ، مما يمثل خطراً داهما على العقيدة الإسلامية ، حيث اتسع لشيوخ المتصوفة ، مجال التسلط على أتباعهم ومريديهم ، واستغلالهم باسم الدين استغلالا شيطانيا خبيثاً ، أحالهم فى يد شيوخهم أمواتاً فى يد الغاسل ، الذى يغسل الميت ، ويلفه فى الكفن ، ثم يلقى به فى قبره ! ؟

هكذا الأتباع والمريدون من المتصوفة فى يد شيوخهم ، دمى يعبث بها الشيوخ كما يعبث الأطفال باللعب — بل لأن التلاميذ ، أو المريدين ، لا يقبل الله منهم عدلا ولا صرفا ، إذا خالف أحدهم شيخه ، ولو أمره بقتل نفسه أو ولده ! !

فأى جناية يجنيها هؤلاء الشيوخ على تلاميذهم ومريديهم ، إذا هم سلبوهم أقوى مقومات الحياة للانسان ، وهما العقل والإرادة .. إنهم قتلة سفاحون ، يقتلون عمدا نفوساً حرم الله قتلها ، وأعد لقاتليها عذاب جهنم خالدين فيها أبدا .

يقول ابن الجوزى ، شارحاً هذا الانحراف الشديد الذى كان من المتصوفة :

« وهذا الاسم - أى التصوف - ظهر للقوم - أى للصوفية - قبل سنة مائتين للهجرة .. ولما أظهره أوائلهم ، تكلموا فيه ، وعبروا عن صفته بعبارات كثيرة ، وحاصلها : أن التصوف عندهم رياضة النفس ، ومجاهدة الطبع ، برده عن الأخلاق الرذيلة ، وحمله على الأخلاق الجميلة ، من الزهد ، والحلم ، والصبر ، والإخلاص والصدق .. إلى غير ذلك من الأخلاق الحسنة التى تكسب المدائح في الدنيا والثواب فى الأخرى .

ثم يقول ابن الجوزى :

« وعلى هذا كان أوائل القوم .. فلبس عليهم إبليس فى أشياء ، ثم لبس على من بعدهم من تابعيهم .. فكلما مضى قرن زاد طمعه فى القرن الثانى ، فزاد فى تلبيسه عليهم ، إلى أن تمكن من المتأخرين غاية التمكن » ! !

ثم يكشف ابن الجوزى عن مداخل إبليس التى دخل منها في تلبيسه على المتصوفة ، فيقول :

« وكان أصل تلبيسه عليهم أن صدهم عن العلم ، وأراهم أن المقصود هو العمل[1] . فلما أطفأ - إبليس مصباح العلم عندهم تخبطوا فى الظلمات . فمنهم من أراه - إبليس - أن المقصود من ذلك - أى من التصوف - ترك الدنيا

(١) وكيف يكون عمل بغير علم ، اذ العلم هو البصيرة الكاشفة عن العمل والميزان الذى يوزن به هذا العمل ،والا كان العمل أشبه بما تقوم به البهائم والله تعالى يقول لنبيه الكريم : « وقل رب زدنى علما » ويقول سبحانه :«يرفع الله الذين آمنوا منكم ، والذين أوتوا العلم درجات » ؟ ولكن هكذا يتسلط ابليس بضلالاته على من يعطى أذنه له ، ويسلم عقله وقلبه اليه .

في الجملة ، وشبهوا المال بالعقارب ! ! ونسوا أنه — أي المال — خلق للمصالح. وبالغوا في الحمل على النفوس، حتى إنه كان فيهم من لا يضطجع[1] . وهؤلاء ربما كانت مقاصدهم حسنة ، غير أنهم على غير الجادة — أي على غير الطريق المستقيم — ومنهم من كان لقلة علمه ، يعمل بما يقع له من الأحاديث الموضوعة وهو لا يدرى[2] . ومنهم من خرج به الجوع إلى الخيالات الفاسدة ، فادعى عشق الحق، والهيمان فيه ، وكأنهم — في حالهم تلك — تخايلوا شخصاً مستحسن الصورة ، فهاموا به .. وهؤلاء هم بين الكفر والبدعة » ! !

ثم يمضي ابن الجوزي ، قائلا :

« ثم تشعبت بأقوام منهم — أي من المتصوفة — الطرق ، ففسدت عقائدهم ، فمن هؤلاء من قال بالحلول ، ومنهم من قال بالاتحاد ، وما زال إبليس يخبطهم بفنون من البدع ، حتى جعلوا لأنفسهم سنناً ! !

« وجاء أبو عبد الرحمن السلمي — من شيوخهم — فصنف لهم كتاب السنن — أي سنن المتصوفة — وجمع لهم ما سماه حقائق التفسير ، فذكر فيه العجب في تفسيرهم القرآن بما يقع لهم ، من غير إسناد ذلك إلى أصل من أصول العلم ، وإنما هو من مدعيات علم الباطن ، أو الباطل ، الذي يقولون به » .

---

(١) وهذا لا شك مما دخل على المتصوفة من التصوف الهندي ، وبخاصة مذهب « اليوجـــا » .

(٢) وأن مثل هذا الجو الذي تنعقد في سمائه سحب الجهل ، والحماس الديني الأهوج الاعمى ، ليفتح الباب على مصراعيه للخبثـــاء المدجلين ، الذين يغذون هذا الجهل ، وذلك الحماس ، بالأحاديث التي يضعونها فتجد لها سـوقا رائجة لهؤلاء السذج المتهوسين !

« وصنف لهم أبو نصر السراج » كتابا سماه « لمع الصوفية » ذكر فيه من الاعتقاد القبيح ، والكلام المرذول — ما أملاه عليه الشيطان من وساوس — محشوا ذلك كله ، بالأحاديث الموضوعة !! .

« وصنف لهم عبد الكريم بن هوازن القشيرى ، كتاب « الرسالة » فذكر فيه العجائب والغرائب من الكلام ، في الفناء ، والبقاء ، والقبض ، والبسط ، والحال ، والوجد ، والجمع والتفرقة ، والصحو والسكر ، والذوق والشرب ، والمحو والإثبات ، والتجلى ، والمحاضرة ، والمكاشفة ، واللوائح ، والطوالع ، واللوامع ، والتكوين ، والشريعة ، والحقيقة ، وغير ذلك من التخليط ، الذى ليس بشىء ، وتفسيره أعجب منه[1] !!

وجاء « أبو نعيم الأصبهانى » فصنف لهم كتاب « الحلية » وذكر في حدود التصوف أشياء منكرة قبيحة ، ولم يستحى أن يذكر فى الصوفية ، أبا بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعليا ، وسادات الصحابة — رضى الله عنهم — فذكر عنهم فيه العجب . . وذكر منهم — أى من الصوفية — شريحا القاضى ، والحسن البصرى ، وسفيان الثورى ، وأحمد بن حنبل » .

ونقول لمن هؤلاء السادة الكرام براء من أن يوسموا بهذه السمة ، وأن تخلع عليهم هذه البدعة ، وإنما يتحكك بهم الصوفية ، ليروجوا لبدعهم ،

---

(١) هذه المسميات من منازل أو دركات ، يتقلب فيها الصوفية ، ويحل كل فريق منهم فى واد من أوديتها المهلكة ، وليس فى الاسلام ولا من الاسلام شىء من هذه البدع التى ابتدعوها ، ورتبوها هذا الترتيب الشيطانى .

(٨ — التصوف)

وليخادعوا الناس بأنهم على طريق الصحابة والتابعين . . وماهم إلا على سبيل غير سبيل المؤمنين ، والله تعالى يقول : « ومن يشاقق الرسول من بعد ماتبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا » (النساء : ١١٥) ..

ثم يقول ابن الجوزى :

« وجاء أبو حامد الغزالى ، فصنف لهم كتاب « الإحياء » على طريقة القوم — أى المتصوفة — وملأه بالأحاديث الباطلة ، وهو لا يعلم بطلانها ، وتكلم فى علم المكاشفة ، وخرج على قانون الفقه ، وقال — مثلا : إن المراد بالكوكب والشمس ، والقمر ، اللواتى رآهن إبراهيم ، صلوات الله عليه ، أنوار ، هى حجب الله عز وجل ، ولم يرد هذه المخلوقات المعروفات . . وهذا من جنس كلام الباطنية ، وقال — الغزالى فى كتابه « المفصح بالأحوال » : إن الصوفية فى يقظتهم ، يشاهدون الملائكة ، وأرواح الأنبياء ، ويسمعون منهم أصواتا ؛ ويقتبسون منهم فوائد ، ثم يترقى بهم الحال من مشاهدة الصور إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق » ! !

ويتعجب ابن الجوزى من هذه المقولات والمصنفات فيقول :

« وكان السبب فى تصنيف هؤلاء مثل هذه الأشياء ، قلة علمهم بالسنن والإسلام ، والآثار ، وإقبالهم على ما استحسنوه من طريقة القوم ، وإنما استحسنوها — أى الطريقة — لأنه قد ثبت فى النفوس مدح الزهد .. ثم إن ميل الناس إلى هؤلاء القوم شديد ، لما ذكرنا من أنها طريقة ظاهرها النظافة ،

والتمهيد ، وفى ضمنها الراحة والسماع . . والطباع تميل إلى ذلك . . وقد كان أوائل الصوفية ؛ ينفرون من السلاطين والأمراء ، فصاروا أصدقاء لهم ! !

ثم يقول ابن الجوزى :

« وجمهور هذه التصانيف التى وصنفت لهم ، لا تستند إلى أصل ، وإنما هى واقعات ، تلقفها بعضهم عن بعض ودونوها ؛ وقد سموها بالعلم الباطن »[1] .

ومن هذا الادعاء الباطل الذى يدعيه الصوفية من علم الباطن ، فتحت أبواب الفتن ، التى تطل منها رؤوس الشياطين ، نتاقى على أفواه الضالين والمبطلين كل المنكرات ، مدموغة بأنها من علم الباطن ، الذى هو بحر لا ساحل له ؛ وجاز لكل ضال ومبتدع أن يقول ماشاء من البدع والضلالات ، بحجة أنها من هذا البحر المحيط ؛ ومن كذب أوشك فليخض هذا البحر !! وهذا يذكرنا يقول من سئل عن عدد نجوم السماء ، فقال هى كذا وكذا من الآلاف ، والمئات والعشرات ، والآحاد ، فلما قيل له : وكيف عرفت هذا ؟ قال : من شك فليعد النجوم !

ولا ننسى أن نضيف هنا إلى تلك المؤلفات التى ذكرها ابن الجوزى لشيوخ المتصوفة ، وما حملت من بدع وضلالات — لاننسى أن نضيف كتاب : « الطبقات الكبرى » للشعرانى ، الذى بدأه بطبقة الصحابة والتابعين ، فالتزم فى هذا حد الاعتدال ؛ حتى إذا جاوز طبقة الصحابة والتابعين إلى من

---

(١) تلبيس ابليس ، لابن الجوزى ، ص ١٦٤ — ١٦٥ .

بعدهم إلى عصره ، جاء بالبدع والخرافات ، والأباطيل ، التى لا تدخل عقل أى عاقل ، فنسبها إلى البدوى ، وإبراهيم الدسوقى ، ومحيى الدين ابن عربى ، وسعدون المجنون ، وغيرهم وغيرهم .

ومن يطلع على هذا الكتاب وما ذكره المؤلف عن هؤلاء ومن إليهم ، يشهد من العجائب الخيالية الخرافية ، ما يقصر عنه حكايات « ألف ليلة وليلة » — فإن كان من أهل العلم والبصيرة — رمى به بعيداً عنه ، وإن كان من العامة وأشباه العامة ، تعبد به ، وغرق فى بحر الهلاك .

الباب الرابع

عالم التصوف : بين الظاهر والباطن



الفصل الأول

التصوف : بين الحق والباطل

قطعت الإنسانية دهرا طويلا من حياتها فى طفولة أشبه بتلك الحياة التى يعيشها الأطفال ، قبل أن يجاوزوها إلى الصبا والشباب والاكتمال . . حياة كلها رؤى وأحلام ، تتحكم فيها الانفعالات والعواطف التى لا يرى للعقل أثر فيها ...

وكلما تقدم الزمن بالإنسانية ، وتواردت عليها مشكلات الحياة ؛ ومواجهة الواقع ، والتماس التغلب على ما يصادفها من عقاب ، استفادت الإنسانية تجربة ، وأحس الإنسان أنه تملك قوة تبصره بالحياة ، وتكشف له الكثير من ألغازها ومخبآتها ، فاعتز بهذه القوة ، وعمل على التعويل عليها فى كل ما يعرض له من مشكلات ، والثقة بما توحى به إليه من أفكار ، ومدركات . . وهذه القوة ، هى القوة العاقلة المدركة فى الإنسان . .

وشيئا فشيئا زاد اعتزاز الإنسان بالعقل والمبالغة فى الثقة به ، حتى انتهى الأمر إلى أن حاول بعض الناس تصفية حسابهم مع جميع ملكاتهم وبخاصة القلب ، والاكتفاء بالعقل وحده ، وتسليمه القيادة والزعامة منفرداً لا يشاركه فى ذلك سواه .

وعن هذا الاتجاه ظهر الفلاسفة والحكماء الذين آمنوا بالعقل وحده ، واتبعوا سبيله فى كل ما يشير به .

وقد أجهد كثير من الفلاسفة عقولهم ، وأجروها فى مجالات لاحدود لها ، وكان لهذا أثره من ناحيتين :

الأولى :

أن الفلاسفة أنفسهم لم يحتمل كثير منهم النتائج التى وصل إليها عن طريق العقل ، إذ كان أكثر هذه النتائج واقفا بأصحابه عند مراحل الشك ، أو الإنكار . حيث انتهى بهم العقل فى جولاته إلى آفاق تتعذر فيها الرؤية له ؛ فلا يرى إلا ضباباً , متراكما ، ودخانا كثيفا .

وليس هذا مما ينقص من قدر العقل أو يهون من شأنه . فإن له مدى يجب ألا يتجاوزه ، شأنه فى هذا شأن الحواس ، من سمع وبصر وغيرهما ؛ لها مجال تعمل فيه ، فإذا هى جاوزته تعطلت معطياتها ؛ ولا يلحق بها ذلك نقصا أو عيبا .

وكذلك الشأن فى العقل . فما هو إلا حاسة من حواس الإنسان , وظيفتها الإدراك لما هو واقع فى مجال محدود ، إذا تجاوزه ، اختلطت عليه المدركات ، وغابت عنه ، فإذا غامر به صاحبه ، ورمى به إلى ماوراء حدوده ، انطفأ مصباحه ، وخبا نوره ، وألقى بصاحبه فى متاهات الحيرة والظنون .. وليس هذا عيبا فى العقل ، وإنما العيب من صاحبه الذى لم يحسن سياسته معه !!

وكان موقف الفلاسفة من هذه النتيجة : إما عناد وإصرار على السير

فى هذا الطريق الذى غامروا بعقولهم فيه ، فكان منهم الشك والارتياب فى كل مالا يراه العقل ، ثم إنكاره ، فأنكروا المغيبات كلها ، وجحدوا ما وراء الطبيعة . . وإما تسليم بقصور العقل وعجزه عن إدراك المغيبات ، والإحاطة بها ، وإخضاعها لمنطقه وأحكامه . . وقد انتهى إلى هذا كثير من الفلاسفة ، فأشركوا القلب مع العقل فى خوض معركة المعرفة ، وجعلوا للعقل كشف الطبيعة وتعليل ظواهرها ، وتفسير غوامضها ، ووكلوا إلى القلب استشفاف ماوراء الطبيعة، فى لمسات حالمة على أجنحة من أشواق الروح، ووهج الضمير !!

وثانياً : إن النتائج التى انتهى إليها الفلاسفة ، لم ترض كثيراً من طلاب الحقيقة ، ولم ترو ظمأ المتشوقين إليها ، فأنكروا العقل ، أو بعبارة أخرى : أنكروا هذا السلطان المطلق للعقل ، واستخفوا بالحقائق التى انتهى إليها ، وعدوها شيئاً تافها بالإضافة إلى الحقيقة الكبرى ، والتى وقف العقل إزاءها موقف المتحير ، أو الشاك ، أو المنكر . . فاتجهوا بوجودهم كله إلى القلب ، وطرحوا العقل وراءهم ظهرياً ، وبالغوا فى هذا أشد المبالغة ، فعاشوا فى الناس بوجدانات لا يحكمها عقل ، ولا يضبطها منطق ، وكان من هذا أن ظهر فى تصرفاتهم انحرافات كثيرة ، حملت الناس على القول السيء فيهم ، ورميهم بالسفه والعته ، والجذب ، والجنون ، إلى غير ذلك من الصفات التى نراها قد لصقت بعالم المتصوفة ، ونالت الكثير من رجالهم . .

وقد أدى هذا إلى قيام جبهتين متعارضتين : جبهة الفلاسفة ، وجبهة المتصوفة . . كل جبهة ترى الأخرى بأسوأ ما عندها ، ولا ترى جانباً من جوانب الخير فيها . . فالفلاسفة فى نظر المتصوفة ، مخدوعون مغرورون ،

يحسبون أنفسهم فى ضوء نهار مشرق ، وهم غارقون فى ظلام ليل دامس . .
والمتصوفة فى حساب الفلاسفة ، جماعة من السذج والمهابيل والحمقى ، تستبد بهم العواطف العمياء ! !

والحق أن كلا الفريقين متطارف فى موقفه ، أعمى بأى عينيه شاء ، لا يرى من الحقيقة إلا أحد جانبيها ، وقد خفى عليه الجانب الآخر منها . .

ففى الإنسان عقل وقلب ، لا يتحقق وجود الإنسان السوى إلا بهما معاً ، وأن الاكتفاء بأحدهما وعزل الآخر ، هو أشبه بتعطيل حاسة من حواس الإنسان ، كالسمع أو البصر مثلا .

يقول العالم الفيلسوف : « محمد إقبال » فى كتابه : تجديد التفكير الدينى فى الإسلام ، وهو يعرض ما للعقل والقلب معاً من مكان فى إقامة الدين القويم فى الإنسان .. يقول إقبال ، سائلا هذا السؤال :

« هل من الممكن أن نستخدم المنهج العقلى البحت للفلسفة ، فى مجال الدين » ؟ .

ويجيب على هذا بقوله :

« إن روح الفلسفة ، هى روح البحث الحر . . يضع كل مسألة موضع الشك . . وظيفة الفلسفة أن تتقصى فروض الفكر الإنسانى التى لم يحصها النقد ، إلى أغوارها ، وقد تنتهى من بحثها هذا إلى الإنكار ، أو الإقرار ، فى صراحة بعجز التفكير العقلى عن اكتناه الحقيقة القصوى » ! .

ثم يتحدث إقبال عن طبيعة الدين ، فيقول :

« أما جوهر الدين ، فهو الإيمان .. والإيمان كالطائر ، يعرف طريقه الخالى من المعالم ، غير مسترشد بالعقل » .

ثم يعقب على هذا بقوله :

« على أننا لا نستطيع أن ننكر أن الإيمان أكثر من مجرد شعور ، فهو فى حقيقته يشبه رضا النفس ، عن علم ومعرفة ..

« وفى الحق أن الدين — نظراً لوظيفته — أشد حاجة — حتى من المبادىء المقررة المسلمة — إلى أساس عقلى ' لمبادئه الأساسية .. وليس هناك من سبب يدعو إلى الظن بأن الفكر والبداهة متضادان بالضرورة ، فهما ينبعان من أصل واحد ، وكل منهما يكمل الآخر .. فأحدهما — وهو العقل — يدرك الحقيقة جزءاً جزءاً ، والآخر — وهو القلب — يدركها فى جملتها »[1] .

* * *

المتصوفة عور بأى العينين ؟

وعيب المتصوفة فى أنهم أقاموا وجودهم على القلب وحده ، غير معترفين بالعقل ومدركاته ، ولا بالمنطق وحدوده .. والقلب إذا لم يكن وراءه عقل

---

(١) تجديد التفكير الدينى فى الاسلام ، لمحمد اقبال ص ٦٧ ، ترجمة عباس محمود .

سليم متمكن من العلم والمعرفة ، اللذين يغتذى منهما القلب ، أصيب هذا القلب بالجفاف والجدب ، فلا يخرج منه إلا ما يشبه أنين المرضى ، وزفرات المحمومين ، وهراء المجانين ! !

والآثار التى بين أيدينا من حياة المتصوفة ، ومقولاتهم ، تكشف عن عالم غريب، فى لغته ، التى يترجم بها عن مواجده وأشواقه ، وإلهاماته ، حيث إنها أشبه بزقزقة الطير ، أو همهمة الأطفال ، لا يضبطها حكم ، ولا يحددها تأويل ، بل يمكن أن يكون من محاملها الشىء وضده .

وسنعرض لهذا فى فصل تال إن شاء الله .

●★●

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفصل الثاني

العناصر التى تشكل منها التصوف

سؤال نريد أن نسأله ونجيب عليه أولا ، قبل البحث عن العناصر التي تشكل منها التصوف الذى انتسب إلى الإسلام .. وهو : هل يقبل الإسلام نسبة التصوف إليه ؟ وإذا قبله ، فنى أى مكان يضعه منه ؟ وإذا لم يقبله ، فماذا يكون موقف المسلمين منه ؟

والجواب على هذا يقتضينا أن ننظر فى وجه التصوف فى مواجهة الإسلام وما حملت تعاليمه من أحكام فى العقيدة والشريعة ، لنرى ما بين التصوف وتعاليم الإسلام وأحكامه من وجوه الاتفاق أو الاختلاف ، وهنا يمكن الحكم على التصوف وعن مدى نسبته إلى الإسلام ، صحة أو بطلاناً .

وقبل النظر فى وجه التصوف ، ينبغى أن نتعرف أولا إلى الدوافع التى دفعت به إلى الظهور يوم ظهر فى المجتمع الإسلامى ، واتخذ أتباعه أماكنهم فى بيوت العبادة واتخاذهم فيها صوراً من الذكر الجماعى ، المصحوب بالإنشاد والتصفيق .. ثم نتعرف ثانياً إلى مقولات المتصوفة ، وما يجرى على ألسنتهم من ألغاز ومعميات ، لا مفهوم لها عند عامة المسلمين .

ونقول : إن ظهور التصوف فى صورة منظمة لها شيوخ ومريدون ، وتلاميذ ، ولها أزياء خاصة ، وأذكار وأوراد يأخذون أنفسهم بها — إن ظهور التصوف في هذه الصورة ، كان تحديا لتلك الحياة الخليعة الماجنة التي

غرق فيها الناس فى العصر العباسى ، وكان هذا التحدى زهداً أولا ، ثم زيادة فى الزهد ثانياً ، ثم عبثاً ومجوناً آخر الأمر ! !

والذى انتهى بالتصوف إلى هذه النهاية السيئة ، هو أنه لم يحتفظ بالمفهوم الحقيقى للزهد المعروف فى الإسلام ، والذى كان عن منزع ذاتى . يأخذ كل مسلم منه بالقدر الذى يحتمله ، دون أن ينضوى تحت غيره من الزهاد . أو أن يتقيد بمراسم خاصة يلتزمها ، وحسبه فى هذا أن يتخفف ما استطاع من مطالب الحياة ، ومتاعها ، وأن يكون على مراقبة دائمة لجلال الله سبحانه وقيوميته عليه .

كما أن الذى انتهى بالتصوف إلى هذا الطريق المعوج ، أنه استمد كثيراً من أصوله ، من معارف غير إسلامية ، من هندية وفارسية ، ورومية ، ويهودية ، ونصرانية ، وغيرها .. فكان منه هذه الانحرافات الحادة التى باعدت كثيراً بينه وبين تعاليم الإسلام .

يقول الفيلسوف الألمانى « جولد تسيهر » فى كتابه : « العقيدة والشريعة فى الإسلام » وهو يتحدث عن ظاهرة التصوف التى ظهرت فى محيط الإسلام . . . يقول :

« وقد تجلت هذه المبالغة عند المتصوفة فى ناحيتين : الأولى تعبدية ، والأخرى أخلاقية :

« فالناحية التعبدية ، تتمثل فى « الذكر » الذى احتفظ بمكانته طوال الأدوار التى مر بها التصوف الإسلامى فإذا كان الإسلام يقصر

الصلاة على أوقات محدودة فى النهار والليل ، فان المبادىء النسكية للتصوف تخالف هذا التحديد ، بما تحتمه من تلاوة القرآن وذكر الله ، فيما بين أوقات الصلاة ، وربما ترفع من شأن الأذكار إلى أن تصل بها إلى مرتبة الفرائض الحتمية ، التى قد تتضاءل دونها الفرائض ، وتصبح الفرائض بالنسبة لها واجباً ثانوياً !! سيان أداؤه أو إغفاله !!

« وهذه الأذكار الصوفية لا تزال حتى اليوم الهيكل الأساسى فى بناء الصوفية !

« وأما الناحية الخلقية ، فتبرز واضحة جلية فى المبالغة فى التوكل ، وهى العاطفة التى دفعت بهم إلى أقصى درجات الطمأنينة النفسية ، القائمة على أنهم لا يبالون بشىء ، ويهملون الدنيا إهمالا مطلقاً ، بل يتركون أنفسهم تركاً لعناية الله وقضائه ، ويجعلونها بين يديه لا إرادة لها ولا حركة ، كالميت بين يدى الغاسل .. فهم يبعدن عن محيط تفكيرهم ، أن يعنى المرء بمستقبله ، وأن يرعى شئونه وحاجاته »[1] .

ونسأل : إذا كان هذا دعوة من دعوات الإسلام إلى أتباعه . وكان ذلك سلوكا فى صورة جماعية لهم ، فهل يبقى مع ذلك إسلام ؟

وهل يكون هناك مسلمون لهم مكان فى المجتمع الإنسانى ؟

ويجيب على هذا الفيلسوف « جولد تسيهر » فيقول :

---

(١) الشريعة والعقيدة فى الاسلام ، للمستشرق تسيهر ص ١٤٩ والرسالة القشيرية : ص ٢٤٣ .

« ومن البديهى ، أن تصوراً كهذا للحياة ، لم يتفق مع الآراء الرائجة فى محيط الفكر الإسلامى ، فى القرن الأول الهجرى ، وهى آراء سبق أن سارت ، وهى سائرة فى طريق نموها وتطورها ، متجهة نحو الحقائق الواقعة .

ثم يقول :

« ومع ذلك ، فلنا أن نتساءل : كيف استطاعت نزعة النسك والتصوف هذه أن تصادف قبولا واستحساناً ، فى مجتمع دينى شارف أوج عظمته ، وبلغ أقصى ما يصبو إليه من توسع وفتح ؟ ؟ » .

ونقول : إن هذه نكسة من النكسات التى تصاب بها الأمم فى أدوار حياتها .. صعود ، وهبوط ، ثم صعود وهبوط .. وهكذا .

ثم يقول « جولد تسيهر » — مشيراً إلى تلك العناصر الغريبة التى تشكل منها التصوف المنسوب إلى الإسلام :

« وقد حاكى هؤلاء الزهاد المسلمون وعبادهم — أى المتصوفة — نساك النصارى ورهبانهم ، فارتدوا الصوف الخشن ، ويمكن أن ترجع هذه العادة وهى ارتداء الصوف ، إلى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان ، على أقل تقدير حيث بدأ فيه استعمال كلمة صوفى ! ! » .

ثم يقول « جولد تسيهر » كاشفاً عن عنصر آخر من العناصر التى تشكل منها هذا التصوف — فيقول :

« وقد نفذت تعاليم الافلاطونية الحديثة ، إلى نطاق الحياة العقلية فى الإسلام ، ويعد هذا الحادث ذا أهمية حاسمة ، من جهة التصوف الإسلامى .

« فالزاهد المتصوف ، الذى نبذ الدنيا ، واحتقرها ، واطرحها ، وسما بروحه إلى الخالق الأعلى وملاذه الأوحد ، يجد مايثبت يقينه بمنهج حياته الذى نهجه ، وما يقوى نزعة الروحية الإلهية . يجدهذا فى مذهب الفيض الإلهى عند أفلوطين ، ونظرته فى وحدة الوجود .

« يقول المتصوف جلال الدين الرومى ، فى بعض مواجده :

« لم تكن روحانا فى الأصل ، سوى روح واحدة .. كذا كان ظهورى وظهورك » ! !

« فمن الخطل ، الكلام عنى وعنك . . فقد بطل فيما بيننا كلمة : أنا وأنت !! » .

« لست أنا ولست أنت . . فإنى أنا وأنت فى وقت واحد ، كما أنك أنت وأنا معا »[1] !!

وهناك عنصر ثالث تغذى منه التصوف الإسلامى — وهو التصوف الهندى الذى يقوم على إفناء الجسد وإرهاقه بضروب الرياضات المرهقة ، نتيجة لاعتقاداتهم الفاسدة فى الحياة ، وأنها بلاء لاخلاص للانسان منه إلا بهذا الموت البطىء ! ! .

يقول جولد تسيهر :

« وعند إلقاء نظرة عامة على التصوف الإسلامى ، لا يمكن أن نتجاهل هذه المؤثرات بصفتها عوامل ذات أثر نافذ ، وأقصد بها المؤثرات الهندية التى بدت بصورة محسوسة منذ العصر الذى انتشر فيه الإسلام شرقا حتى

---

(١) العقيدة والشريعة فى الاسلام . لجولد تسيهر ص ١٥٧ .

حدود الصين ، فتخطت أفقه تدريجاً ، تلك الآراء الهندية ، التى ظهرت بعض آثارها فى الأدب ، والبعض الآخر فى الفكر الدينى الإسلامى . .

« وكما أن المرء فى البوذية ، لكى يبلغ أرقى درجات الفناء ، كان عليه أن يتقدم مرحلة مرحلة ، متبعا طريقا يتكون من ثمانية مراحل . . كذلك للصوفية طريقها ، ومراتب الترقى فى هذا الطريق . . والسائرون فيه يسمون أهل « السلوك » !! .

« ومن اليسير أن نلاحظ أثر العقائد الهندية فى تطور حياة الزهد والاعتكاف فى الصوامع . كما نلاحظ أن حياة التسول التى يحياها االصوفيون ، والتى تدفعهم إلى ترك الجماعة ، ماهى إلا صورة تحاكى حياة لرهبان والسائلين الهنود (السادو) »

ونقول : إن نزعة التسول التى يتخذها كثير من المتصوفة شعاراً لهم ، إنما تقوم على تصور خاطىء مريض، يحملهم على إذلال النفس، هذا الإذلال المهين بتعرضها لسؤال الناس ، وتلقى ضروب المهانة ، والازدراء من المانحين أو المانعين على السواء . . وهذا فى نظرهم طريق إلى تأديب النفس – بل وقتلها – وهى أعدى عدو للانسان ، فى نظرهم .

وهذا لاشك ضرب من ضروب الانتحار . . فالإنسان بغير نفس ، هو شبح لا وجود له فى عالم البشر ! !

وإنما تظهر عظمة الإنسان ، وتعلو مكانته فى الناس بوجود هذه النفس ، وما يتحرك فيها من شهوات ، ثم يكون لها من عقل الإنسان ودينه ، مايردها عن شهواتها ، ويغلبها على أهوائها ، وذلك هو الجهاد الذى تنال به مرضاة الله ، ورضوانه . . ومن هنا كان الغنى الشاكر خيراً عند الله

من الفقير الصابر ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « اليد العليا خير من اليد السفلى »[1] . . لأن اليد العليا هى اليد العاملة ، التى تعمر الحياة بعملها ، وتجنى من ثمرات كدها وسعيها مايسد حاجتها ، ويتسع لحاجات المحتاجين الذين لايعملون . يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، صافح يد أحد أصحابه ، فوجدها خشنة من العمل ، فقال : « هذه يد يحبها الله ورسوله » ! !

ثم يتحدث « جولد تسيهر » عن أثر الديانة الهندية فى التصوف الإسلامى فيقول :

« ومما يدل أيضاً على أثر العقائد الهندية فى التصوف ، أن المريد عندما يتم قبوله فى الجماعة الصوفية ، يمنح خرقة ، تعتبر رمزا للفقر ، واعتزال الحياة الدنيا ، وقد وجدت الصوفية ، تبعا لأسلوبها ومنهاجها ، أصلاللخرقة فى السيرة النبوية ، وربطت موضوعها بالنبى نفسه ﷺ »[2] .

وهذا الذى يتخذه الصوفيون من إلباس الخرقة للمريد ، وجعل ذلك شارة له بالدخول فى عالم التصوف ، واستنادهم فى ذلك إلى أثر منسوب للنبى صلى الله عليه وسلم — إن هو إلا بدعة شيطانية ، ألقى بها الشيطان فى روعهم وزين لهم الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبأنه — صلوات الله وسلامه — ألبسها على بن أبى طالب ، رضى الله تعالى عنه ، وأن عليا ألبسها الحسن البصرى . . ثم صارت شعاراً يتلقاه الخلف عن السلف ! !

---

(١) رواه البخارى ومسلم .
(٢) العقيدة والشريعة فى الاسلام ، لجولد تسيهر ص ١٥٩

وهكذا يزين الشيطان لأوليائه من البدع مايضلهم بها عن سبيل الله ، والعياذ بالله من الشيطان ، وأولياء الشيطان .

يقول ابن تيمية ــ رضى الله عنه ــ فى دحض فرية الخرقة ا[illegible] زوراً وبهتانا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وقد ذهب الهوس والخبال بالصوفية إلى القول المفترى ، بأن النبي صلى الله عليه وسلم ، عندما أعلن للفقراء أنهم سيدخلون الجنة قبل الأغنياء ، سقطوا منجذبين ، ومزقوا ثيابهم ، وعندئذ نزل جبريل عليه السلام ، من السماء ، وقال لمحمد : إن الله يطالب بحظه من هذه المزق ، فحمل واحدة منها ، وعلقها على عرشه تعالى ، وهذا هو نموذج لباس الصوفية الخرقة »(1) .

ونقول : إن هذا الخبر المكذوب ، ينادى على نفسه بالكذب المفضوح من وجوه :

فأولا : كيف يمزق الصحابة ملابسهم ، ويشقوا جيوبهم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ليس منا من لطم الخدود ، وشق الجيوب ، ودعا بدعاء الجاهلية » ؟ أفيكون ذلك من الصحابة وبحضر من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا ينهاهم عنه ، بل ولا يزجرهم عليه ؟ ثم كيف يأخذ قطعة منها و يلبسها عليا رضى الله عنه ؟ .

وثانياً : كيف يطالب الله تعالى بحظه من هذه الخرق الممزقة ، وهو سبحانه له ملك السموات والأرض ؟ ثم كيف يعلقها بالعرش ، ليزينها به ؟

---

(١) رسائل ابن تيمية الجزء الثانى ص ٤٨٢

إن هذا لايكون إلا ممن يتصورون الله فى صورة صنم ، أو شيخ من مشايخ الطرق الصوفية . . سبحانك ربى ، هذا بهتان عظيم !

ويقول ابن الربيع الشيبانى ، فى كتابه : « تمييز الخبيث ، مما يدور على ألسنة الناس من الحديث » ـ يقول : « لبس الخرقة ، وكون الحسن البصرى ألبسها من على (رضى الله عنه) قال ابن دحية ، وابن الصلاح : إنه باطل . . ولم يرد فى خبر صحيح ، ولا حسن ، ولا ضعيف ، أن النبى صلى الله عليه وسلم ، ألبس الخرقة على الصورة المتعارفة بين الصوفية ، لأحد من أصحابه ، ولا أمر بفعل ذلك ، وكل ما يروى من ذلك فباطل . . ثم قال : إن من الكذب المفترى قول من قال : إن عليا ألبس الحسن البصرى الخرقة ، فإن أئمة الحديث لم يثبتوا للحسن البصرى ؛ سماعا ، من على فضلا عن أن يلبسه الخرقة »[1] !!

ويمضى « جولد تسيهر » فى بيان ما دخل على التصوف المنسوب للاسلام ، من التصوف الهندى . فيقول :

« ويوجد بين أساليب التعبد الصوفى الإسلامى ؛ طريقة ذاعت ذيوعا عظيما حتى تجاوزت البيئات الصوفية ؛ إلى غيرها ؛ وهى « المسبحة » « والتسبيح » وهما يرجعان دون ريب إلى أصل هندى » .

ونقول إن المسبحة والتسبيح بها ؛ إن لم تكن ترجع إلى أصل هندى ؛ فإنها على التحقيق لن ترجع إلى أصل إسلامى ؛ فما عرفها رسول الله صلى

---

(١) انظر هامش ص ١٦٣ من كتاب العقيدة والشريعة لجولد تسيهر ، ترجمة ابو ريدة .

الله عليه وسلم ولا عرفها أصحابه ولا التابعون رضوان الله عليهم ، وإنما هى بدعة ابتدعها المبتدعون فى دين الله .

ثم يقول جولد تسيهر :

« ويوجد خلاف جوهرى فى علاقات المذاهب الصوفية بالإسلام الشرعى ، فأئمة التصوف الأولون ، الذين وضعوا أساس نظرية الصوفية وآراءها ، آثروا « عمل القلب » وفضلوه على الأداء الرسمى لفرائض الإسلام وأحكامه أو كما يقولون « عمل الجوارح » .

« وهناك طوائف من الصوفية ، ترفض هذه الشعائر رفضاً باتاً ، لأنها ترى مثل هذه القيود الشرعية ، لاترتبط العارفين . . بل لا نعدم أن نجد بين هؤلاء فريقاً لا يستبيح لنفسه إغفال هذه الشرائع ، فحسب ، بل ولكنه يرى أن من حق الصوفى أن يتخطى كافة النواميس الخلقية ، وأن يخرج على العرف الاجتماعى ، وعلى ما يسمى بالخير والشر ، وقدوتهم فى هذا « اليوجا » للهنود ، وبعض الغنوصيين ، من المسيحيين ! !

« ومهما تظاهر الصوفيون بتقدير الإسلام السنى تقديراً عالياً ، فان لغالبيتهم نزعة مشتركة ، إلى محو الحدود التى تفصل بين العقائد والأديان .

« وقد ارتفعت بعض الأصوات — من المتصوفة — منادية بأن العلم بوحدانية الله ، يشتمل على عنصر من عناصر الاتحاد والإخاء بين البشر ، بينما الشرائع والأديان تسعى لإثارة التفرقة والانقسام ، فيما بينهم ! ! »[1] .

---

(١) الشريعة والعقيدة فى الاسلام ، للمستشرق جولد تسيهر ، ص ١٧٠ ترجمة أبو ريدة .

ونقول : إن هذا التصور الشيطانى عند الصوفية ، وعدم وقوفهم على حدود الشريعة ، باعتبار أنهم وصلوا إلى عالم الحق ، وبهذا رفع عنهم التكاليف ، فلايقفون عند حرام أو حلال ، ولا يتقيدون بفرائض وأحكام. نقول : إن هذا التصور الشيطانى عند الصوفيه ، إنما أرادوا به أن يفتنوا العامه ، وأن يروهم أن طريق التصوف يرفع الحرج عن شيوخه وأرباب طرقه ، فلايعترض أحد إذا رأى شيخه يزنى ، أو يشرب الخمر ؛ أو يبيت مع الغلمان ، وعندهم أن الشيخ فوق أن يحاسب على منكر ، لأنه فى حال اتحاد مع الله ! ! وهل يحاسب الله نفسه ؟ « كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون » .

وعن هذا المنزع الشيطانى . . يقول أبو سعيد أبو الخير الصوفى ، لصديقه ابن سينا ، معبراً عن عقيدته ، وعقيده أمثاله ـ يقول :

« ما دامت المساجد والمدارس لم تهدم هدما تاماً ، فسوف لا ينجز الدراويش عملهم ! ! ومادام الكفر والإيمان لم يتشابها ، ولم يتماثلا تماما ؛ فما من رجل يكون صحيح الإسلام ؛ والإيمان » ! ! [1] .

وهذا الضلال المبين الذى غرق فيه كثير من الصوفية ؛ هو نتيجة لازمة لمذهب وحدة الوجود ؛ ذلك المذهب المغرق فى الكفر والإلحاد ، حيث الوجود كله فى هذا المذهب ؛ وجود واحد ؛ فلا خالق ؛

(١) المصدر السابق ص : ١٧٢

ولا مخلوق ؛ ولا حق ؛ ولا باطل ، ولا إيمان ولا كفر ، ولا إنسان ولا حيوان ، ولا ذكر ولا أنثى ، وأن الجميع شيء واحد لا اختلاف بين شيء وشيء .

ويقتضينا المقام هنا أن نفرد هذا المذهب — مذهب وحدة الوجود — ببحث خاص ، إذ كان أكثر ما في التصوف من خروج سافر عن العقل والدين ، إنما يتكىء على هذا المذهب الفارق في أوحال الضلال .



الفصل الثالث

التصوف ووحدة الوجود

القول بوحدة الوجود ، مذهب قديم ، دان به فلاسفة الهنود ، كما دان به كثير من فلاسفة اليونان ، حيث يحلق العقل بخياله الجامح إلى ما فوق الواقع ، فيرى عوالم الموجودات كلها على مستوى واحد ، فلا سهول ولا نجود ، ولا قمم ولا سفوح ، تماماً كما ينظر الإنسان من طائرة تطير على علو يبلغ آلاف الأميال ، فلا يرى الأرض إلا بساطاً ذا مستوى واحد ، ولون واحد ، حيث تختفى الجبال ، والدور والأشجار ، وكل ما يجري أو يدب على الأرض . . فإذا هبطت الطائرة إلى مستوى قريب من الأرض ، وجد الناظر أن الأمر على خلاف ما كان يراه من قبل ، وأن لكل شيء ذاتيته الخاصة به ، فيقال : هذا جبل ، وهذا نهر ، وهذا إنسان ، وتلك سيارة ، وهذه نخلة ! ! وهكذا تتعدد الأسماء بتعدد الموجودات ، وتقوم الحدود الفاصلة بين كل موجود ، وغيره من الموجودات ، وبهذا يأخذ كل شيء وضعه الذى يناسبه ، فلا يختلط شيء بشيء .

فالقول بوحدة الوجود ، ضلالة من ضلالات الوهم ، وخدعة من خدع الغياب العقلى ، فى سكرة من سكراته ، لمس من جنونه ، أو غيبوبة من صرع .

وقد دخل القول بوحدة الوجود على الصوفية من باب واسع ، إذ وجدوا

انجذاباً إليه فى مواجدهم ، حين تطير عقولهم بالرقص على أصوات المغنين ، ومزامير الزمرين ، وحيث تنهدقواهم الجسدية، وتأخذهم غيبوبة أشبه بغيبوبة الحمى . وصرع الجنون ، حتى ليقول قائلهم فى حال تواجده : « انا الله » أو « ما فى الجبة إلا الله » كما عرف ذلك عن « الحلاج » !!

ابن عربى ووحدة الوجود :

وابن عربى — المعروف عند الصوفية بالشيخ الأكبر — هو الذى أقام لهذا المذهب الضال منطقاً سقيما من الجدل السفسطائى ، وجعل منه مركباً سبح به الصوفية في بحر لجى لانجاة لراكبه .

وقد تولى ابن تيمية — رضى الله عنه — تفنيد هذا المذهب الضال ، وألقم ابن عربى حجراً فيما يقوله عن وحدة الوجود — يقول ابن تيمية — نضر الله وجهه — حاكيا مقولة من مقولات ابن عربى، وضلالة من ضلالاته ، ثم يرمى بذلك فى وجهه :

« يقول ابن عربى : إنه يأخذ العلم من المعدن الذى أخذ منه الملك الذى يوحى به إلى الرسول، . . والمعدن عنـــده هو العقل ، والملك هو الخيال ، والخيال تابع للعقل ! !

« وهو — أى ابن عربى — بزعمه ، يأخذ عن الذى هو أصل الخيال ، والرسول يأخذ عن الخيال !! لهذا صارهذا الغوى عند نفسه فوق النبى!! »[1]

---

(١) الفرقان بيين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، لابن تيمية ص : ٤٣ — الطبعة الاولى مطبعة التقدم العلمية بمصر سنة ١٣٢٥هـ .

وهذا التطاول المجنون من ابن عربي ، دعاه إلى القول بوحدة الوجود واتحاده مع الله سبحانه وتعالى ، كما دعاه إلى أن يرى الله في كل شيء . . في حجر ، أو شجر ، أو حيوان . . فإذا عبد صنما ، أو كلباً ، أو دابة ، فهو في دينه الفاسد ، إنما يعبد الله !!

يقول ابن عربي إمام الصوفية ، وشيخها الأكبر :

لقد صار قلبي قابلا كل صورة ··· فمرعى لغـزلان ، ودير لرهبان
وبيت لأوثان ، وكعبة طائف ··· وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ··· ركائبه ، فالحب ديني وإيماني .

ويقول ابن تيمية — رضي الله عنه — رأيه صريحاً في ابن عربي ، ومن انخدعوا بضلالاته — يقول :

« فابن عربي ، وأمثاله ، وإن ادعوا أنهم من الصوفية ، فهم من صوفية الملاحدة الفلاسفة ، ليسوا من صوفية أهل العلم ، فضلا عن أن يكونوا من مشايخ أهل الكتاب والسنة .

ثم يقول ابن تيمية ، ذاكراً ما جرى على لسان ابن عربي في رده على الجنيد الذي ينكر القول بوحدة الوجود :

« يرد ابن عربي على الجنيد في قوله عن التوحيد ، وأنه إفراد الحدوث عن القدم ، فبين أن التوحيد هو أن تميز بين القديم والمحدث ، وبين الخالق والمخلوق فيقول ابن عربي في مخاطبته الخيالية الشيطانية : يا جنيد : هل يميز بين المحدث والقديم إلا من يكون غيرهما ؟ » .

ويقول ابن تيمية ـ نضر الله وجهه ـ صفع ابن عربى ، وفضح سفسطته الشيطانية وقوله : «هل يميز بين المحدث والقديم إلا من كان غيرهما ؟ ولما لم تكن القسمة إلا محدثاً أو قديماً ، ولا ثالث غيرهما ، فإذن لا يمكن التمييز بينهما ، وإذا سقط التمييز فلا بد من قديم أو محدث ، ولا يجتمعان ، ولما كانت صفة القدم هى اللائقة بالله ، فقد بطلت المحدثات ، وصار الوجود كله قديماً» ! ! هذا ماحاج به ابن عربى ، الجنيد يريد إلزامه القول بقدم العالم ، ووحدة الوجود .

يقول ابن تيمية رداً على هذا الإفك الشيطانى من ابن عربى :

« فيقال لهذا الملحد : ليس من شرط المميز بين الشيئين بالعلم والقول أن يكون ثالثاً غيرهما ، فإن كل واحد من الناس يميز بين نفسه وغيره ، وليس هو ثالثاً ، فالعبد يعرف أنه عبد ، ويميز بين نفسه وبين خالقه ، والخالق جل وعلا ، يميز بين ذاته وبين مخلوقاته ، ويعلم أنه ربهم ، وأنهم عباده» .

ثم يقول ابن تيمية : « وأما هؤلاء الملاحدة ـ من الصوفية ـ فيزعمون ما كان يزعمه التلمسانى ، وهو أحذقهم فى اتحادهم ـ أى فى القول بوحدة الوجود ـ فإنه لما قرىء عليه الفصوص « لابن عربى » ، فقيل له : القرآن يخالف فصوصكم ، فقال ـ أخزاه الله ـ : القرآن كله شرك ، وإنما التوحيد من كلامنا ! ! فقيل له : إذا كان الوجود واحداً ، فلماذا كانت الزوجة حلالا ، والأخت حراماً ؟ فقال : الكل عندنا حلال ولكن هؤلاء المحجبون ـ يقصد أهل السنة ـ قالوا حرام فقلنا حرام عليكم ! !

ثم يقول ابن تيمية ـ رضى الله عنه ـ دحضاً لهذا الكفر الصراح .

« وهذا مع كفره العظيم متناقض . . فإن الوجود إذا كان واحداً ، فمن المحجوب ومن الحاجب ؟

« ولهذا لما قال بعض شيوخهم لمريده : من قال لك إن فى الكون سوى الله فقد كذب !! قال له مريده : فمن هو الذى كذب ؟ »[1] .

وهكذا أفحمت بداهة العقل ، هذا الشيخ المتربع على عرش التصوف ، المحمول على يد الشيطان !! « فبهت الذى كفر ، والله لا يهدى القوم الظالمين » .

ابن الفارض . . ووحدة الوجود :[2]

ولابن الفارض الملقب عند الصوفية بسلطان العاشقين — لابن الفارض هذا ، ديوان شعر ، هو قرآن الصوفية ، وذكرهم الذى يستثيرون به مواجدهم لينقلهم من عالم الواقع إلى عالم الخيال ، حيث يخيل لهم أنهم يتحدون مع الله بحلولهم فيه ، أو حلوله فيهم ، فإذا هو هم ، أو هم هو !!

والديوان كله كفر وإلحاد . .

وناقل الكفر ليس بكافر ، إذا كانت غايته من نقله هو كشف وجهه المنكر ، والتحذير منه . يقول ابن الفارض فى ديوانه هذا ، متحدثاً عن الذات الإلهية :

---

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، لابن تيمية ص ٤٥ .

(٢) هو عمر بن أبى الحسين ، على بن المرشد المعروف بابن الفارض ، المصرى المولد ، توفى سنة ٦٣٢ هـ .

جلت فى تجليها الوجود لناظرى ... ففى كل مرئى أراها برؤية
فنى الصحو بعد المحو لم أك غيرها ... وذاتى بذاتى إذ تجلت تجلت
فإن دعيت كنت المجيب ، وإن أكن ... منادى ، أجابت من دعانى ولبت
فقد رفعت تاء المخاطب بيننا ... وفى رفعها عن فرقة الفرق رفعتى
ولولاى لم يكن وجود ، ولم يكن ... شهود ، ولم تعهد عهود بذمة
فلاحى إلا من حيـاتى حياته ... وطوع مرادى كل نفس مريدة
وكل الجهات الست نحوى توجهت ... بما تم من نسك وحج وعمرة
لها صـلواتى بالمقام أقيمها ... وأشهد فيها أنها لى صلت
كلانا مصل واحد ، ساجد إلى ... حقيقته بالجمع فى كل سجدة

وكفى ، كفى ، من هذا الكفر الغليظ ، وصدق الله العظيم : « إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ، ويحسبون أنهم مهتدون » (الأعراف : ٢٩) .

الجيلى . . ووحدة الوجود : [١]

وقد جاء بعد ابن الفارض من شعراء المتصوفة كثيرون ، غرقوا هلكى في بحار وحدة الوجود . ومن هؤلاء عبد الكريم الجيلى ، وقد أمعن الجيلى فى الضلال ، حتى لقد أقام نفسه ربا على هذا الوجود ، خلقاً وأمراً . . يقول فى إحدى كفرياته التى حملها ديوانه :

(١) هو عبـد الكريم بن ابراهيم الجيلانى أو الجيلى ـ توفى سـنة ٨٣٠ هـ .

لى الملك فى الدارين لم أر فيهما ... سواى ، فأرجو فضله ، وأخشاه !!

وقد حزت أنواع الكمال ، وإننى ... جمال جلال الكل ، ما أنا إلا هو !!

لى الملك ، والملكوت نسجى وصنعتى ... لى الغيب ، والجبروت منى منشاه !!

وإنى رب للأنام ، وسيد ... جميع الورى اسم ، وذاتى مسماه !!

فإنى ذات الكل ، والكل مشهدى ... أنا المتجلى فى حقيقته ، لا هو[1] !!

وهكذا يمضى الجيلى فى هذا الجنون ، فيخيل له جنونه أنه الوجود كله ، وأن كل موجود قد حل فيه ، فلا رب ولا مربوب إلا هو !! بل هو المتجلى فى هذا الوجود ، وليس الوجود إلا من تجلياته !

فأى عالم يكون هذا العالم الذى يتصوره الصوفية ، وهم يذهبون هذا المذهب الضال ، من الحلول ووحدة الوجود ؟ وأى حدود بين الأشياء والمعانى؟ إن الكل عندهم واحد ، فلا خير ولا شر ، ولا حق ولا باطل ، ولا حلال ولا حرام ، ولا طيب ولا خبيث ، ولا رب ولا مربوب !!

وهذا التصور المريض المجنون يلغى الشرائع السماوية ، بل والوضعية ، ولا يجعل مكاناً للرسل والمصلحين ، إذ لا مكان للاصلاح ، حيث الكل صالح ، والكل على سواء !

ومن عجب أن يتعبد المتصوفة بهذه المقولات ، ويجتمعون على الذكر بها ويرونها سلم العروج إلى منازل الكمال ، ومرقاة الشهود !! وهذا إبطال لزعمهم بوحدة الوجود التى يدينون بها . . إذ ليس فى عالم الوحدة هذه

---

(١) الانسان الكامل ، للجيلى — ص ٢٠ وما بعدها . طبعة ١٢٩٣ هـ .

انتقال من حال إلى حال ، حيث الكل سواء ، فلا علو ولا سفل ، ولا فرق بين إنسان وإنسان ، ولا بين إنسان وحيوان أو جماد !! ولكن للشيطان خدعه وضلالاته ، وهؤلاء القائلون بوحدة الوجود أو بالحلول ، هم شياطين فى صورة آدميين لبس الشيطان صورهم ، ويدارى شخصه فيهم حتى لا يخشاه الناس ولا يرتابون فيما يلقيه من ضلالات على ألسنة شياطين الإنس هؤلاء . . والله تعالى يقول : « وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا ، شياطين الإنس والجن ، يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا » (سورة الأنعام : ١١٢) . .

والغزالى أيضا !!

لقد بدأ الغزالى حياته فيلسوفا ، فلما لم يجد فى الفلسفة شيئاً من برد الطمأنينة فى قلبه ، هجر الفلسفة إلى التصوف ، فانتقل بهذا من طرف إلى طرف ، دون أن يقف عند الوسط الذى بينهما ، وهو ما قامت عليه شريعة الله !!

ومن هنا كان المزلق الذى انزلق إليه الغزالى ، سواء فى فلسفته أو فى تصوفه ، ولو أن الغزالى لم تأخذه العجلة واللهفة ، وهو يهرب من الفلسفة ، ناشداً طمأنينة قلبه ، حتى ألقى بنفسه فى بحار التصوف — لو أنه لم يفعل ذلك ، وانتقل من الفلسفة إلى الشريعة ، ولزم حدودها ، ولم يتخطاها إلى التصوف ، لوجد فى حقائق الشريعة حاجته من طمأنينة القلب ، طمأنينة تسكن العقل والقلب معاً . .

إن الغزالى ، حين دخل عالم التصوف ، لم يصحب عقله معه ، بل ألقى به على عتبة الدار عند الفلاسفة !! .

استمع إلى الغزالى الصوفى ، وهو يتحدث عن التوحيد ومراتبه — يقول الغزالى : « للتوحيد ، أربع مراتب :

الأولى : الإقرار باللسان ، بأن لا إله إلا الله . .

والثانية : أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه ، كما صدق به عموم المسلمين ، وهو اعتقاد العوام ! !

والثالثة : أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الله ، وهو مقام المقربين ! وذلك بأن يرى الأشياء كثيرة ، ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار !

والرابعة : ألا يرى فى الوجود ، إلا واحداً ، وهى مشاهدة الصديقين ، وتسمية الصوفية : الفناء فى التوحيد !!

« لأنه من حيث لا يرى إلا واحداً ، فلا يرى نفسه أيضاً ، وإذ لم ير إلا نفسه لكونه مستغرقا بالتوحد ، كان فانياً عن نفسه فى توحده ، بمعنى أنه فنى عن نفسه والخلق !! »[٣]

ولم يسأل الغزالى نفسه : أى توحيد هذا الذى يغيب فيه الإنسان عن نفسه ، فلا يعلم من هو ؟ ولا أين هو ؟ ولا يدرى فرق ما بين حق وباطل أو بين حلال وحرام ؟ أهذا إنسان يكلف بعبادات وطاعات، وقربات ؟ .

ونستمع إلى الغزالى ، وهو يحاول أن يجيب على السؤال ، بالكشف عن التوحيد فى مرتبته الرابعة ، أو العليا — يقول الغزالى : « والرابع :

---

(١) من كتاب « احيـــاء علوم الدين » للغزالى ـ جـــزء ٤ ص ٢١١ وما بعدها طبعة دار الكتب العربية .

موحد، بمعنى أنه لم يحضره فى شهوده غير الواحد .. فلا يرى الكل من حيث إنه كثير، بل من حيث إنه واحد، وهذه هى الغاية القصوى فى التوحيد !!»
ثم يمضى الغزالى، شارحا هذا التوحيد .

« فان قلت : كيف يتصور أنه لا يرى إلا واحدا، وهو يشاهد السماء والأرض، وسائر الأجسام المحسوسة، وهى كثيرة ؟ فكيف يكون الكثير واحدا ؟ — فاعلم أن هذه غاية علوم المكاشفات !! وأسرار هذا العلم لا يجوز أن تنص فى كتاب، فقد قال العارفون : إفشاء سر الربوبية كفر »(١)

ونسأل الغزالى : ما هى علوم المكاشفات التى يطلع منها المطلع على أن الكثير واحد ؟ وأين ذلك فى كتاب الله أو سنة رسوله ؟ وهل عرف أحد من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا العلم ؟ وهل عرف أن أحداً منهم فنى عن نفسه، وتوحدت عنده الموجودات، فلم ير النبى أنه نبى؟ ولم يميز بين أبنائه، وأهله وإخوانه ؟ وإذا لم يكن ذلك قد وقع لأحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإن ما يقع لغيرهم لا يعدو أن يكون ضلالا، وإفكا مبيناً !!

ونسأل الغزالى أيضا : لمن جاءت آيات القرآن الكريم داعية إلى إلى النظر فى ملكوت السموات والأرض .. إلى الشمس فى مسارها، وإلى الكواكب والنجوم فى مداراتها، وإلى الأرض، وما تخرج من زرع، وثمر .. وإلى الإنسان من أى شىء خلق ؟ . وإلى الطير مسخرات فى جو السماء ما يمسكهن إلا الله ؟ . وإلى الليل والنهار وتعاقبهما ..؟ وإلى

(٢) المصدر السابق ص ٢١٥ .

كل ما تقع عليه العين فى هذا الوجود ، لمن جاءت هذه الآيات الكريمة فى كتاب الله ؟ أليست جاءت دعوة للنظر فى هذه الموجودات ، والاستدلال منها على وحدانية الله ، وماله سبحانه من قدرة قادرة ، وعلم عليم ، وحكمة حكيمة ؟ .

فاذا اختلطت الموجودات ، فصارت كتلة متضخمة ، لا يعرف منها رأس من ذنب — فكيف يستدل بتلك المخلوقات على الخالق ؟ وكيف تتوثق صلة المخلوق بخالقه ، إذا لم يملأ ناظريه من هذا الوجود ، ويشهد فيه بديع صنع الصانع ، وتدبير المدبر ، وحكمة الخالق ؟

إنها شطحة صوفية ، ألقت بالغزالى فى متاهات هذا العالم المجهول الذى أطلق عليه علوم المكاشفات . . هذا ، وقد فطن بعض المستشرقين إلى صوفية الغزالى هذه ومدى تأثيرها فى عالم المتصوفة ..

فهذا المستشرق « نيكلسون » يقول : « إن الغزالى أوسع المجال لبعض صوفية وحدة الوجود ، أمثال ابن عربى وغير هؤلاء من طوائف الصوفية ، الذين كانوا إخواناً فى ذلك الدين الحر ، بكل ما لكلمة الدين الحر من معنى » (١)

ويقول المستشرق « جولد تسيهر » : « وابن عربى » الذى أشرنا من قبل إلى تأثره بالغزالى ، يخضع تفسيره — للقرآن — الذى نحا فيه منحى

(١) من كتاب « فى التصوف الاسلامى » لنيكلسون ، ترجمة الدكتور ابو العلا عفيفى (ص ١٠٤)

التأويل ، اخضاعا تاما ، لوجهة النظر ، التى أخذ بها الغزالى » [١] .

ويقول : « كارل بيكر » : « ولقدسادت روح الغنوص — أى الرمزية — قرون صدر الإسلام كلها ، ثم سادت التصوف ، الذى كان يعد فى البدء بدعة خارجة عن الدين ، ولكنه أصبح بفضل الغزالى ، خاليا من السم ، معترفا به من أهل السنة » [٢] .

وهكذا كان الغزالى بمعارفه الواسعة ، وقلمه البليغ ، بانياً من بناة التصوف ، وإن كان البناء معبدا للشيطان !!

هذا ونختم هذا الفصل بكلمة الأستاذ عباس محمود العقاد ، فى حديثه عن الصوفية ، وقولهم بالحلول ، ووحدة الوجود . .

يقول الأستاذ العقاد ،

« فالدين الإسلامى ، الذى انتشر ، فى أقطار شاسعة كانت فيها من قبله عبادات وثنية وغير وثنية ، قد تسرب بعضها إلى أبناء تلك الأقطار ، واختلط بعضها بالعقائد الإسلامية ، عن طريق الوراثة والاستقرار ، ولم يسلم التصوف من تلك الأخلاط ، فاقترن فى أقوال ناس من المنتسبين إلى الاسلام بما يجوز ، وما لا يجوز . .

« وعلى الجملة فان الاسلام ينكر من تلك المذاهب الصوفية مذهبين منتشرين فى الصوفية على عمومها : ينكر مذهب الحلول ، كما ينكر المذهب

---

(١) من كتاب : مذاهب التفسير » لجولد تسيهر ص ٢٥٩ .

(٢) التراث اليونانى ، ترجمة الدكتور أحمد بدوى ص ١٠ .

القائل بوحدة الوجود.. فلا يقر الإسلام مذهباً يقول بحلول الله فى جسد إنسان، أو غير إنسان، ولا يقر مذهب القائلين بفناء الذات الإنسانية فى الذات الإلهية..

« ولا يقر الاسلام مذهبا يقول بوحدة الوجود، أو يقول بأن الله، هو مجموعة هذه الموجودات، وأن الكون كله بسمائه وأرضه، ومخلوقاته العلوية والسفلية، هو الله »[1].

●★●

(١) من كتاب الصوفية فى الاسلام، للاستاذ عباس محمود العقاد ص : ٨٢ وما بعدها .



الباب الخامس

التصوف .. وطرائفه، ومعمياته



الفصل الاول

نظام الطبقية فى التصوف

التصوف دين قائم بذاته فى مواجهة الدين الإسلامي وإن تمسك بالإسلام وأضاف نفسه إليه وانتسب نسبة الدعى إليه .

فالإسلام دين ينتسب إليه كل مسلم ، لايعرف له نسباً غيره ، فالمسلم مسلم وحسب والمسلمون أمة واحدة تحت راية واحدة تظل المسلمين جميعاً ، هى راية الإسلام .

وإن أى إنسان أو جماعة لا يكون الإسلام نسباً له أو لها لا يحسب من المسلمين . . فالصوفى ، والقاديانى ، والبهائى ، والفاطمى ، والإسماعيلى والمعتزلى ،وغير ذلك من الأسماء التى تتسمى بها بعض الفرق هى معزولة عن الإسلام مهما بعدت أو قربت عزلتها عنه .

وإلا ، فلم كانت هذه الأسماء ، إذا كانت لأصحابها دعوى فى الإسلام أو النسب إليه ؟ إن ذلك يعنى أنها ــ على أحسن الأحوال ــ إسلام وشىء عندها فوق الإسلام وإلا لما كان لتلك الأسماء الحادثة معنى ! !

والإسلام هو الإسلام ،الذى جاء به القرآن الكريم و بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وإن أية إضافة للاسلام أو حذف منه ، لا يكون إسلاماً . . فما أخلى رسول الله ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ مكانه من هذه الدنيا ،

إلا بعد أن تم دين الله ، وكمل . . والله تعالى يقول : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » (سورة المائدة : ٤) ويقول سبحانه : « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ، وهو فى الآخرة من الخاسرين » (سورة آل عمران : ٨٥) .

ونسأل المتصوفة : إما أن يكونوا مسلمين، فلم هذا الاسم ، الذى استبدلوه بالإسلام ؟ وإذا قالوا : إن التصوف هو الإسلام ، فلم يهجرون كلمة الإسلام التى جعلها الله تعالى عنواناً على هذا الدين ، إلى كلمة التصوف ؟ والله تعالى يقول : « أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ؟ » (البقرة : ٦١) .

وإذا كان التصوف ديناً حادثاً ، مستقلا بطقوسه ، ونواميسه ، فلم يتمسك بالإسلام ، ويخلط نفسه به ؟ إن ذلك ضرب من ضروب النفاق ، والكفر الصريح ـ على فداحة مآثمه وشروره ـ خير من النفاق . وفى الشر خيار ! !

ثم إن التصوف بطقوسه ومراسمه ، وطرائق شيوخه ، ليس ديناً واحداً ولا مذهباً واحداً ، بل هو أديان شتى ، ومذاهب مختلفة . فكل من وصل إلى كرسى المشيخة فى التصوف ، اتخذ له طريقة خاصة به ، وشارة مميزة لأتباعه وضروباً من الأدعية والأذكار يعكف عليها مريدوه

وكل صاحب طريقة من تلك الطرق الصوفية ، يتخذ له ضريحاً من تلك الأضرحة التى تضم تحتها اسماً تدعى لصاحبه الولاية ، فيكون هذا الضريح قبلة صاحب الطريقة وأتباعه ، لا ينقطعون عن زيارته ، ويحجون إليه فى يوم مولده ، ويؤدون له من المناسك ما يؤدى المسلمون من مناسك حجهم ،

ويقدمون له القرابين ، والنذور . . . ثم إن الجاثم فى هذا الضريح مذكور دائماً عند أتباعه ، يهتفون به فى كل حال من أحوالهم، فى سرائهم وضرائهم، يطلبون منه المدد والغوث ، ولا يكاد يخطر لهم ذكر الله فى أحوالهم تلك .

ولا شك أن هذا شرك صريح ، يدخل به صاحبه فى عالم المشركين ، الذين يقول الله تعالى فيهم : « ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة ، وهم عن دعائهم غافلون ، وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء ، وكانوا بعبادتهم كافرين » (الأحقاف : ٥ ـ ٦) .

● ✱ ●

ومع هذا الشرك الصراح الذى يعيش فيه المتصوفة ، فإنه ـ كما أشرنا ـ طرائق متعددة ، يقوم على كل طريقة شيخ ، يتسلط على أتباعه تسلط الجبارين ، فكلمته قانون ،وإشارته حكم ، من حدثته نفسه بمخالفته ،أحرق بنار الطرد والحرمان من رحمة الله .

ثم إن من وراء هذا الشيخ حواريين ، ومن وراء الحواريين أوتاداً ومن وراء الأوتاد نقباء . . وهكذا وهكذا ، كل من كان منهم فى درجة تسلط على أصحاب الدرجة التى دون درجته ، كما تسلط شيخ الطريقة على أتباع الطريقة ، دون مراجعة أو اعتراض، امتثالا لهذا المبدأ الصوفى : « من اعترض انطرد » والمبدأ الصوفى القائل : « ينبغى أن يكون المريد بين يدى شيخه كالميت بين يدى الغاسل ! ! » .

أرأيت إذلالا للانسان ،وامتهاناً لكرامته، وإهداراً لآدميته ، ووضعاً كهذا الوضع الذى يسلب فيه الإنسان عقله ، ويفقد فيه إحساسه ومشاعره ؟

إن الله سبحانه ، وهو خالق الإنسان ، ورازقه ، ومحييه ومميته ، لم يفرض لذاته سبحانه على الإنسان سلطاناً كهذا السلطان ، الذى يسلبه وجوده ، وحقه فى النظر إلى ما يدعوه إليه سبحانه ، وما يفرض عليه من طاعات وعبادات ، بل جعل لكل إنسان الحق فى أن يقدر ويفكر فيما يدعى إليه من دين الله ، ثم إن له بعد هذا أن يؤمن أو يكفر ، فيكون إيمانه عن اختيار ، وكفره عن اختيار أيضاً ، وبمقتضى هذا الاختيار يكون حسابه ، ويكون ثوابه أو عقابه . . والله تعالى يقول : « لا إكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى » (البقرة : ٢٥٦) .. ويقول سبحانه : « إن هذه تذكرة ، فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا » (الإنسان : ٢٩) ويقول جل شأنه لنبيه الكريم : « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟ » (يونس : ٩٩) . . ويقول تعالى : « إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب » (الرعد : ٤٢) . . ويقول تبارك اسمه : « أرأيت من اتخذ إلهه هواه ، أفأنت تكون عليه وكيلا » (الفرقان : ٤٣) . . ويقول سبحانه : « بل الإنسان على نفسه بصيرة ، ولو ألقى معاذيره » (القيامة : ١٤ — ١٥) ويقول سبحانه . « فذكر ، إنما أنت مذكر » لست عليهم بمسيطر » (الغاشية : ٢١ — ٢٢) .

والله سبحانه وتعالى قادر على أن يهدى الناس جميعاً إلى الإيمان ، والعمل بمرضاته ، ولكن هذه القدرة الملزمة القاهرة لا تجعل للانسان مجالا للاختيار ، ومن ثم يرتفع البلاء ولا يكون بين الناس مكان للفضل والتفاضل ، ولا مجال للثواب والعقاب.. يقول الحق سبحانه : «أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً» (الرعد : ٣١) .. ويقول سبحانه : « ولو شاء ربك

لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك، ولذلك خلقهم» (هود: ١١٨ — ١١٩).. ويقول جل شأنه: «ولو شاء الله لجمعهم على الهدى، فلا تكونن من الجاهلين» (الأنعام: ٣٥). ويقول سبحانه: «ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها» (السجدة: ١٣) ويقول جل شأنه: «ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً» (يونس: ٩٩)..

ذلك هو حكم الله فى عباده، وتلك مشيئته فيهم: أمرهم ونهاهم، ثم جعل لهم حرية الاختيار فيما أمر ونهى.. فلا إلزام ولا إكراه، ولكن اختبار وابتلاء: «وقل الحق من ربكم، فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر».. (الكهف: ٢٩).. «ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حى عن بينة» (الأنفال: ٤٣).

ولكن الصوفية، تتنزل على أتباعها من سلطان متسلط جبار، يحرق بناره كل من خالف شيخه، أو اعترض على حكم من أحكامه: بل إن المريد يجب أن يكون بين يدى شيخه، كالميت بين يدى غاسله!! وهل للميت أن يكون منه اعتراض على من يغسله، إذا هو غسله بالخمر، أو بالخل؟

وهل ترجو أمة أو جماعة يكثر فيها هؤلاء الأشباح الذين تعطلت ملكاتهم، وذهبت عقولهم، وماتت مشاعرهم وأحاسيسهم — هل ترجو أمة يكثر فيها أمثال هذه الأمساخ، أن تحصل خيرا لدنياها أو آخرتها؟

إن عالم المتصوفة يحيل أتباعه إلى عالم الموتى، حيث يختم على أعمال الموتى، فلا عمل لهم بعد الموت.. كذلك المتصوفة الذين يعملون تحت هذا الاستعباد القاهر، لا يقام لأعمالهم وزن، مهما عملوا، لأن هذا العمل واقع

تحت حكم الاضطرار الذى لا إرادة لصاحبه فيه ، سواء أكان من باب الخير أو من قبيل الشر ! !

فأعمال المتصوفة ، فضلا عن أنها مدموغة بطابع الشرك ، فى كثير من صورها وأشكالها تقوم على أساس طبقى ، كل طبقة تعيش فى حدود طبقتها ، تذل للطبقة التى فوقها وتتعالى على الطبقة التى تحتها . .

وقد خضع الصوفية لهذا النظام العسكرى الصارم ووقعوا تحت سلطانه الذى لا يرحم من تحدثه نفسه . بالخروج عليه . . فإن فعل كان مجازفا بنفسه متوقعاً الويلات تنصب عليه من أصحاب التصريف ، الذين يقومون على أتباعهم مقام الرب على عباده .

إن هذه القيود الثقال ، التى قيدت بها الصوفية أتباعها على مربط الذلة والاستكانة للشيوخ وأصحاب الطرق ، لهى بلاء دونه أى بلاء يقع فيه الأسير ليد آسريه ، من ألد أعدائه ! !

وماذا يبقى للانسان من معانى الإنسانية ، إذا اختنقت أنفاسه ، وسجنت عواطفه وذهب بعقله ؟ هذا هو الإنسان — أو شبح الإنسان — فى عالم الصوفية . .

يقول الصوفى الكبير ابن عطاء السكندرى فى كتابه : « لطائف المنن » :

« من لم يكن له أستاذ يصله بسلسلة الأتباع ، ويكشف له عن قلبه القناع ، فهو فى هذا لقيط ، لا أب له ، دعى لا نسب له » . .

وإذن ، فالمسلمون جميعاً أدعياء ولا نسب لهم إلى دين ، إلا إذا دخلوا فى عالم التصوف ، وانتظموا فى سلك التلاميذ والمريدين .

ويقول « محمد عثمان » شيخ الطريقة البرهانية ، التى استولت على عقول كثير من أبناء السودان ، ومصر ، فى هذه الأيام ـ يقول ـ وهو لا يزال حياً يقىء هذا اللغو على أتباعه ، فيما يجب أن يلتزم به المريد فى حضرة شيخه من آداب ، فيقول : « ومنها ـ أى من هـذه الآداب ـ أن تجلس مجلس جلوس الصلاة عنده ، وأن تفنى فيه ، وألا تجلس فوق سجادته ، وألا تتوضأ بإبريقه ، وألا تتـكىء على عكازه ، واسمع ما قال بعض الأصفياء : « من قال لشيخه لم ؟ لا يفلح » !! وليـكن محضره فى قلبك وخيالك ، فإن غبت عنه وقتاً فهذا من مقتك !! واجتهد فى أن تنال مقام الفناء فيه ، ومن ثم ترقى إلى مقام الفناء فيه »[١].

و تقول : ه . يبقى بعد هذا عند المسلم فى قلبه أو عقله لله تعالى ، والمريد مستغرق فى شيخه ان فيه ، فإن غفل عن اشتغال عقله وقلبه به ، حل عليه المقت ؟ وكيف يؤد ريد الصلاة ، وهو مشغول بشيخه ؟ لا بأس !! إنه يصلى لشيخه القائم مقام ربه . . سبحانك هذا بهتان عظيم !!

هذا ، وتقرر الصوفية على لسان «الشعرانى» : أن من أشرك بشيخه شيخاً آخر وقع فى الشرك بالله » !![٢].

ويقول ابن عطاء الله السكندرى : « من أخذ الطريق على غير شيخه ، كان على غير دين » !![٣].

---

(١) الهبات المقتبسة ، لمحمد عثمان سنة ١٩٣٩ م .

(٢) قواعد الصوفية ص : ١٣١

(٣) لطائف المنن ، لابن عطاء الله : جزء ٢ صفحة ١٠٣ .

ونسأل هذا الشيخ الصوفى الكبير : ما حكم من يأخذ طريقه إلى الله من كتاب الله وسنة رسوله ، ولم يأخذ هذا الدين من أحد شيوخ المتصوفة ؟ أيقبل هذا الدين من صاحبه ، أم يعد دينه باطلا ولغواً ؟ ثم ما حكم المسلمين الذين آمنوا بالله ورسوله قبل أن يظهر المتصوفة ، وشيوخ المتصوفة ؟ أتكون الأمة الإسلامية حينئذ على غير دين ؟ وما حكم المسلمين اليوم الذين لم يدخلوا فى عالم المتصوفة، ولم يجلسوا إلى شيوخهم مجالس الكلاب من صاحبه ، يلقى إليه بما شاء من عظام ونفايات الطعام ؟ أيكونون على دين ، أم يكونون من الكفرة والملحدين ؟

وندع الجواب على هذا للأمة الإسلامية ، التى يخرجها المتصوفة من دينها ، لأنها لم تأخذ دينها من شيوخ التصوف ؟

فهنا دينان : دين الإسلام ، المتلقى من كتاب الله ، وسنة رسوله ، ودين التصوف المتلقى من شيوخ المتصوفة !! ولكل أحكامه ، وحدوده ، وشرعته ومنهاجه . ولا يمكن أن يكون المسلم مسلماً وصوفياً ، كما لا يمكن أن يكون الصوفى صوفياً ومسلماً ، والله تعالى يقول : « ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه » (الأحزاب : ٤) . فكيف — مع هذا — يسمح المسلمون المتصوفة أن ينشروا هذا الضلال فيهم ، وأن يفتنوهم فى دينهم ؟ وإذا حارب المسلمون المبشرين الذين ينتشرون فى ربوعهم ، وينشرون أباطيلهم بينهم ، فإن حرب التصوف والمتصوفة أولى وأوجب ، إذ كان المتصوفة يلبسون زى الإسلام خداعاً وتمويهاً ، على حين أن المبشرين يلبسون زى الرهبان والقسيسين، حيث يحذرهم المسلم ، ويتوقى الشر المساق إليه منهم ، على حين يلتقى مع المتصوفة فى بيوت الله ، وفى محارب الصلاه ، وذلك هو الكيد أعظم الكيد والبلاء أشد البلاء .

* * *

الفصل الثانى

طبقات المتصوفة .. وتصريف كل طبقة

فى مؤلفات المتصوفة رسم دقيق لطبقاتهم ، وما لكل طبقة من تصريف فى هذا الوجود ، بحيث تتدرج هذه الطبقات — تدرجاً هرمياً من القاعدة إلى القمة ، وبحيث يكون الرأس هو الإله القائم على مملكة أتباع طريقته .. ثم يكون الذين من هم دونه إلى القمة ، جنوداً ، يتلقون الوحى من شيخ الطريقة أو رأسها ، بما يأمرهم به ، ويدعوهم إليه ، فيسمعون ويطيعون ، بلا مراجعة أو تردد ، كما يدير المرء آلة من الآلات ، فتتحرك حركتها التى صنعت من أجلها .

وفى كتاب : « قوانين حكم إشراقية » ، لجمال الدين محمد أبى المواهب الشاذلى ، بيان واف لطبقات المتصوفة ، ووظائف كل طبقة ، وهى :

أولا : صاحب الوقت :

« وهو رحمة لكل العباد[1] ، وسحابة ما طرة فى سائر البلاد ، وجوده فى الوجود ، حياة لروح الوجود الكلية ، وبنفس نفسه يمد الله العوالم العلوية والسفلية .. ذاته مرآة مجردة ، يشهد كل ناظرفيها مقصده ، حضرته صباغة

(١) هكذا على الاطلاق ، فقد وضعت رحمته العباد جميعا : مؤمنهم وكافرهم .

تصبغ كل من أمله فيما توجه إليه وأمه ، ما شهدته فيه ، خلعه عليك . .
إياك أن تحرم احترام أصحاب الوقت ، فتستوجب الطرد والمقت !! » .

ونقول : وماذا بقى لله تعالى من تصريف ، مع صاحب الوقت هذا ؟
ولكن ليس بعد الكفر ذنب ! !

إن رحمة صاحب الوقت ، هذا ـ ولا ندرى من هو ، وإن كان باطل الأباطيل — إن رحمته وسعت كل شىء ، كما يقول الله تعالى عن ذاته الكريمة : « ورحمتى وسعت كل شىء » (الأعراف : ١٥٥) . . وهو يمد بأنفاسه العوالم العلوية ، والسفلية . . أى أنه يمسك الوجود كله ، ولو زال لزال الوجود . . فهل بعد هذا الضلال ضلال ؟

ثم يقول هذا الشيطان عن صاحب الزمان :

ثانياً : صاحب الزمان :

« موجود بالعين فى العيان . . وأصحاب دائرته من الرجال ، متفرقون فى المدن والأودية والجبال . وهذا الرجل يسمى الفرد ، والقطب ، والغوث . .
وفوقه القطبية الكبرى ، وهى مرتبة قطب الأقطاب !! والإمامان هما اللذان عن يمينه وعن شماله » !!

ونقول : إن قطب الأقطاب ، هو فى مقابل رب الأرباب عند الصوفية . .
فصاحب الزمان قطب ، أى رب ، وفوقه قطب الأقطاب ، وهو رب الأرباب فهو الله ، والملائكة حافون به حول عرشه . !!

وهكذا يذهب الصوفية بوحدة الوجود، وبالحلول، إلى هذا الضلال البعيد في جرأتهم على الله تعالى، وحلولهم فيه، وقيامهم بسلطانه!

ثم يكشف أبو المواهب الشيطانية، عن درك ثالث من دركات الصوفية، فيقول.

ثالثاً: الأوتاد:

« وهم أربعة، واحد في الشرق، وآخر في الغرب، وثالث في الشمال، ورابع في الجنوب » أي أنهم ممسكون بالوجود من جهاته الأربع، ولو زالوا لزال الوجود!! ثم يأتي هذا المخبول ببقية الأعوان الذين يتحكمون في الوجود. فيقول:

رابعاً: البدلاء: وهم سبعة!

خامساً: النجباء: وهم أربعون!

سادساً: النقباء: وهم ثلاثمائة!

سابعاً: الأفراد: وهم الخارجون عن قطر القطب!!

ثامناً: الأعراف: وهم أهل الاطلاع على المقامات!!

تاسعاً: خاتم الأولياء:[1]

وهو الذي يختم الله به دائرة الولاية، كما ختم بمحمد صلى الله عليه وسلم دائرة الرسالة، وقد قرب له ظهور الحركة، فعليه منا السلام، والرحمة والبركة!

ونقول الاسلام منا على مجهول: قد يكون وهماً. وقد يكون شيطاناً مريداً.

---

(١) جاء ذكر خاتم الاولياء آخر هذا الترتيب، لانه لم يظهر بعد، بل منتظر ظهوره — كما يدعى زورا وبهتانا — ولعل هذه دعوة الى ثورة لاقامة دولة، يقوم عليها دعى من أدعياء التصوف.

ثم رد صاحب الكتاب على من يعترض على هذه المدعيات فيقول :

« فإن قيل هذا لم يرد به حديث ولا أثر — كما زعم بعض المتفقهة !! — قلنا : كذب فيما جاء به من الإنكار .. بل أتت بذلك أحاديث وآثار .. فمن ذلك ، ما خرجه السمرقندي[1] في كتاب « الأبدال » أن عليا كرم الله وجهه ، سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن الأبدال ؛ فقال : هم ستون رجلا !! فقال : يا رسول الله صفهم لي ، فقال : ليسوا بالمتنطعين ، ولا بالمبتدعين ولا بالمتعمقين .. لم ينالوا ما نالوا بكثرة صلاة ولا صيام ولا صدقة ، ولكن بسخاء النفس ، وسلامة القلب ، والنصيحة لأئمتهم .. إنهم يا علي في أمتي أعز من الكبريت الأحمر !! »

وفي هذا الكلام المنسوب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم — متناقضات لا يقبلها عقل .. إذ كيف يحدد الرسول عدد الأبدال بستين رجلا ، هكذا على الإطلاق ، دون أن يحدد لهم زمانا أو مكانا ، ودون أن يكون لهم أثر محدد في حياة المسلمين ؟ إن ذلك يفتح الباب على مصراعيه لمن يدعي أنه من الأبدال ، استهواء للناس ، وإشباعا للأطماع !! وهذا ما فاضت به رسائل إخوان الصفاء وما قامت عليه الدعوة الفاطمية ، وداعيتها ابن القداح اليهودي . ثم كيف يكونون في الأمة الإسلامية أعز من الكبريت الأحمر ، الذي يضرب به المثل في التعبير عن الاستحالة ؟ وإذن فهؤلاء الأبدال في أمة غير الأمة الإسلامية !! وإذن فلتذهب هذه الأمة ، ولتقويم

(١) ومن هذا السمرقندي ؟ انه لم يعرف في رواة الحديث ، ولا في أهل العلم والفقه ، بل هو دعي من اولئك الأدعياء الذين جاءوا الى المسلمين بالزور والبهتان ، لازالة الأمة الاسلامية التي مكن الله لها في الأرض ، وأزالت دولة الاكاسرة والقياصرة .. وهيهات للباطل أن ينال من بنيان إقامة الله .

مكانها أمة أخرى !! إنها دعوة شيعية، أو شعوبية فارسية ، حيث لا ينصح هؤلاء الأبدال إلا لأئمتهم — كما يقول هذا الشيعى أو الشعوبى .. أما النصح لله ولرسوله، والمؤمنين ، فلا يكون منهم، وإذن فهم على غير دين الله ورسوله صلى الله عليه وسلم يقول : « الدين النصيحة . الدين النصيحة . . الدين النصيحة .. قيل لمن يارسول الله؟ قال : « لله ولرسوله ، ولكتابه ، ولأئمة المسلمين وعامتهم » .. وكفى بهذا إبطالا لهذا الافتراء العظيم .

ثم يقول صاحب الكتاب ، مستشهدا لما يدعيه من أبدال، ونقباء — يقول :

« وروى عن أبى ذر أنه قال : لما ذهبت النبوة ، وكان الأنبياء هم أوتاد الأرض ، أخلف الله مكانهم أربعين رجلا ، من أمة محمد — صلى الله عليه وسلم . لا يموت الرجل منهم ، حتى ينشىء الله مكانه آخر يخلفه .. وهم أوتاد الأرض ، ثلاثون منهم على قلب إبراهيم ، ولم يفضلوا الناس بكثرة صيام، ولا صدقة ولا صلاة ، لكن بحسن الورع ، وصدق النية ، وسلامة القلوب ، والنصيحة للمسلمين ابتغاء مرضاة الله ، بصبر وخير ، ولب ، وحلم ، وتواضع فى غير مذلة !! »

ثم يجىء بادعاء آخر ، فيقول :

« وعن الحسن (البصرى) : « لولا البدلاء لخسف الله بالأرض » . والله تعالى يقول : « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا » (فاطر : ٤١) (١) .

---

(١) من كتاب : قوانين حكم الاشراق — لجمال الدين ابى المواهب الشاذلى — ص ١١٧ — ١١٨ .

ونقول : إن هذا إفك مبين ، وافتراء منضوح ! فوق أنه عبث بكتاب الله ، وتلاعب بآياته . .

فكيف يصح الاستشهاد بقوله تعالى : « إن الله يمسك السموات الأرض أن تزولا » على أن الله تعالى يمسك الأرض بهؤلاء الأبدال ؟ ومن كان يمسك الأرض قبل خلق آدم ، وظهور هؤلاء الأبدال من ذريته؟ أم أن هؤلاء الأبدال كانوا قبل أن يخلق الناس ؟ كلام لايصدر إلا من مخابيل أو مجانين ، أو من أولياء شياطين !

ثم كيف يفهم قوله تعالى : « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا » على أن الأبدال هم الذين يمسكونها ، والله تعالى يقول : « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا » ثم يؤكد ذلك بقوله بعد هذا :

« ولئن زالتا إن أمسكهما أحد من بعده » ؟ . أفبعد هذا تبلغ الجرأة بضال مخبول أن نقول إن الأبدل هم الذين يمسكون السموات والأرض أن نزولا ، ثم ينسب هذا إلى الحسن البصري؟ ولكن قيل : « إذا لم تستحي فاصنع ماشئت » .

ويكفي أن نثبت هنا كلمة قاطعة للامام ابن تيمية — رضي الله عنه — يضرب بها في وجه هذا الباطل ، فيفر من الميدان ، كما يفر الخفاش من ضوء النهار . .

يقول رضي الله عنه :

« كل حديث يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم في عدة الأولياء ،

والأبدال والنقباء والنجباء ، والأوتاد ، والأقطاب ، مثل أربعة ، وسبعة ، واثنى عشر ، وأربعين ، أو سبعين أو ثلاثمائة وثلاثة عشر ، والقطب الواحد — فليس فى ذلك شيء صحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم ، ولم ينطق السلف بشيء من هذه الألفاظ »[1] .

وإذا قال هذا ابن تيمية - رضى الله عنه - فإنما يقول عن علم محقق ، ليقيم به شهادة بين يدى الله تعالى ، يؤدى بها أمانة النصح لله ولدين الله ولرسول الله ، وللمؤمنين بالله .

ونسأل المتصوفة بعد هذا : ما قولهم فى هذه المعتقدات التى يعتقدونها فى صاحب الوقت ، وصاحب الزمان ، والأوتاد ، والبدلاء والنجباء ، والنقباء إلى آخر هذه السلسلة الممتدة الحلقات - أهى مما كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان من محامل رسالته ؟ ثم هل عرف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا من هذا . وتعاملوا به ؟

والجواب على هذا ، بأن شيئا من ذلك لم يكن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا فى زمن صحابته ، رضوان الله عليهم من بعده ، ولا التابعين من بعد الصحابة .. وهذه كتب السيرة لهؤلاء الصفوة الكرام ليس فيها مجرد إشارة إلى هذا الضلال !!

وتأسيسا على هذا ، فإن تلك المقولات التى يؤمن بها الصوفية ويقيمون وجودهم عليها ، هى بدع حادثة فى الإسلام ، دخيلة على دين الله ، يدخل

---

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تيمية — ص : ٨

أتباعها فى مضمون الحديث الشريف : « إياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار » .

إنه ليس فى الإسلام ، ولا من الإسلام ، طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، ولا لأحد أن يخرج إنسانا من دينه ، ويسلبه إياه ، إذا هو عصاه وخرج عن طاعته ولا أن يغفر له خطاياه ، أو يلقى به فى النار ، كما فعل الكنيسة بأتباعها بما بين يدى رؤسائها من صكوك الغفران ، وصكوك الحرمان . . فليس على المسلم فى دينه من سلطان إلا كتاب الله ، وسنة رسوله ، وفى هذا يقول الله تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا » (الحشر : ٧) .

وقد ورد فى الصحيحين ، عن على رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعث سرية ، واستعمل عليها رجلا من الأنصار . . فلما خرجوا وجد عليهم فى شىء — أى وجد فى نفسه مالا يرضاه منهم — فقال لهم : أليس قد أمركم رسول الله صلى الله عليه وسلم . أن تطيعونى ؟ قالوا : بلى : قال : فاجمعوا حطبا . . فجمعوا ، ثم دعا بنار فأضرمها ، ثم قال : عزمت عليكم لتدخلنها . . قال : فهم القوم أن يدخلوها ، فقال لهم شاب : إنما فررتم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من النار ، فلا تعجلوا ، حتى تلقوا النبى صلى الله عليه وسلم ، فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها ، فرجعوا إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فأخبروه ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو دخلتموها ما خرجتم منها أبداً ، إنما الطاعة فى المعروف » .

إن هؤلاء الجماعة من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو استجابوا لدعوة من دعاهم إلى أن يلقوا بأنفسهم فى النار ، بما له من رياسة عليهم بأمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم — لأنهم لو استجابوا له ، وألقوا بأنفسهم

فى النار،لا نتقلوا منها إلى نار الآخرة ، لا يخرجون منها أبداً ، لأنه لا طاعة إلا فى المعروف ، كما قال الرسول الكريم ، أما الطاعة فى المنكر فهى عصيان لله ، ومحادة له ، يستوجب فاعلها النار .

فهل المتصوفة الذين يتلقون من شيوخهم تلك الأوامر البدعية الخارجة على الدين — هل هم أحسن حالا من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين لو استجابوا لرئيسهم هذا ، وفعلوا ما أمرهم به من هذا المنكر لكان مصيرهم النار ؟ .

ولا جواب عندنا ، وإنما الجواب عند شيوخ المتصوفة وأتباعهم . ! !

إن هذه المناصب التى رتب بها الصوفية دولتهم ، فجعلوا « القطب » هو مركز هذه الدولة ، وهو المتصرف فى الكون ، ثم من ورائه الأمراء والوزراء ، والجند — إن هذه المناصب ، قد اتخذ منها المتصوفة مدخلا يدخلون منه إلى عقول العامة وأشباه العامة ، وإلى أهواء ذوى المطامع الذين يحترفون النصب والاحتيال ، ليأكلوا أموال الناس بالباطل ، وليكون للشيوخ النصيب الأوفر من هذا السحت .

ومن هنا كثرت مدعيات المتصوفة لكرامات أهل الطريق جميعاً ، كل حسب وظيفته التى وصل إليها على يد شيوخه . .

يقول أحد شيوخ المتصوفة ، المسمى « الدباغ » :

« إن الولى ، صاحب التصرف ، يمد يده إلى جيب من شاء ، فيأخذ منه ما شاء من الدراهم ، وذو الجيب لا يشعر »[1] .

(١) من كتاب (الابريز) للدباغ — جزء ٢ ص : ١٤

هـكذا يحترف المتصوفة السرقة والنشل ، ولا حرج فى هذا عندهم ، فالذى أخذ المال من الجيوب هو ولى ، ولا حرج عليه فى هذا ، لأنه يعطى الـكثير ، ويأخذ القليل !

ومن هو الولى عند المتصوفة ؟ إنه صاحب العمامة الـكبيرة ، والذقن الطويلة ، والملابس المرقعة الفضفاضة ، والمسابح المدلاة من الأعناق ، حتى تجاوز الركب !! ثم لابأس مع هذا من لعاب سائل ، وشدق مائل ، وألفاظ تحمل الفحش ، والخنا . فذلك مما يزكى ولايته ، فهو فى غيبة عن الخلق !!

ويقول هذا « الدباغ » أيضا ، فيما للأولياء من تصريف فى الـكون ، وهو لاشك عند نفسه - أنه واحد من هؤلاء الأولياء ـــ يقول :

« كل ما أعطيه سليمان فى ملـكه ، وما سخر لداود ، وما أكرم به عيسى ـ أعطاه الله وزيادة ، لأهل التصرف من أمة محمد ، ومـكنهم من القدرة على إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى »[١] .

فيا أيها المسلمون ، ويا أيها العقلاء من أبناء آدم — أهذا مما يحتمله عقل ؟ أهذا مما يشهد به واقع ؟ ثم أيترك مثل هذا الـكفر الصراح محمولا على الإسلام ، ثم يـكون للاسلام وجه فى هذه الحياة ؟ .

إن الجهاد مافرض على المسلمين إلا لحماية هذا الدين من كيد أعداء الله وأعداء دينه ، من الـكفار والمشركين ، والملحدين . . وهل جهاد أبر

---

(١) من كتاب (الابريز) للدباغ ــ جزء ٢ ص : ١٢

وأوجب من محاربة هذه الجرائم المحملة بالأوبئة ، تساق إلى دين الله ، وإلى المعتدين بهذا الدين ، ونفتنهم فيه ؟ والله تعالى يقول : « والفتنة أشد من القتل » (البقرة : ١٩١) . . ويقول سبحانه : « إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق » (البروج : ١٠) . .

إن مثل هذه المقولات ، التي تخرج من تلك الأفواه الشيطانية ، يجب أن يلقاها المسلم منكراً لها ، بكل وجوه الإنكار : باليد ، واللسان ، والقلب جميعا : ولا يجوز لمسلم أن يكتفي بواحدة منها . . فإنه في وجه خطر داهم ، وبلاء عظيم . ووباء لا يبقى على شيء من دنيا ، أو دين !!

إن الشعوذة ما انتشرت بين عوام المسلمين ، إلا من هذه المدعيات الباطلة . التي فتحت أبواب النصب والاحتيال باسم الدين ، لأولئك الأفاقين الذين يدعون باسم الدين شفاء المرضى ، وقضاء الحاجات ، وفتح أبواب الرزق . وذلك بإطلاق البخور . وقراءة التعاويذ الشيطانية من مشعوذ أرخى شعره ، وأطال ذقنه ، ولبس المرقعات التي تشبه قوس قزح . فتداعى إليه العامة ، يلتمسون بركاته ، ويطلبون منه ما يطلب المؤمنون بالله من الله تعالى — نقول : إن الشعوذة ما انتشرت في آفاق المسلمين إلا من التصوف ، ومدعيات المتصوفة ، حيث وقع كثير من المسلمين فريسة لهذه الفتن ، فعبدوا الأحياء من المشعوذين ، كما عبدوا أصحاب الأضرحة والقباب من الأموات !! .

فهل من مجاهدين فى سبيل الله ، لإزا هذه الغواشى التى غشيت وجه الإسلام ، وألبست كثيراً من المسلمين لباس الشرك . فكانوا حربا على الإسلام . وهم محتمون بالاسلام ، ويستظلون بظله ؟ .

ألا إن الأمر جـــد ليس بالهزل : « ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز » .

* * *

الفصل الثالث

خرافة القطب وأعوانه

القطب عند المتصوفة ، هو إلههم المعبود ، وهو الذى يستمدون منه ما يجود به عليهم من أفضال جوده و كرمه ، فيسبحون بحمده ، ويلوذون بحماه ، كما يسبح المؤمنون بحمد ربهم ، ويلوذون بحماه !

يقول : المرحوم عبد الرحمن الوكيل — فاضحا هذه الخرافة التى يستمد منها المتصوفة وجودهم ، ويتخذون منها زادهم ، ومرعاهم — يقول :

« أسطورة خرافية تنزع إلى تجريد الله من الربوبية والإلهية ، وخلعهما على وهم باطل ، سمى فى الفلسفة « العقل الأول » وفى المسيحية « الكلمة » وفى الصوفية « القطب » . !

« والقطب — عند الصوفية — هو أكمل إنسان متمكن فى مقام الفردية ، أو الواحد الذى هو موضع نظر الله فى الأرض ، فى كل زمان . عليه تدور أحوال الخلق ، وهو يسرى فى الكون ، وفى أعيانه الباطنة والظاهرة ، سريان الروح فى الجسد ، ويفيض روح الحياة على الكون الأعلى والأسفل ، وقد يسمى « الغوث » باعتبار التجاء الملهوف إليه » .

ثم يقول :

« والقطب عند الصوفية نوعان : أحدهما حادث ، أو حسى ، وهو

ماسبق الحديث عنه[1] ، والآخر قديم ، أو معنوى ، وهو « الحقيقة المحمدية » .

« يقول القاشانى » :

« وهو – أى القطب – ، إما بالنسبة إلى ما فى عالم الغيب والشهادة ، من المخلوقات ، يستخلف بدلا منه عند موته أقرب الأبدال منه . أو قطب بالنسبة إلى جميع المخلوقات فى عالم الغيب والشهادة ، ولا يستخلف عنه بدل من الأبدال ، ولا يقوم مقامه أحد من الخلائق ، وهو قطب الأقطاب المتعاقبة فى عالم الشهادة ، لا يسبقه قطب ، ولا يخلفه آخر ، وهو الروح المصطفوى المخاطب من الله : لولاك لما خلقت الكون » .

أى أن هذا القطب الذى لا يسبقه قطب ، ولا يخلفه آخر ، هو الله تعالى الذى وصف ذاته الكريمة بقوله تعالى : « هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو بكل شىء عليم » (الحديد ٣٠) – فإذا كان هذا القطب هو الله ، فأين الله ؟ وإذا كان هذا القطب إلها مع الله ، فهل يجتمع إلهان ؟ والله تعالى يقول : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » (الأنبياء : ٢٢) ؟ فماذا يقول المتصوفة فى هذا ولا تنتظر منهم جوابا ! !

ويقول أحمد التيجانى ، شيخ الطريقة التيجانية ، فى كتابه ، جواهر المعانى : ص ٨١ .

« إن حقيقة القطبانية ، هى الخلافة العظمى من الحق ، مطلقا فى جميع

---

(١) أى ما اشار اليه فى الاسطر السابقة .

الوجود ، جملة وتفصيلا ، حيثما كان الرب إلها ، كان القطب خليفة فى تصريف الحكم وتنفيذه ، فى كل من له عليه ألوهية لله تعالى ، فلا يصل إلى الخلق شىء كائنا ما كان من الحق ؛ إلا بحكم القطب، ثم بقيامه في الوجود بروحانيته ، فى كل ذرة من ذرات الوجود . . فترى الكون كله أشباحا لا حركة لها ، وإنما هو الروح القائم فيها ، جملة وتفصيلا . . به يرحم الوجود، وبه يبقى الوجود، وفى بقاء الوجود رحمة بكل العباد . . وجوده فى الوجود ، حياة الروح الوجود الكلية، وبنفس نفسه يمد الله به الموجودات العلوية والسفلية، ذاته مرآة مجلوة يشهد فيها كل قاصد مقصده !! »

ثم يقول التيجانى :

« ومما أكرم الله به قطب الأقطاب أن يعلمه علم ماقبل وجود الكون، وما وراءه وما لا نهاية له . وأن يعلمه علم جميع الأسماء القائم بها نظام كل ذرة من جميع الموجودات ، وأن يخصه بأسرار دائرة الإحاطة ، وجميع فيوضه ، وما احتوى عليه !! »

ونسأل : ماذا بقى لله تعالى من تصريف ؟ أليس القطب هو المتصرف فى جميع الوجود خلقا وأمرا ؟ أليس القطب هو الروح القائم فى الوجود جملة وتفصيلا ؟ أليس القطب هو الذى لا يصل إلى الخلق شىء كائنا ما كان إلا بحكم القطب هذا

وقد كان يمكن أن يكون لهذا الإفك أن يقبل عند بعض الناس لو أن هذا القطب لا ت ، ولكن الصوفية يقولون إنه يموت ؛ وإذا

مات قام بالقطبية أقرب البدلاء إليه . . فكيف يموت من تستمد منه الموجودات وجودها ؟ أليس هو الروح السارى فى كل الموجودات علويها وسفليها ؟

هـــذا كلام له خبىء
معناه ليس لنا عقـــول

ولا يفيد فى هذا المقام مايدعيه الصوفية ، من أن المراد بالقطب ؛ هو قطب الأقطاب ؛ الذى هو عندهم رب الأرباب . فإنه لارب إلا الله تعالى ؛ رب العالمين ،

الأولياء وخاتم الأولياء :

ولا يكتفى الصوفية بأن يستولدوا من عقولهم المريضة ؛ وأهوائهم الفاسدة ، هذا المولود الشيطانى الذى أطلقوا عليه اسم « القطب » والذى أقاموه إلها مع الله ، يمسك الوجود ويبعث الحياة فى كل حى — لم يكتف المتصوفة بهذا ؛ بل استخرجوا من أوهامهم إلها أسموه « خاتم الأولياء » أى أنه يكون مقابل خاتم الأنبياء بالإضافة إلى النبيين . . وأنه مادام للأنبياء خاتم ؛ فلم لا يكون للأولياء خاتم ؟ وهل الأنبياء أفضل من الأولياء ؟ كلا فإن الولى عند الصوفية أفضل من النبى

يقول ابن عربى — الشيخ الأكبر عند الصوفية — فى الولى ؛ وماله من منزلة لا يبلغها النبى :

« ولما مثل النبي صلى الله عليه وسلم النبوة بالحائط من اللبن[١] ؛ وقد كمل غير موضع لبنة ، فكان صلى الله عليه وسلم[٢] تلك اللبنة ، غير أن صلى الله عليه وسلم لا يراها — كما قال — إلا لبنة واحدة . وأما خاتم الأولياء ، فلابد له من هذه الرؤيا ، فيرى ما مثله به رسول الله ، ويرى فى الحائط موضع لبنتين ، فلابد أن يرى نفسه تنطبع فى تلكما اللبنتين ، فيكمل الحائط !! فانه يرى الأمر على ماهو عليه ، فانه آخذ من المعدن الذى أخذ منه الملك الذى يوحى به إلى الرسول » ! ؟

أى أن الولى ؛ لا يأخذ دينه عن النبى متابعة له ، ولكنه يأخذ دينه من الله تعالى مباشرة دون وساطة جبريل ، إنه « يأخذ من المعدن الذى أخذ الملك » كما يقول ابن عربى ، متخرصا أفاكا .

ثم يقول ابن عربى فى فصوصه : وفينا — أى فى الأولياء ، ومنهم بالطبع ابن عربى — من يأخذ — أى العلم — عن الله ، فيكون خليفة من الله بعين ذلك الحكم .

والولاية التى يدعيها ابن عربى لنفسه ولغيره من شيوخ المتصوفة دعوى باطلة لا تقوم على أساس من دين أو عقل . .

---

(١) يشير بهذا الى قول النبى صلى الله عليه وسلم : « مثلى ومثل الأنبياء قبلى كمثل رجل بنى دارا ، فأكملها وأحسنها ، الا موضع لبنة ، فجعل الناس يدخلونها ويتعجبون ، ويقولون : لولا موضع اللبنة ، فأنا موضع اللبنة ، جئت ، فختمت الأنبياء » (رواه البخارى) .

(٢) ذكر النبى مقرونا بالصلاة عليه فى كتابات ابن عربى ، هو زيادة فى المكر والخداع والتضليل .

فأولياء الله هم المتقون من عباده المؤمنين، فكل مؤمن يتقى الله، باجتناب محارمه، وامتثال أوامره، هو من أولياء الله، كما يقول الحق سبحانه: «والله ولى المؤمنين» (آل عمران: ٦٨).. ويقول تعالى: «وأن الظالمين بعضهم أولياء بعض، والله ولى المتقين» (الجاثية: ١٦). ويقول جل شأنه: «ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون، الذين آمنوا، وكانوا يتقون» (يونس: ٦٢).. فالايمان بالله، ثم القيام بما يدعو إليه الإيمان، من امتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، هما المرقى الذى يرقى به المؤمن إلى منزلة الولاية لله، وهى منزلة الرضا، والقرب من الله، دون أن يكون لهذا الولى دعوى يدعيها بأنه يملك من الله شيئا، بل إنه يكون أعبد العبيد لله. ولإسلام وجهه لله رب العالمين ..

يقول ابن تيمية — رضى الله عنه:

«وليس لأولياء الله شىء يتميزون به عن الناس فى الظاهر من الأمور المباحة. فلا يتميزون بلباس دون لباس. إذا كان كلاهما مباحا. ولا بحلق شعره أو تقصيره أو ضفره إذ كان مباحا. كما قيل: «كم من صديق فى قباء، وكم من زنديق في عباء[1]» .. بل الأولياء يوجدون فى جميع أصناف أمة محمد صلى الله سليه وسلم. إذا لم يكونوا من أهل البدع الظاهرة والفجور.. فيوجدون فى أهل القرآن. وأهل العلم. ويوجدون فى أهل الجهاد والسيف ويوجدون فى التجار والزراع والصناع، وقد ذكر الله تعالى أصناف أمة

(١) القباء: الثوب المرقع، والعباء: ما يلبس فوق الثوب.

محمد صلى الله عليه وسلم . فى قوله تعالى : « إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه ، وطائفة من الذين معك ، والله يقدر الليل والنهار، علم أن لن تحصوه فتاب عليكم ، فاقرءوا ماتيسر من القرآن ، علم أن سيكون منكم مرضى ، وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله ، وآخرون يقاتلون فى سبيل الله ، فاقرءوا ماتيسر منه (المزمل: ٢٠) وكان السلف يسمون أهل الدين والعلم « القراء » فيدخل فيهم العلماء والنساك »[١] .

ثم يكشف ابن تيمية — رضى الله عنه — عن تلبيس إبليس على هؤلاء الذين يتزيون بزى التصوف ، وهم يحسبون أنهم بهذا قد أصبحوا من أولياء الله ، وقد كشف عنهم الحجاب فاطلعوا على الغيب ، وسخر لهم الكون!!

يقول رضى الله عنه :

« ومن هؤلاء — أى المتصوفة — من إذا حضر سماع المكاء والتصدية[٢] ينزل عليه شيطانه ، حتى يحمله فى الهواء ، ويخرجه من تلك الدار ، فإذا حضر رجل من أولياء الله تعالى طرد شيطانه فيسقط ، كما جرى ذلك لغير واحد .

« ومن هؤلاء من يستغيث بمخلوق ، إما حى أو ميت ، سواء كان ذلك الحى مسلما ، أو نصرانيا أو مشركا ، فيتصور الشيطان بصورة ذلك المستغاث به ، ويقضى بعض حاجة ذلك المستغيث ، فيظن أنه هو ذلك

---

(١) الفرقان ، بين أولياء الرحمن ، وأولياء الشيطان ، لابن تيمية — ص : ٢٣

(٢) المكاة الصغير ، والتصدية : التصفيق .

الشخص ، أو هو ملك على صورته ، وإنما هو شيطان أضله لما أشرك بالله. كما كانت الشياطين تدخل الأصنام وتكلم المشركين .

« ومن هؤلاء من يتصور له الشيطان ، ويقول له : أنا الخضر ، وربما أخبر ببعض الأمور ، وأعانه على بعض مطالبه ، كما قد جرى ذلك لغير واحد من المسلمين واليهود والنصارى . . ومنهم من يرى عرشاً في الهواء ، فوقه نور ، ويسمع من يخاطبه ، ويقول : أنا ربك . . ومنهم من يرى أشخاصاً في اليقظة يدعى أحدهم أنه نبي أو صديق ، أو شيخ من الصالحين . »

ثم يقول ابن تيمية — رضى الله عنه — بعد أن فضح كثيرا من هذه الأحوال الشيطانية :

« وهذه الأحوال الشيطانية تحصل لمن خرج عن الكتاب والسنة ، وهم - أي الخارجون على الكتاب - درجات . . والجن الذين يقترنون بهم من جنسهم ، وهم على مذهبهم .. والجن فيهم الكافر والفاسق والمخطىء . . فان كان الإنسى كافرا ، أو فاسقا ، أو جاهلا ؛ دخلوا معه في الكفر ، والفسوق والضلال ؛ وقد يعاونونه إذا وافقهم على ما يختارونه من الكفر . مثل الإقسام عليهم بأسماء من يعظمونهم من الجن وغيرهم ؛ ومثل أن يكتب أسماء الله أو بعض كلام الله بالنجاسة ؛ أو يقلب فاتحة الكتاب أو الإخلاص ؛ أو آية الكرسى أو غيرهن ؛ ويكتبهن بالنجاسة . »[1]

ونسأل المتصوفة ؛ ماذا يقولون في قول الرسول الكريم : «خير الناس

(١) الفرقان ، بين اولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تيمية ـ ص : ٧٣.

قرنى، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم يجىء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ، ويمينه شهادته[١] ، أيصدق المتصوفة أن خير القرون هو القرن الذى بعث فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن مسلمى هذا القرن — وهم صحابة الرسول الكريم — هم خير الناس ، وأن من يجىء بعدهم أنزل درجة منهم — وإذن فكيف مع هذا يجىء فى زمن المتصوفة ، القطب ، والأقطاب ، والغوث ، والأبدال ، والنقباء ، وغيرهم ممن يشارك كون الله تعالى فى الخلق والأمر ؟ إن أحداً من الصحابة لم يطر فى الهواء ؛ وإن أحدا من الصحابة ما كان يرى فى أكثر من مكان .. وإن أحدا من الصحابة لم يقل لشىء كن فيكون .. وهذا كله مما يذيعه الصوفية عن أنفسهم وعن شيوخهم الأحياء والأموات ، فإن كان الصوفية يصدقون قول رسول الله هذا ، فلماذا كانت منهم هذه المفتريات التى يفترونها عن الأقطاب والأبدال ؟ إنه لا موضع لهذه المفتريات إلا التكذيب لرسول الله ، والافتراء على الله .

يقول ابن تيمية — رضى الله عنه — :

« وأفضل أولياء الله تعالى ، أعظمهم معرفة بما جاء به الرسول ، واتباعاً له — كالصحابة الذين هم أكمل الأمة فى معرفة دين الله .. وأبو بكر الصديق ، أكمل معرفة بما جاء به الرسول ، وعملا به ، فهو أفضل أولياء الله إذ كانت أمة محمد خير الأمم ، وأفضلها أصحاب محمد — صلى الله عليه وسلم — وأفضلهم أبو بكر ، رضى الله عنه »[٢]

---

(١) رواه البخارى ومسلم ، عن ابن مسعود .

(٢) الفرقان بين أولياء الرحمن ، وأولياء الشيطان ، لابن تيمية ص ٣٨ .

فما يدعيه الصوفية من الأقطاب ، والأبدال ، والأولياء ، وما ينسبون إليهم من خوارق العادات ، هو تمويه على العامة ، وشراك ينصبونها لإيقاع الناس تحت سلطانهم ، وليستبيحوا حرماتهم من أموال وأعراض . فمن كانت له أذنان فليسمع ! ! « وما يلقاها إلا الذين صبروا ، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » صدق الله العظيم .

* * *

الفصل الرابع

من إلحاد الصوفية وكفرهم

للصوفية جرأة عجيبة فى إلباس الحق بالباطل، وفى القول عن الليل إنه نهار، والكفر بأنه إيمان .. وما ذلك إلا لأن المتكلم بهذا صوفى، وللصوفى أن يقول، وعلى الناس أن يأخذوا بما يقول، لأنه يتحدث من عالم الغيب، الذى لا سبيل لعلماء الرسوم

وهذا هو التلبيس الخبيث، والكيد العظيم، الذى تندسس به الصوفية إلى قلوب العامة والدهماء، الذين يخدعون بتلك الحيل الشيطانية، كما يخدع الصغار بأعمال الحواة.

إن للغة ضوابط تحدد معانيها، وإن أى خروج عن هذه الضوابط هو، مما يفسد اللغة، ويفسد على الناس التعامل بها.

ولهذا كان من حكمة الله تعالى أن أرسل رسله، يبلغون رسالته إلى أقوامهم بلسان كل قوم .. وفى هذا يقول الله تعالى: «وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه، ليبين لهم» (إبراهيم: ٤).

وقد جاءت الرسالة الإسلامية الخاتمة العامة للناس جميعاً، باللسان العربى المبين، فكان خطاب الله تعالى لقوم الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ بلسانهم، حتى يتم إبلاغهم، وتقوم الحجة عليهم.

وكان رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ يتحدث إلى قومه

بلسانهم العربى ، فلم يكن فى كلامه صلى الله عليه وسلم ما يخرج عن مفهوم اللسان العربى ، فى مفرداته ، وعباراته .

فالقرآن والسنة يخاطبان الناس بلغة متعارف عليها بينهم ، ليس فيها كلمة خارجة على قانون اللسان العربى ، لسان الرسول ، وقوم الرسول . . يقول الله تعالى : « نزل به الروح الأمين على قلبك ، لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين » (الشعراء : ١٩٥) . . ويقول سبحانه : « إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » . . (يوسف : ٢) .

وبهذا اللسان ، وبتلك اللغة تحدى القرآن العرب ، أن يأتوا بسورة من مثله ، فعجزوا ، كما يقول تعالى : « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ، ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة ، أعدت للكافرين » (البقرة : ٢٣ ٢٤) .

ولو كان فى القرآن الكريم كلمات أو تراكيب ، خارجة عن مفهوم العرب ، دخيلة على لسانهم ، لما كان للقرآن حجة عليهم إذا هم عجزوا عن تحديه ، قائلين : إن هذا القرآن يتحدث إلينا بلغة غير لغتنا ، فليتوجه القرآن بهذا التحدى إلى غيرنا ، ممن يتكلمون بهذه اللغة . إنه يخاطبنا بما لا نفهم ، ويتحدث إلينا بلسان غير لساننا !!

وإذن فهذه اللغة التى تجرى على ألسنة المتصوفة ، فى صحوهم أو سكرهم ، وفى خطراتهم أو وساوسهم ، مما هو صريح فى الكفر — لا يمكن أن

يحمل على غير محامله ، ولا أن يقبل له تأويل يخرج به عن محتوى منطوقه وما يحمل هـذا المنطوق من صريح المعنى الذى تواضع عليه أهل اللسان العربى .

فالذى يقول : « أنا الله » أو « ما فى الجبة إلا الله » هو كافر ملحد بالله ، فإن كان مسلماً عد مرتداً عن الإسلام ، وأخذ بما يؤخذ به المرتدون ، كما فعل بالحلاج . الذى كان يصرح بمثل هذه العبارات التى يفيض بها قاموس أهل الوحدة ، والحلول . . لأن التصريح بمثل هذه الكلمات الإلحادية ، يشيع الفتنة فى الناس ، ويثير البلبلة فى عقيدتهم . . ومن كلمات المسيح عليه السلام : « من فمك أدينك » أى أؤاخذك بما ينطق به لسانك ، بما يفهمه عامة الناس من هذا الذى تنطق به .

وهذا التلمسانى ، المعدود من أعلام الصوفية ، وقطب من أقطابها ، يقول فى صراحة صريحة :

« القرآن كله شرك ، والتوحيد فى كلامنا »[1] .

فهل لهذا الكلام الآثم ، من محمل يحمل عليه ، غير ما تنطق به ألفاظه ؟ ثم هل يكون لقائله مكان فى المسلمين ، المؤمنين بالله ، وبكتاب الله ؟ والله تعالى يقول : « ومن يشرك بالله ، فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير ، أو تهوى به الريح فى مكان سحيق » (الحج : ٣١) . . وهل كان القرآن إلا حربا على الشرك والمشركين ؟ ألم يقل الله تعالى فى هذا القرآن : « فإذا

---

(١) من كتاب مجموعة الرسائل والمسائل ، لابن تيميه — جزء ١ — ص ١٤٢ .

انسلخ الأشهر الحرم ، فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد » (التوبة : ٦) ؟ .

فكيف يكون القرآن كله شركاً ؟ وعلى أى محمل يمكن أن يحمل هذا الكفر الصراح ؟ إن من يقول هذا ، هو مكذب لله ، ولرسوله ، كافر بالله وبرسوله..

وأكبر من هذا كفراً ، وأعظم ضلالا مايقوله التلمسانى ، وقد مر على كلب أجرب ، فقال له رفيقه ، وهو يناقشه في قوله بوحدة الوجود : أهذا - مشيراً إلى ذلك الكلب - هو ذات الله أيضاً ؟ فقال هذا الملحد : نعم . الجميع ذاته ، فما من شيء خارج عنها »[1] ! !

أما ابن عربى ، وأما تلميذه ابن الفارض ، وغيره ممن كان غذاؤه من « فصوص الحكم » لابن عربى ، فان القول بالحلول ووحدة الوجود ، يجيء في صراحة، بل ووقاحة ، مجردة من كل حياء .. حيث يكون كل شيء في هذا الوجود إلها قائما بنفسه لافرق بين إله وإله ، من تلك الآلهة التي تتمثل فى الحجر ، وفى الشجر ، وفى الحيوان ! !

وهذا من شأنه ألا يقوم معه دين ، ولا تصح معه عبادة ، لأن العابد هو المعبود ! !

يقول المستشرق « نيكلسون » فاضحاً مايترتب على القول بوحدة الوجود ، من طمس معالم الأشياء ، وذوبها فى بحر لاحدود له - يقول هذا المستشرق :

---

(١) مجموعة الرسائل لابن تيميه فى ص : ١٤٥.

« إن الإسلام يفقد معناه ، ويصبح اسما على غير مسمى ، لو أن عقيدة التوحيد المعبر عنها بـ « لا إله إلا الله » أصبح المراد بها : لاموجود على الحقيقة إلا الله . . وواضح أن الاعتراف بوحدة الوجود فى صورتها المجردة، هى قضاء تام على معالم الدين المنزل ، ومحو لهذه المعالم محوا كاملا »[1] .

ونقول : إن القول بوحدة الوجود ، فى مفهوم الصوفية هذا ، فضلاعن إفسادها لأى معتقد دينى صحيح ، هى فى الوقت نفسه ، إفساد لكل نظام إنسانى ، حيث لا يفرق الإنسان حينئذ بين الأشياء ، إذ كلها شىء واحد ، فإذا جاع من يقول بوحدة الوجود مد يده إلى حجر ، أو رمل ، أو تراب !! وإذا عطش ، فتح فمه للهواء ، أو وضع فمه على حائط ، أو غمسه فى مجرى من مجارى البول أو الغائط . . فالكل طعام ، والكل شراب ! !

وندع هذا ، لنقف وقفة مع مؤلفات بعض المتصوفة ، وما تنضح به من كفر وإلحاد ، وزندقة ، وفجور

[فصوص الحكم : لابن عربى]

ولنبدأ بكتاب « فصوص الحكم » لابن عربى ، إذ هو دين الصوفية وقرآنها الذى تتعبد به ! ! فماذا فى فصوص الحكم هذا ؟ .

ولا يتسع المقام لنقل مافى هذا الكتاب من كفر وإلحاد ، إذ الكتاب كله كفر وإلحاد ، وزندقة ، وإن كانت تندس فيه بعض العبارات ، هنا وهناك ، مما يمكن حملها على محمل حسن ، وهذا من الكيد العظيم لابن عربى ، حيث يخلط الحق بالباطل ، ليخدع بذلك الأغرار والبلهاء !

---

(١) فى التصوف الاسلامى ، لنكسون ترجمة الدكتور : ابو العلا عفيفى .

ويكفى أن نشير إلى ما جاء فى مقدمة هذا الكتاب.. وإذا كان الكتاب يقرأ من عنوانه ، فإن هذه المقدمة تنبىء فى صراحة عما يمكن أن يحمل هذا الكتاب ، من فسوق وفجور ، ومن بهتان وزور .

يقول ابن عربى ، فى مقدمة كتابه : « فصوص الحكم » :

« أما بعد ، فإنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مبشرة — أى بشرى — أريتها فى العشر الآخر من محرم ، سنة سبع وعشرين وستمائة ، بمحروسة دمشق، وبيده كتاب فقال لى : هذا كتاب فصوص الحكم : خذه واخرج به إلى الناس ينتفعون فقلت : السمع والطاعة لله ولرسوله ، ولأولى الأمر منا ، كما أمرنا ، فحققت الأمنية ، وأخلصت النية ، وجردت القصد والهمة إلى إبراز هذا الكتاب . كما حده — أى بينه — لى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من غير زيادة ولا نقصان : فمن الله فاسمعوا ، وإلى الله فارجعوا[١] » !!

فهذا القول المفترى من ابن عربى على رسول الله صلى الله عليه وسلم — هو فضيحة كبرى لشيخ الصوفية ، وخزى دامغ له ، عند الله ، وعند كل ذى عقل .

فالرسول — عليه الصلاة والسلام — قد بلغ ما أنزل إليه من ربه . كما يقول الله تعالى : « يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته » (المائدة : ٧٠) . وقد أكمل الله تعالى دينه بنزول آخر آية من كتاب الله . إذ يقول الحق سبحانه : « اليوم أكملت

---

(١) فصوص الحكم ، لابن عربى ، ص : ٤

لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا »
(المائدة : ٣) ويقول ـ صلوات الله وسلامه عليه : « تركتكم على
المحجة البيضاء، ليلها كنهارها ، لايزيغ عنها إلا هالك »[١] ويقول صلى
الله عليه وسلم : « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا : كتاب الله
وسنتي »[٢] .

فكيف يصح مع هذا أن يجيء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى
القرن السابع الهجرى إلى ابن عربى ، ويملى عليه في المنام « فصوص الحكم »
ويدعوه إلى تبليغه للناس ليعملوا به ؟ .

إن ذلك إن دل على شيء ، فإنما يدل على أمرين : من أشنع الأمور ،
إن كان لهما مدخل إلى الصدق ، فقد بطل مايدين به المسلمون من دين الله :

أولهما : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين أخلى مكانه من هذه
الدنيا لم يكن قد بلغ كل ماأمره الله تعالى به ، ثم بدا له بعدذلك أن يستأنف
رسالته ، ليبلغ مالم يكن قد بلغه . . وهذا طعن في رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، ينسحب على رسالته كلها ، وينقضها من أساسها .

وثانيهما : أن الصحابة ، والتابعين ، ومن بعدهم إلى أن ظهر ابن عربى ،
لم يكونوا على الدين الكامل ، وأن ما كانوا يعرفونه من دين الله ، ليس
هو كل دين الله . . وهذا طعن فى دين الله أولا ، وطعن فى رسوله ثانيا ،
وطعن فى دين الأمة الإسلامية كلها ثالثا .

---

(١) أورده النووى ، فى الأربعين .
(٢) رواه أصحاب السنن .

فماذا يقول المسلمون فى فصوص ابن عربى هذه التى تخرجهم من دين الله، إلا إذا تركوا القرآن ، وأقاموا « فصوص الحكم » مقامه ، وعددها ناسخاً لكتاب الله ؟ وماذا يقولون فيمن يصدق بشيء منها؟ بل ماذا يقولون فيمن يتعبدون بها ، ويقيمون دينهم عليها ؟ أيكون هؤلاء المتدينون بدين ابن عربى مسلمين ، داخلين فى الأمة الإسلامية ؟

والجواب على هذا هو مايجب أن يجيب به المسلمون: « ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حى عن بينة » (الأنفال : ٤٣) ، وهو جواب واحد ، هو أن يحرقوا كتب ابن عربى كلها ، وأولها كتابه « فصوص الحكم » وأن ينظفوا المكاتب العربية من هذا الرجس، الذى دونه فسقاً وفجوراً كتاب « رجوع الشيخ » الذى لفظ من المكتبات العربية لأول يوم ظهر فيه .

الافتراء على الله فى تأويل القرآن :

ولكى يقيم الصوفية لدينهم صلة بالإسلام ، عمدوا إلى كتاب الله ، يستشهدون بآياته ، على مقولاتهم الفاسدة ، ومدعياتهم الباطلة .. ثم يعمدون إلى تلك الآيات فيتأولونها على معتقداتهم الضالة ، حسب ماتوحيه إليهم أهواؤهم ، وما تمليه عليهم شياطينهم !!

والقرآن عند الصوفية ،هو شرك كله ، كما يقول أحد شيوخهم ،وهو التلمساني : « — القرآن كله شرك ، وإنما التوحيد فى كلامنا »[1] .

ومعنى هذا ، أن ظاهر القرآن كله شرك ، ولا يرفع عن القرآن صفة

(١) مجموعة الرسائل لابن تيمية .

الشرك ، إلا إذا أول تأويلاً باطنياً ، بعيداً عن هذا الظاهر ، وذلك هو الذى عمل من أجله المتصوفة !

وما فصوص الحكم : التى ابتدعها ابن عربى ، ونسبها إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كذباً وافتراء على رسول الله - إلا من واردات هذا القول الإلحادى الذى يقول به المتصوفة من أن القرآن كله شرك !!

فها هو ذا ابن عربى ، يتلقى - كما زعم زوراً وبهتاناً - من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هـذه الفصوص ، التى هى عنده تأويل لكتاب الله ، واستخراج الحق من باطنه ، الذى كسى ظاهره بالشرك !!

وها هو ذا ابن عربى ، حين يريد أن يقيم لوحدة الوجود سنداً من القرآن الكريم ، يأتى بقوله تعالى : « يا أيهـا الناس أنتم الفقراء إلى الله ، والله هو الغنى الحميد » (سورة فاطر : ١٥) .

والآية صريحة المعنى ، ناطقة الدلالة ، بأن الناس جميعاً مفتقرون إلى الله تعالى افتقاراً مطلقاً ، فى خلقهم وفى رزقهم ، وفى كل نفس يتنفسونه فى هذه الحياة ، وأن الله تعالى غنى غنى مطلقاً عن الناس ، وعن العالمين ، لأنه تعالى هو خالق الخلق وموجده . ومنعم عليه بهذا الوجود ، فكيف يصح أن يعود محتاجاً إلى ما صدر عنه ؟ ؟

ولكن ابن عربى ، يستملى الكفر والإلحاد من شيطانه ، الذى أملى عليه « فصوص الحكم » فيقول فى تأويل الآية الكريمة : « فوجودنا وجوده ، ونحن مفتقرون إليه من حيث وجودنا ، وهو مفتقر إلينا من حيث ظهوره

لنفسه .. فأنت غذاؤه بالأحكام ،وهو غذاؤك بالوجود ، فتعين عليه ماتعين عليك ، والأمر منه إليك ، ومنك إليه ، غير أنك تسمى مكلفاً ، وما كلفك إلا بما نظرت له : كالفنى بحالك ، وبما أنت عليه ، ولا يسمى مكلفاً .

فيحمدنى وأحمده ويعبدنى وأعبده[1]

فالكل عند ابن عربى معبود ، والكل عابد ، والكل عبد ، والكل رب .. «فوجودنا وجوده» ومعنى هذا أنه لولا وجودنا ما كان لله وجود فهل بعد هذا كفر ؟ ومن أين يستمد ابن عربى هذا الضلال ؟ إنه يحمله على كتاب الله ، بتأويله هذا التأويل الإبليسى لآية من آيات الله ، ناطقة بالتوحيد ، منزلة المخلوقين مكانهم من الخالق سبحانه ، منزلة المالك المطلق ، الذى يفعل ما يشاء فيما ملك : « والله يحكم لا معقب لحكمه » . (الرعد : ٤١) .

ويزيد ابن عربى ، هذا الضلال ضلالا ، فيقول فى فصوصه :

« فما يحد شىء — أى يعرف — إلا وهو حد الحق ، فهو — أى الله — السارى فى مسمى المخلوقات ، والمبدعات ، فهو الشاهد من الشاهد ، والمشهود من المشهود .. فالعالم صورته ، وهو روح العالم ، المدبر له ،وهو الإنسان الكبير »[2] .

هذا بعض ما يقوله ابن عربى ، فى معنى الآية الكريمة : « يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ، والله هو الغنى الحميد » .

---

(١) فصوص الحكم ، لابن عربى (جزء : ١ ص : ٨٣) طبعة الحلبى

فانظر كيف يتهجم على كتاب الله هذا التهجم العربيد؟ والله تعالى يقول : « أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه ، فتشابه الخلق عليهم ، قل الله خالق كل شيء ، وهو الواحد القهار » (الرعد : ١٦) .

وانظر فى هذا الكتاب : « هذه هى الصوفية » للمرحوم الأستاذ عبد الرحمن الوكيل ، الذى فضح فيه الصوفية ، وكشف عن وجوه ضلالها من أقوالهم ، كما يقول المسيح عليه السلام : « من فمك أدينك » فغفر الله له . وأجزل له المثوبة والرضوان .



الفصل الخامس

الكفر هو الإيمان عند الصوفية

وقد كان لوحدة الوجود التى يدين بها المتصوفة مدخلا يدخلون به من سراديبها إلى عقول كثير من الناس، حيث يصورون لهم الكفر إيمانا، والضلال هدى، والنار جنة ! !

وابن عربى ـ من غير شك ـ هو زعيم هذه العصبة الضالة، وكاشف الغطاء عن هذا الضلال المبين، الذى كانت الصوفية تتمتم به، ولا تجهر، وتورى به ولا تصرح، حتى إذا جاء شيخهم الأكبر هذا فلم يجمجم بما فى قلبه من كفر، بل صرح به، وأخرج كتبا فيه ! !

يقول ابن عربى :

عقد الخلائق فى الإله عقائدا وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه[1]

فهو مؤمن، وكافر، وملحد، ومشرك، وعابد الإله، وعابد الوثن، وعابد الكلب والخنزير ! !

وفى فصوص الحكم يقول ابن عربى .

وما الكلب والخنزير إلا إلهنا وما الرب إلا راهب فى كنيسة

ويقول، متأليا على الله تعالى أنه ينجز وعده، ولا ينجز وعيده . . فهناك الجنة ولا نار، وهناك النعيم، ولا عذاب ! ! يقول ابن عربى فى فصوصه :

---

(١) نصوص الحكم، لابن عربى ص ١١١

فلم يبق إلا صادق الوعد وحده   وما لوعيد الحق عين تعاين
وإن دخلوا دار الشقاء فإنهم   على لذة فيها نعيم مباين
نعيم جنان الخلد ، فالأمر واحد   وبينهما عند التجلى تباين
يسمى عذابا من عذوبة طعمه   وذاك له كالقشر والقشر صائن(١)

وهكذا يسوى ابن عربى بين المتناقضين : الجنة والنار ، النعيم والعذاب . فالعذاب، من العذوبة عند ابن عربى ، وأهل النار فى نعيم كنعيم أهل الجنة فلم العمل إذن ؟ ولم العبادات والطاعات ؟ ولم كانت رسالة الرسل ، وإنزال الكتب ؟ ولكن ابن عربى إذ كان مبعوثا من الشيطان لإضلال ابن آدم فقد دعا الناس إلى عصيان الله تعالى جهاراً ، ووعدهم بجنة فى نار جهنم !! .

فإذا كان ذلك الهوس هو واقع يوم القيامة ، وما ينزل أهل الإيمان فيها من منازل النعيم والرضوان ، وما ينزل أهل الكفر والإلحاد من منازل النعيم والرضوان — فلم كانت بعثة الرسل ؟ ولم اختلفت الأسماء : إيمان ، وكفر ، وجنة ونار ، وأشقياء وسعداء ؟ .

إن هذا الخلط بين الايمان والكفر ، والتسوية بين النعيم والجحيم ، يزيل صفة الحكمة عن الله تعالى ، ولا يقول بهذا إلا كافر ملحد ، لا جنة له إلا هذه النار التى يستعذب عذابها ! .

ثم نسأل ابن عربى : ماذا يقول فى قوله تعالى فى كتابه الكريم ، عن أحوال أهل النار ، وما يساق إليهم فيها من ألوان العذاب الذى يود المعذب به لو يفتدى منه نفسه وبنيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وأخيه ، وفصيلته التى تؤويه ، ومن فى الأرض جميعاً ؟ يقول الله تعالى : « يود المجرم لو يفتدى

---

(١) شرح فصوص الحكم ، لابن عربى (الفص الهودى) .

من عذاب يومئذ ببنيه ، وصاحبته وأخيه وفصيلته التى تؤويه ، ومن فى الأرض جميعاً ثم ينجيه » (المعارج : ١١ – ١٤) . .

ويقول سبحانه عن المجرم ، وهو يساق إلى النار : « خذوه فغلوه ، ثم الجحيم صلوه ، ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه ، إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ، ولا يحض على طعام المسكين ، فليس له اليوم ها هنا حميم ، ولا طعام إلا من غسلين ، لا يأكله إلا الخاطئون » (الحاقة : ١٩–٢٧)

فهل يجد ابن عربى عذوبة لهذا العذاب ، وهو يغل بسلسلة ذرعها سبعون ذراعا ، ثم يلقى به فى الجحيم ، ثم يسقى من هذا الغسلين ؟ .

وهل يلذ لابن عربى أن يتعاطى كؤوس هذا الشراب الذى يسقى به الظالمون الذين يقول الله تعالى فيهم : « إنا اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه ، بئس الشراب ، وساءت مرتفقا » (سورة الكهف : ٢٩) ؟ .

وهل يشتاق ابن عربى إلى أن يكون من أهل جهنم التى يقول الله تعالى فيها : « إن جهنم كانت مرصاداً ، للطاغين مآبا ، لابثين فيها أحقابا ، لا يذوقون فيها برداً ولا شرابا إلا حميماً وغساقا ، جزاء وفاقاً ، إنهم كانوا لا يرجون حسابا ، وكذبوا بآياتنا كذاباً ، وكل شىء أحصيناه كتابا ، فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا » (سورة النبأ : ٢١ – ٣٠) .

إن هذه النار التى يعذب بها الجن ، وهم مخلوقون من النار ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : « وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » (هود : ١١٩) . . وقوله سبحانه لإبليس لعنه الله : « قال فالحق والحق أقول ، لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين » (سورة ص ٨٤ – ٨٥) .

نقول : إن هذه النار التي تأكل الجن المخلوقين من النار ، والتي أعدها الله تعالى لإبليس وذريته جزاء لعصيانه أمر ربه ـ هذه النار ، ربما كان لابن عربي وشيعته ، وتلاميذه وحوارييه أن يروها جنة ، من جنات النعيم إذ ليس هناك عندهم فرق بين شيء وشيء . فالكل واحد في محتوى وحدة الوجود .. لقد أباح القائلون بوحدة الوجود كل شيء ، حتى نكاح البنات ، والأمهات . . إذ لا أمهات ، ولا بنات في هذه الوحدة الجامعة لكل شيء في كيان واحد ، التي سولها الشيطان للقائلين بها . .

وإذن فلا عجب أن يكيد ابن عربي لرسل الله ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ وأن يبطل الحكمة من إرسالهم بما أرسلهم الله تعالى به من هدى ، ورحمة للناس .. ثم يمعن ابن عربي في هذا الكيد لرسل الله ، فيجعل لأعدائهم المكذبين بهم والكافرين بالله ، وباليوم الآخر ـ مقام الفوز والرضوان . أما إن كان هناك حرمان من هذا الفوز وذلك النعيم ، فهو لهؤلاء الرسل ، لأنهم أضلوا أقوامهم ، حين صرفوهم عن إيمانهم بوحدة الوجود ، وحاولوا إخراجهم من تلك الوحدة ! !

فهذا ابن عربي في فصوصه ، ينتصر لقوم نوح ، ويرى أنهم كانوا على الحق : على حين أن نوحا أراد بدعوته لهم أن يفسد عليهم إيمانهم هذا ، وأن يمكر بهم مكراً يخرجهم به من النور إلى الظلام ، ومن الهدى إلى الضلال .

يقول ابن عربي في الفص النوحي من فصوصه :

« لو أن نوحا دعا قومه بين الدعوتين لأجابوه ، فدعاهم جهاراً ؛ ثم دعاهم

إسراراً(١) وثم قال لهم ، استغفروا ربكم إنه كان غفاراً » (نوح : ١٠)
وقال : إنى دعوت قومى ليلا ونهاراً ، فلم يزدهم دعائى إلا فراراً » (نوح :
٥ — ٦) . . وذكر عن قومه أنهم تصاموا عن دعوته ، لعلمهم بما يجب
عليهم من إجابة دعوته ، فعلم العلماء بالله — يقصد ابن عربى نفسه — ما أشار
إليه نوح فى حق قومه من الثناء عليهم (!!) بلسان الذم ، وعلم أنهم إنما لم
يجيبوا دعوته ، لما فيها من الفرقان والأمر قرآن لا فرقان !! ومن أقيم فى
القرآن ، لا يصغى إلى الفرقان ، وإن كان فيه ، فإن القرآن يتضمن الفرقان ،
والفرقان لا يتضمن القرآن ، ولهذا ما اختص بالقرآن إلا محمد — صلى الله عليه
وسلم — وهذه الأمة التى هى خير أمة أخرجت للناس « ليس كمثله شىء ؟ » .
يجمع الأمرين فى أمر واحد »(٢) !

ثم يمضى ابن عربى ، فى هـــذا العبث بكلام الله والتطاول على
رسله فيقول :

« فلو أن نوحا أتى بمثل هذه الآية لفظاً لأجابوه(٣) ، فإنه — أى الله
تعالى — شبه ونزه فى آية واحدة ، بل فى نصف آية .

---

(١) يخطىء ابن عربى نوحا — عليه السلام — فى اســـلوب دعوته التى دعابها قومه ، وهى قوله تعالى على لسان نوح : « قال رب انى دعوت قومى ليلا ونهارا ، فلم يزدهم دعائى الا فرارا ، وانى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا اصابعهم فى آذانهم ، واستغشوا ثيابهم ، واصروا واستكبروا استكبارا ، ثم انى دعوتهم جهارا ، ثم انى اعلنت لهم وأسررت لهم اسرارا » (سورة نوح : ٥ — ٩) .

« ونوح دعا قومه (ليلا) من حيث عقولهم، وروحانيتهم، فإنها غيب و « نهاراً » دعاهم أيضاً، من حيث ظاهر صورهم وحسهم، وما جمع في الدعوة مثل: « ليس كمثله شيء » فنفرت بواطنهم لهذا الفرقان، فزادهم فراراً، ثم قال — أي نوح — عن نفسه: إنه دعاهم ليغفر لهم[1]، لا ليكشف لهم، وفهموا ذلك منه، عليه السلام، لذلك « جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم » وهذه كلها صورة الستر التي دعاهم إليها!! فأجابوا دعوته بالفعل، لا بلبيك ... ففي « ليس كمثله شيء » إثبات المثل ونفيه، وبهذا قال عن نفسه — أي محمد — صلى الله عليه وسلم» : إنه أوتي جوامع الكلم » فما دعا محمد قومه ليلا ونهاراً، بل دعاهم ليلا في نهار، ونهاراً في ليل!! فقال نوح في حكمته لقومه: « يرسل السماء عليكم مدراراً » (نوح: ١١) وهي المعارف العقلية في المعاني، والنظر الاعتباري « ويمددكم بأموال » أي بما يميل بكم إليه — أي إلى الله — فاذا مال بكم إليه، رأيتم صورتكم فيه، ومن عرف منكم أنه رأى نفسه، فهو العارف، ولهذا انقسم الناس إلى غير عالم، وعالم.

« ومكروا مكراً كبارا » لأن الدعوة إلى الله تعالى مكر بالمدعو، لأنه — أي الله — ما عدم من البداية، فيدعى إلى الغاية!!

« ومكروا مكراً كبارا، وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعا، ولا يغوث ويعوق ونسراً » (نوح: ٢٢ - ٢٣) .. فقالوا في مكرهم

---

(١) تأول ابن عربى الغفر، بمعنى الستر، والمراد فى الآية غفران الذنوب وسترها، اذا هم آمنوا بالله .

إنهم إذا تركوهم - أى تركوا عبادة هذه الأوثان - جهلوا من الحق ، على قدر ما تركوا من هؤلاء ، فإن للحق فى كل معبود وجهاً ، يعرفه من عرفه، ويجهله من جهله .

ثم يقول ابن عربى :

« وفى المحمديين - أى فى أمة محمد - صلوات الله وسلامه عليه : «وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه » (الإسراء : ٢٣) - أى حكم ، فالعالم يعلم من عبد ، وفى أى صورة ظهر حتى عبد ، وإن التفريق والكثرة كالأعضاء فى الصورة المحسوسة وكالقوى المعنوية فى الصورة الروحانية .. فما عبد غير الله فى كل معبود !!

ثم يقول ابن عربى فى قوم نوح :

« وقد أضلوا كثيراً » (نوح : ٢٣) . . أى حيروهم فى تعداد الواحد بالوجود والنسب : « ولا تزد الظالمين » لأنفسهم المصطفين الذين أورثوا الكتاب فهم أول الثلاثة[1] .. فقدمه على المقتصد ، والسابق » .

---

(١) يشير ابن عربى الى هذه الاصناف الثلاثة الذين اورثهم الله تعالى الكتاب ، وذلك فى قوله تعالى : « ثم اورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات باذن الله » (فاطر : ٣٢)

فانظر الى ابن عربى كيف تأول هذه الآية الكريمة بما أملاه شيطانه .

أى أن الله تعالى قدم الظالم الذى قصر فى حق نفسه ، على المقتصد والسابق ، والله تعالى يقول : « والسابقون السابقون ، أولئك المقربون ، فى جنات النعيم ، ثلة من الأولين ، وقليل من الآخرين » .
(الواقعة : ١٠ — ١٣) ..

فبأى ميزان شيطانى يزن ابن عربى أقدار الناس ، فيقدم المتأخر ، ويؤخر المتقدم ؟

ثم يقول ابن عربى ، فى حديثه عن قوم نوح :

« ولا تزد الظالمين إلا ضلالا » (نوح : ٢٤) .. أى إلا حيرة المحمدى « زدنى تحيراً فيك » ، « كلما أضاء لهم مشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم قاموا » (البقرة : ٢٠) . . فالحائر له الدور ، والحركة الدورية ، حول القطب ، فلا يبرح منه .. وصاحب الطريق المستطيل مائل خارج عن المقصود ، طالب ما هو فيه ، صاحب خيال إلى غايته ، فله : « من ، وإلى » وما بينهما . . وصاحب الحركة الدورية لا بدء له ، فيلزمه « من » ولا غاية له ، فتحكم عليه « إلى » ، الوجود الأتم وهو المؤتى جوامع الكلم والحكم » !!

ثم يقول ابن عربى فى قوم نوح أيضاً :

« مما خطيئاتهم أغرقوا » فهى — أى الخطيئات — هى التى خطت بهم فغرقوا فى بحار العلم بالله ، وهو الحيرة « فأدخلوا ناراً » أى فى عين الماء وفى المحمديين : « وإذا البحار سجرت » (التكوير : ٦) . . سجرت التنور إذا أوقدته « فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً » (نوح : ٢٥)

فكان الله عين أنصارهم فهلكوا فيه ـ أى فى الله ـ إلى الأبد ، فلو أخرجهم إلى السيف ، سيف الطبيعة ـ لنزل بهم عن هذه الدرجة الرفيعة ، وإن كان الكل لله ، وبالله ، بل هو الله ! .

« قال نوح رب » ماقال : إلهى ، فإن الرب له الثبوت ، والإله يتنوع بالأسماء ، فهو كل يوم هو فى شأن ، فأراد بالرب ثبوت التكوين ، إذ لا يصح إلا هو . .

« لا تذر على الأرض » يدعو عليهم ـ نوح ـ أن يصيروا فى بطنها المحمدى « ولو دليتم بحبل لهبط على الله » (!!) له مافى السموات وما فى الأرض ، وإذا دفنت فيها ، فأنت فيها ، وهى ظرفك ، « وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى » (طه : ٥٥) لاختلاف الوجوه . .

« لاتذر على الأرض من الكافرين » أى الذين استغشوا ثيابهم ، وجعلوا أصابعهم فى آذانهم طلبا للستر ، لأنه ـ أى نوح دعاهم ليغفر لهم ، والغفر الستر « دياراً » أى أحداً ، حتى تعم المنفعة ، كما عمت الدعوة !! .

« إنك إن تذرهم » أى تدعهم وتتركهم « يضلوا عبادك » فيخرجوهم من العبودية ، إلى مافيهم من أسرار الربوبية ، فيرون أنفسهم أربابا ، بعد ما كانوا عند أنفسهم عبيداً ، فهم العبيد الأرباب !! .

« ولا يلدوا » أى ماينتجون ، ولا يظهرون « إلا فاجراً » أى مظهراً ما ستر « كفارا » أى ستارا ما ظهر بعد ظهوره ، فيظهرون ماستر ، ثم يسترونه بعد ظهوره ، فيحار الناظر ، ولا يعرف قصد الفاجر فى فجوره ، ولا الكافر فى كفره ، والشخص واحد !! »[1] .

---

(١) فصوص الحكم ، لابن عربى (الفص النوحى) .

هذا ماقاله ابن عربى فى فصوص حكمه ، وذلك فى تفسير سورة نوح ، وما كان بين نوح وقومه ، حيث جعل من إرسال الله تعالى نوحا إلى قومه فتنة لهم ، وإضلالا .

فإلى الذين يتمسحون بأذيال ابن عربى ، ويتنسمون أنسام نفحاته وبركاته ويرجون شفاعته لهم يوم القيامة . . وإلى الذين يتعبدون بفصوص حكمه ، وبالفتوحات المكية ، وبديوان شعره ، وغير ذلك من مخلفاته — إلى هؤلاء وأولئك — من الأحياء — نقول لهم : انظروا فيما أنتم فيه ، مما امتلأت به رؤوسكم من مخلفات ابن عربى ، ثم ردوا هذا إلى كتاب الله ، وإلى سنة رسول الله ، وما كان عليه الصحابة والتابعون من أخذهم بالكتاب والسنة ، فى عباداتهم ومعاملاتهم — فإن وجدتم شيئا مما يقوله ابن عربى يستند إلى صريح كتاب الله وسنة رسوله ، وسيرة صحابته ، فاقبلوه وإلا فردوه . واطلبوا السلامة لأنفسكم مما أنتم فيه ، إلا فاقطعوا صلتكم بالإسلام ، ولا تقولوا إنكم مسلمون ، بل قولوا إنكم صوفيون على دين ابن عربى ، ومن كان على شاكلته !!

ومع هذا ، فإنا نقف معكم وقفة فيما تلقناه من فصوص الحكم لابن عربى ، وما جاء منها فى الفص النوحى ، ونسألكم : ماقولكم فى تأويل شيخكم لآيات القرآن الكريم ، على هذا النحو الذى سقناه من قوله فى قوم نوح ، وقول الله تعالى فيهم : « مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا » إن شيخكم يقول فى هذه الآية : إن خطيئاتهم هى التى خطت بهم ، فغرقوا فى بحار العلم بالله فأدخلوا ناراً فى عين الماء « فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا » فكان الله عين أنصارهم ، فهلكوا فى الله إلى الأبد ! ؟ وماذا

تقولون ياشيعة ابن عربى فى هذا الذى يقوله شيخكم فى تأويل هذه الآية ؟
ثم ماذا تقولون فى قول الله تعالى لنوح : « وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ، فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ، واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبنى فى الذين ظلموا إنهم مغرقون ، ويصنع الفلك ؛ وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ، قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون ، فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ، ويحل عليه عذاب مقيم » (هود : ٣٦ — ٣٩) . فهل هذا الغرق لقوم نوح كان غرقا فى بحر حب الله ؟ وهل كان هذا العذاب الذى توعد الله تعالى به قوم نوح هو العذب من النعيم والرضوان كما يقول شيخكم ؟ .

ثم لماذا كان إرسال الله تعالى نوحا إلى قومه ، إذا كانوا من أولياء الله ومن الغارقين فى حبه ؟ أكان ذاك لإضلال القوم ، ولإخراجهم مما هم فيه من معرفة بالله تعالى وقرب منه ؟ أفهذا يليق بحكمة الحكيم العليم ، رب العالمين ؟ .

وماذا تقولون فى قول شيخكم الأكبر فى قوله تعالى عن قوم نوح : « ومكروا مكراً كبارا ، وقالوا لاتذرن آلهتكم ، ولا تذرن ودا ولا سواعا ، ولا يغوث ويعوق ونسرا » ؟ .

يقول شيخكم : فقالوا فى مكرهم ، إنهم إذا تركوهم — أى تركوا عبادة هذه الأوثان — جهلوا من الحق على قدر ما تركوا من هؤلاء — أى الأصنام — فإن للحق فى كل معبود وجها ، يعرفه من عرفه ، ويجهله من جهله » ؟ .

فهل عبادة هذه الأصنام ، هى عبادة لله ؟ ولم إذن دمغ الله تعالى

بالكفر من عبدوا المسيح ، أو عبدوا الملائكة ؟ ألم يقل الله تعالى فى عباد المسيح من النصارى : « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم » (المائدة : ٧١) . .

وألم يقل سبحانه : « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ، وما من إله إلا الله واحد ، وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم » . (المائدة : ٧٣) ؟ وألم يقل الحق سبحانه : « ومن يشرك بالله ، فكأنما خر من السماء ، فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق » (الحج : ٣١) ؟

فكيف تكون عبادة غير الله عبادة لله ؟ وكيف يكون لله تعالى فى كل معبود وجها يتجلى فيه ؟ .

إن هذه المنكرات من قلب الحقائق ، وجعل الظلام نوراً ، والضلال هدى فى تأويل كلام الله ، وإبطال ما جاء به من الحق لهداية الناس ، وإخراجهم من الظلمات إلى النور ، كما يقول تعالى : « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم الى صراط العزيز الحميد ، الذى له ما فى السموات وما فى الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد » (ابراهيم : ١ — ٢) — إن هذه المنكرات التى يذيعها ابن عربى فى الناس ، قد حملت كثيراً من أئمة المسلمين على رميه بالكفر ، على ما فى هذا من المجازفة والمخاطرة ، ولكن ذلك كان أمراً واجباً على هؤلاء الأئمة ، لتحذير الناس من الوقوع فى الكفر الذى يزينه لهم .. وإنه لإهدار دم واحد من الناس ، لصيانة دم مئات ألوف الألوف منهم ، ممن يتهددهم

هذا الخطر الزاحف عليهم من ابن عربى — هو شريعة من شريعة الإسلام ، بلى دعوة من دعوات أولى العقل والرشاد ، لصيانة الجماعة من دعوات المفسدين وضلالات الضالين ! !

وليس يقبل فى مثل هذا المقام ، الذى يتصل بالدين ، بل وبالأصل الأول منه وهو التوحيد ، أن يكون للكلام فيه ، ظاهر وباطن ، وأن يقام للمتكلم عذر بأن لكلامه مفهوماً باطنياً ، غير ما تدل عليه اللغة فى مفاهيم ظاهرها ، ففى هذا تلبيس على الناس ، وإهدار للغة الخطاب بينهم ، وإبطال لكتاب الله المنزل بلسان عربى مبين . .

قال الإمام زين الدين العراقى عن أن معميات ابن عربى وألغازه : « وأما قوله — أى ابن عربى — فهو — أى الله — عين ما ظهر ، وعين ما بطن » فهو كلام مسموم ظاهره ، كالقول بالوحدة المطلقة ، وأن جميع المخلوقات هى عين الله . . . ويدل على إرادته ذلك صريحاً قوله — أى ابن عربى — قبل ذلك ، « وهو — أى الله — هو المسمى أبا سعيد الخراز ، وغير ذلك من أسماء المحدثات » وكذا قوله بعد ذلك : « والمتكلم واحد ، وهو عين السامع » ... ثم يعلق العراقى على ذلك بقوله : والقائل ذلك والمعتقد به كافر بإجماع العلماء ، ولا يقبل ممن اجترأ على هذه المقالات القبيحة ، أن يقول : أردت بكلامى هذا خلاف ظاهره ، ولا نؤول له كلامه ، ولا كرامة »[1] .

ويقول العلامة علاء الدين على بن إسماعيل القنوى ، حين سئل عن شيء من هذا الكلام المعمى ، وما يتأوله عليه المتأولون يقولون :

---

(١) من كتاب مصرع التصوف لبرهان الدين البقاعى ، تحقيق عبد الرحمن الوكيل — ص : ٦٦ .

« إنما تؤول – كلام من ثبتت عصمته – وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم – حتى نجمع بين كلاميه : لعدم جواز الخطأ عليه ، وأما من لم تثبت عصمته ، فجائز عليه الخطأ ، والمعصية والكفر ، فنؤاخذه بظاهر كلامه ، ولا يقبل منه ما أول عليه كلامه ، مما لا يحتمله ، أو مما يخالف الظاهر ، وهذا هو الحق »[١] .

ويقول الغزالى ، فى أول كتابه « إحيـــاء علوم الدين » وهو من المتعاطفين مع الصوفية ، الرافعين لأقدارهم بين الناس : « إن الكلام إن كان ظاهراً فى الكفر بالاتحاد ، فقتل واحد ممن يقول به أفضل من إحياء عشرة أنفس ... وإن كان فهم كلامه مشكلا ، فلا يحل ذكره ... إن الألفاظ إذا صرفت عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام بنقل عن صاحب الشرع ، وبغير ضرورة تدعو إلى ذلك ، من دليل العقل ، اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ ... والباطن لاضبط له ، بل تتعارض فيه الخواطر . . وبهذا الطريق توصل الباطنية إلى هدم جميع الشريعة ، بتأويل ظواهرها ، وتنزيلها على رأيهم »[٢] .

وهذا شأن ابن عربى ، وشأن كثير من شيوخ الصوفية ، الذين تنطق عباراتهم بالكفر الصراح ، ومن ثم فانه يحكم بكفر من كان على هذا الطريق فى ظاهر كلامه .

ويقول الغزالى :

« وأما الشطح ، فنعنى به صنفين من الكلام ، أحدهما بعض الصوفية :

---

(١) المصدر السابق – ص : ٦٦ – ٦٧

(٢) احياء علوم الدين ، للغزالى – جزء اول – ص ٣٦ – ٣٧ طبعـــة الحلبى .

أحدهما الدعاوى الطويلة العريضة فى العشق مع الله تعالى ، والوصال المغنى عن الأعمال الظاهرة ، حتى ينتهى قوم إلى دعوى الاتحاد ، وارتفاع الحجاب والمشاهدة بالرؤية والمشافهة بالخطاب ، فيقولون : قيل لنا كذا ، وقلنا كذا ويتشبهون فيه بالحسين بن منصور الحلاج ، الذى صلب لأجل إطلاقه كلمات من هذا الجنس ، ويستشهدون بقوله « أنا الحق » ، وبما حكى عن أبى يزيد البسطامى أنه قال : سبحانى ، سبحانى . . وهذا فن من الكلام عظيم ضرره فى العوام ، حتى ترك جماعة من أهل الفلاحة فلاحتهم ، وأظهروا مثل هذه الدعاوى ، فان هذا الكلام يستلذه الطبع إذ فيه البطالة من الأعمال مع تزكية النفس بدرك المقامات والأحوال ، فلا تعجز الأغبياء عن دعوى ذلك لأنفسهم ، ولا عن تلقف كلمات مخبطة مزخرفة . . ومهما أنكر عليهم ذلك لم يعجزوا عن أن يقولوا : هذا إنكار مصدره العلم والجدل ، والعلم حجاب ، والجدل عمل النفس ، وهذا الحديث — أى الذى يتحدث به المتصوفة لا يلوح إلا من الباطن ، بمكاشفة نور الحق كما يزعمون[1] .

« فهذا ومثله ، قد استطار فى البلاد شرره ، وعظم فى العوام ضرره حتى إن من نطق بشىء منه ، فقتله أفضل فى دين الله من إحياء عشرة ! !

ثم يقول الغزالى :

والصنف الثانى من الشطح ، كلمات غير مفهومة ، لها ظواهر رائقة ، وفيها عبارات هائلة ، وليس وراءها طائل ، وذلك لأنها إما أن تكون غير

---

(١) فماذا يقول المتصوفة عن شطحاتهم ، وما حكم به الغزالى عليهم ، وهو من أهل التصوف ؟

مفهومة عند قائلها ، بل يصدرها عن خبط فى عقله ، وتشويش فى خياله ، لقلة إحاطته بمعنى الكلام ، وهذا هو الأكثر ، وإما أن تكون هذه الشطحات مفهومة لقائلها ، ولكنه لا يقدر على تفهيمها وإيرادها بعبارة تدل على ما فى ضميره . . ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام ، إلا أنه يشوش القلوب ، ويدهش العقول ، ويحير الأذهان ، أو يحمل على أن يفهم منه معان ما أريدت منه . . وقد قال — صلى الله عليه وسلم : « كلموا الناس بما يفهمون ، ودعوا ما ينكرون ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله[1] » (رواه البخارى) .

فماذا تقولون يا أهل التصوف فى هذا القول الذى يقوله شيخ كبير من شيوخ التصوف ، لم يقبل عقله الذكى ، وعلمه الغزير أن يكون الشطح الذى هو مورد المتصوفة : على نسب قريب أو بعيد من دين الله ؟

ويقول برهان الدين البقاعى فى خطبة كتابه : « مصرع التصوف » :

« وبعد ، فانى لما رأيت الناس مضطربين فى ابن عربى ، المنسوب إلى التصوف ، الموسوم عند أهل الحق : بالوحدة ـ أى القول بوحدة الوجود ـ ولم أر من شفى القلب فى ترجمته ، وكان كفره فى الفصوص ، أظهر منه فى غيره — أحببت أن أذكر منه ما كان ظاهراً ، حتى يعلم حاله ، ويهجر مقاله ويعتقد انحلاله وكفره وضلاله ، وأنه إلى الهاوية مآبه ومآله ، امتثالا لما رواه مسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ، أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فان لم يستطع فبلسانه ، فان لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان)[2] .

(١) من صحيح البخارى .
(٢) صحيح مسلم .

وما طال وقوفنا مع ابن عربى ، والكشف عن كيده العظيم للاسلام ، إلا لأنه عند الصوفية الباب الواسع الذى يدخلون منه إلى التصوف ، ليستظلوا بظل قطبيته ، فما هو إلا فرعونهم الذى يقودهم إلى ما هو مساق إليه « يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار ، وبئس الورد المورود » (هود : ٩٩) .

وإن ابن عربى لأشد ختلا ، وخداعاً من إبليس ، فهو إذ يورد الناس على موارد ضلاله وكفره وإلحاده ، بما يصرح به من كفر وإلحاد — إنه إذ يورد الناس هذا المورد الوبيل المهلك ، يذكر الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم — ويذكر الصلاة على رسل الله عليهم السلام ، كلما أجرى لهم ذكراً فى حديثه ، وذلك ليظن به أنه مؤمن بالله ، وبرسل الله ، وما هو إلا كافر بالله ، وبرسل الله الذين يرى أنهم مضللون لأقوامهم ، حائدون بهم عن التوحيد الخالص الذى يتمثله فى وحدة الوجود ، حيث لا رب ولا مربوب ، ولا إله ولا مألوه ، ولا عبد ولا معبود ، إذ الكل كيان واحد ، والوجود إنسان كبير !

وهل يقبل قول من ابن عربى ، وإن طلاه بدهان الختل والخداع ، وهو يصرخ بالكفر والزندقة فى غير حياء ؟ فها هو ذا يقول فى فصوص حكمه : « فاياك أن تتقيد بعقد مخصوص ، وتكفر بما سواه ، فيفوتك خير كثير ، بل يفوتك الأمر على ما هو عليه ، فكن فى نفسك هيولى — أى قابلا كل معتقد — لصور المعتقدات كلها ، فان الله تعالى أوسع وأعظم من أن يحصره عقد دون عقد ، فانه يقول : « فأينما تولوا فثم وجه الله » (البقرة : ١١٥) « فالكل مصيب ، وكل مصيب مأجور ، وكل مأجور سعيد ، وكل سعيد

مرضى عنه » (فصوص ابن عربى ص ١١٣) وصريح معنى هذا الكلام أن يدين الإنسان بكل دين ، فيعبد الشيطان ، أو الكلب ، أو الخنزير ، لأن الله فى زعم هذا الملحد ، هو فى كل كائن من هذه الكائنات ! !

وإنه ندر أن يخلو كتاب من كتب المتصوفة من تأويل آيات من كتاب الله ، تأويلا باطنياً ، يخرج بها عن مفاهيم اللغة التى نزل القرآن بها ، إلى معميات ، وألغاز ، وإلى كفر وإلحاد ، واتحاد ، وحلول . . وهذا باب واسع من أبواب الفتنة ، والتغرير ، والتلبيس على المسلمين ، حيث يقع فى ضلالها وبطلانها من يطلع عليها ، من غير أهل العلم فيغرقون فى بحور الضلال ، وإن الذى تولى كبر هذا الجرم الغليظ هو ابن عربى ، الذى جزم كثير من علماء المسلمين الأعلام بتكفيرة متحملين تبعة هـذا الحكم فى موقف الحساب بين يدى الله تعالى ، تبرئة لذمتهم ، فيما يجب عليهم من النصح لله ولرسوله ، ولكتابه ، ولأئمة المسلمين وعامتهم .

ومن هؤلاء الأعلام الذين صرحوا بكفر ابن عربى . العلامة جمال الدين ابن هشام ، صاحب المغنى . . فقد كتب ابن هشام على نسخة من فصوص ابن عربى :

هذا الذى بضلاله ضلت أوائل مع أواخر

من قال فيه غير ذا فليناً عنى ، فهو كافر

« هذا كتاب فصوص الظلم ، ونقيض الحكم ، وضلال الأمم .. كتاب يعجز الذم عن وصفه ، قد اكتنفه الباطل من بين يديه ومن خلفه ، لقد ضل

مؤلفه ضلالا بعيداً ، وخسر خسراناً مبيناً ، لأنه مخالف لما أنزل الله به رسله ، وأنزل كتبه ، وفطر عليه خليقته »[1].

وممن كفر ابن عربى ، العلامة ابن خلدون .. يقول ابن خلدون :

« إن طريق التصوف منحصر فى طريقتين :

« الأولى طريقة السنة ، طريقة السلف الجارية على الكتاب والسنة ، والاقتداء بالسلف الصالح من الصحابة والتابعين .

والطريقة الثانية ، وهى مشوبة بالبدع ، وهى طريقة قوم من المتأخرين يجعلون الطريقة الأولى ، وسيلة إلى كشف حجاب الحس ، لأنها من نتائجها ، ومن هؤلاء المتصوفة ابن عربى ، وابن سبعين ، وابن برجان وأتباعهم ، ممن سلك سبيلهم ، ودان بنحلتهم ، ولهم تواليف كثيرة يتداولونها ، مشحونة بالكفر ، ومستهجن البدع ، وتأويل الظاهر لذلك على أبعد الوجوه وأقبحها مما يستغرب الناظر فيها نسبتها إلى الملة ؛ أو عدها فى الشريعة .

ثم يقول ابن خلدون مبيناً ما يجب أن يكون من المؤمنين إزاء هذه الكتب : « وأما حكم تلك الكتب المتضمنة لتلك العقائد المضلة وما يوجد من نسخها بأيدى الناس ، مثل الفصوص ، والفتوحات المكية لابن عربى واليد لابن سبعين ، وخلع النعلين لابن قسى — فالحكم فى هذه الكتب وأمثالها ، إذهاب أعيانها متى وجدت بالتحريق بالنار ، والغسل بالماء ، حتى ينمحى أثر الكتاب ، لما فى ذلك من المصلحة العامة فى الدين . .

---

(١) من كتاب مصرع التصوف ، لبرهان الدين البقاعى ص : ١٦٥

فيتعين على ولى الأمر ، إحراق هذه الكتب ، دفعاً للمفسدة العامة ، ويتعين على من كانت عنده التمكين من إحراقها » (مصرع التصوف لبرهان الدين البقاعى ص ١٦٧ - ١٦٨) .

فهذه آراء علماء أجلاء من علماء السنة فى شيوخ المتصوفة ، وفى مؤلفاتهم .. ومع هذا فإن التصوف يتمشى فى محيط المسلمين كما يتمشى السرطان فى الجسد ، ولا شعور من علماء الإسلام بهذا الخطر الداهم .. فلا حول ولا قوة إلا بالله .

الصوفية والكذب على رسول الله :

لم يكتف المتصوفة أن يتأولوا القرآن الكريم هذا التأويل الفاسد الذى يغذون به أهواءهم ، ويتابعون فيه دعوة شياطينهم - لم يكتف المتصوفة بهذا بل حاولوا جاهدين أن يشوهوا صورة رسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - وأن يخرجوا رسول الله من عالم البشر ، ويرتفعوا به إلى مقام الذات الإلهية ليكون فى وحدة مع ذات الله !

وهذا الكيد العظيم من الصوفية لدين الله ، ولرسول الله - إنما يريدون به أن يحققوا أمرين :

أولهما : القول بوحدة الوجود ، وإقامة الحجة على من ينكروها من المسلمين ، وذلك حين يشرفون عليهم برسول الله - صلوات الله وسلامه عليه - وهو بشر فى مرأى العين ، ثم هو ممازج لله ، مشارك له فى سلطانه جل وعلا .

وإذن ، فإنه إذا صح هذا فى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أمكن أن يصح فى أوليـــاء المتصوفة — ثم صح بعد هذا فى كل مخلوق ، حيث يتحد الجميع مع الله ، وإذا الجميع آلهة .. لافرق بين إنسان ، وحيوان، ونبات ، وجماد ! !

وثانيهما : القول بتصور الوحدة ، بأنها أشبه بالجسد الواحد فى النظرة المجملة ، فإذا نظر إليها من باب التفصيل ، كان منها ما يشبه الرأس ، ومنها ما يشبه العينين ، ومنها ما يشبه اليدين ، ومنها ما يشبه الرجلين .. وهكذا .

ومن هذا صح ـ عند المتصوفة ـ القول بالقطب الأكبر : والأوتاد ، والأبدال وغير ذلك من طبقات الصوفية المتحكمين فى هذا الوجود ! !

يقول شيخ الصوفية الأكبر ابن عربى ، فى وصفه لرسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن محمداً صلى الله عليه وسلم ، لما أبدعه الله سبحانه وتعالى حقيقة مثلية ، وجعله نشأة كلية ، حيث لا أين ولا بين ، قال له : أنا الملك وأنت الملك ، وأنا المدبر وأنت الفلك ، وسأقيمك فيما يتكون عنك ، سايساً ومدبراً ، وناهياً وآمراً ، تعطيها مما قد أعطيتك ، وتكون فيها كما أنا فيك[1] . فلست سواك ، كما لست سواى ، فأنت صفاتى فيهم وأسمائى . فتفصد .. أى محمد ـ عرقاً ، حياء ، فكان ذلك العرق الطاهر ماء ، وهو الماء الذى نبأ به الحق تعالى فى صحيح الأنباء ، فقال سبحانه « وكان عرشه على الماء » ! !

---

(١) هذه ضلالة من ضلالات القول بالحلول ، وهى من ضلالات النصارى فى المسيح بن مريم ، عليه السلام .

ثم يمضى ابن عربى فى هذا الكفر ، فيقول :

« ثم انبجست منه صلى الله عليه وسلم عيون الأرواح ، فظهر الملأ الأعلى وهو بالمنظر الأجلى ، فكان صلى الله عليه وسلم الجنيس العالى لجميع المخلوقات والأب الأكبر لجميع الموجودات ، والناس !!

« فخلق الله من ذلك النور المنبعث منه صلى الله عليه وسلم ، العرش ، وجعله مستواه ، وجعل الملأ الأعلى وغيره محتواه »[١] .

وهكذا يمضى ابن عربى فى هذا الكيد العظيم لنبى الإسلام ، وشريعة الإسلام ، حتى يخرج الرسول الكريم من عالمنا البشرى الذى عاش فيه معنا ، وعشنا فيه معه بشراً سوياً ، تتمثل فيه الصورة الإنسانية الكريمة التى يسعى أهل الفضل والعقل منا إلى أن يتعلقوا بها ، ويتبعوا آثارها ، كما يقول الله تعالى : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ، لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيراً » (الأحزاب : ٢١) وكما يقول سبحانه : « يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً » (الأحزاب : ٤٥ — ٤٦) .

فالرسول عليه الصلاة والسلام ، واحد من رسل الله الكرام ، وإن كان أفضلهم ، وهو رجل من رجالات قومه ، ولد لأبوين معروفين فى قومه ونشأ بينهم كانسان من الناس ، لم ينكروا شيئاً منه ، وإن كان أصدقهم قولا ، وأكرمهم نفساً ، وأعظمهم خلقاً . والله تعالى يقول مخاطباً رسوله

---

(١) من كتاب « عنقاء مغرب » لابن عربى . ص : ٤٠

الكريم : « قل ما كنت بدعاً من الرسل وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحى إلى ، وما أنا إلا نذير مبين » (الأحقاف : ٢٩).

ويقول له سبحانه : « قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا » (الإسراء : ٩٣).

ويقول تعالى مخاطباً له : « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ، أفإن مت فهم الخالدون » (الأنبياء : ٣٤) .. بل إن الله تعالى نعى الرسول الكريم ، وهو حى بين صحابته ، حتى لا يروه خارجاً عن سنن الله تعالى فى خلقه ، فقال تعالى : « إنك ميت ، وإنهم ميتون » (الزمر : ٣٠) .. فماذا يقال عن محمد صلى الله عليه وسلم غير هذا الذى نطق به القرآن الكريم من أنه صلى الله عليه وسلم بشر من البشر ؟ بل ماذا يقال عن محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو يقول عن نفسه : « أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد » ويقول : « إنما أنا عبد ، آكل كما يأكل العبد » ، ويقول : « لا تطرونى كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم ، ولكن قولوا عبد الله ، ورسول الله » ؟ ولكن هكذا يدعو الشيطان أولياءه إليه ، ويرسلهم شياطين فتنة وإضلال للناس ، فى صورة العباد الزاهدين ، وفى عباءات وعمائم المتصوفين .

إن رسول الله ، كما يتحدث عنه القرآن الكريم : هو بشر يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق .. ولو شاء الله لجعل الملائكة رسلا ، ولكن الله تعالى يقول : « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ، وللبسنا عليه ما يلبسون » (الأنعام : ٩) .. ولقد خيل الشيطان لابن عربى هذا الضلال ، فضل وأضل : « وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم ، إن ربك هو أعلم بالمعتدين »

(الأنعام : ١١٩) ، فخرج هذا الشيطان على المسلمين بتلك الدعاوى الكاذبة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا مستند لها من كتاب أو سنة ، ولكنها من مغويات شيطان ، فقال عن رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا القول الآثم الذى يرفعه إلى مقام الألوهية مع الله ، وهو يعلم أن العامة تصغى إلى مثل هذا القول الذى يمجد رسول الله ، دون أن تميز بين حق وباطل ، بل إن العامة ليقبلون كل ما يقال عن رسول الله ، فى مقام المدح والتمجيد ، ولو بلغ ذلك إلى مقام الألوهية . . وذلك هو الكيد العظيم الذى كان من مكايد ابن عربى عن « الحقيقة المحمدية » وما يحمل هذا الكيد من كفر وشرك ، وإلحاد .

ويقول أحد شيوخ الصوفية ، وهو « الدباغ » فى الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورسول الله براء من إفك الأفكين ، وافتراء المفترين يقول :

« إعلم أن أنوار المكنونات كلها عرش وفرش ! ! وسماوات وأرضين ، وجنات وحجب[1] وما فوقها وما تحتها ، إذا جمعت كلها ، وجدت بعضاً من نور النبى ، وأن مجموع نوره صلى الله عليه وسلم - لو وضع على العرش لذاب ! ولو وضع على الحجب السبعين التى فوق العرش ، لتهافتت ! ! ولو جمعت المخلوقات كلها ، ووضع ذلك النور العظيم ، لتهافتت ، وتساقطت »[2] .

فماذا بقى لله تعالى ، ونور محمد لو سلط على عرشه لذاب ؟ وهل يبقى الله إذا ذهب العرش ؟ وهل يكون ملك بغير ملك . أو سلطان بغير عرش ؟

---

(١) لم يذكر هذا الصوفى النار ، فيما يذكر من عوالم المخلوقات ، لأن الصوفية لا يؤمنون بنار الآخرة ، لأنها عندهم جنة من جنات النعيم .

(٢) كتاب الابريز للدباغ ، جزء ٢ ص : ٨٤ .

ثم استمع إلى أحد شيوخهم ، وهو أحمد عبد المنعم الحلوانى ، يقول :

أنشاك نوراً ساطعاً بين الورى فرداً أفرد والبرية فى العدم

ثم استمد جميع مخلوقاته من نورك السامى ، فيا عظيم الكرم

جدلى ، فإن خزائن الرحمن فى يدك اليمين، وأنت أكرم من قسم (١)

فانظر كيف يحتاج الله تعالى ، إلى أحد من خلقه – وإن كان أكرم خلقه – فيستمد منه جميع ما خلق ، فلا يخلق شيئاً إلا إذا طلب المدد من رسول الله ! ! وأين سلطان الله ، وقد وضع خزائن ملكه فى يد بشر مخلوق له ؟

وهذا مدخل إلى ما تدعو إليه الصوفية من طلب المدد من شيوخها ، وأوتادها وأبدالها ، والراقدين تحت أضرحتها ! !

لقد أضرب القوم صفحاً عن كل ما جاء به القرآن الكريم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم – وأنه بشر من البشر ، وخلق من خلق الله ، ورسول من رسله المصطفين لهداية الناس . . والله تعالى يقول لرسوله الكريم : « قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم » (الأحقاف : ٩) ويقول سبحانه على لسانه صلى الله عليه وسلم : « قل إنما أنا بشر مثلكم ، يوحى إلى » (الكهف : ١١١) . . ويقول على لسانه أيضاً فى «قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا » (الإسراء : ٩٣) . . ويقول جل شأنه :

---

(١) هذا الحلوانى من متصوفة هذا الزمان فى القاهرة ، وكل اشعاره ومقالاته من هذا الخلط العجيب بين الكفر والالحاد .

« وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » (آل عمران : ١٤٤) . . بل إن الله تعالى نعى محمداً إلى الناس، وهو حى بين أظهرهم ، فقال تعالى : «إنك ميت وإنهم ميتون» الزمر:٣٠)، ويقول عنه تعالى : « ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين » (الحاقة : ٤٧) .

فهذا رسول الله — صلى الله عليه وسلم — كما تحدث عنه القرآن . ليس له مع الله أمر ، ولا حكم ، فهو واقع تحت مشيئة الله ، وحكمه : « قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ، وما مسنى السوء ، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » (الأعراف : ١٨٧) .

ولكن هكذا يزين الشيطان لأوليائه ، فيسلمون قيادهم له : « يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً » (النساء : ١١٩) .

ومن قبل ، لقد عبد النصارى المسيح ابن مريم ، وجعلوه إلهاً ، يتجلى فى صورة الأب مرة ، وفى صورة الابن مرة . . والله تعالى يقول : « لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم » (المائدة : ٧٢) . . فهذا قول طائفة منهم .

ويقول سبحانه : « لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة » (المائدة : ٧٣) . . وهذا قول طائفة منهم ، حيث يجعلون الآلهة ثلاثة : « الأب ، والابن ، وروح القدس » .

وهل قال النصارى ـ على مختلف طوائفهم الضالة ـ هل قالوا فى المسيح أكثر مما قال الصوفية فى « محمد » ؟ وفيما تحدثوا به عن « الحقيقة المحمدية » ؟

يقول شيخ من شيوخهم ، وهو المسمى « البيطار » :

« شأن محمد فى جميع تصرفاته ، هو شأن الله ! ! فما فى الوجود إلا محمد ! ! »[1] فهل هناك كفر مثل هذا الكفر ، وهل هناك ضلال بعد هذا الضلال ؟ وممن هذا الكفر وذاك ؟ إنه من قوم ينتسبون إلى الإسلام ويضعون أنفسهم فى الصف الأول من المسلمين ، وهم المتصوفة ! !

إن بعض فرق النصارى ، تعترف بمشاركة المسيح لله فى ألوهيته ، ولكن هذا الصوفى ، لم يرض أن يكون شأن محمد فى جميع تصرفاته ، هو شأن الله بل ذهب به الكفر والضلال إلى أبعد غايته ، فقال : ما فى الوجود إلا محمد ! فهل بعد هذا الإلحاد ، إلحاد ؟ وهل ذهب إبليس فى عصيانه لله إلى هذا المدى من الضلال ؟ إن إبليس بعد أن عصى أمر ربه بالسجود لآدم ، ظل يقول : « رب انظرنى إلى يوم يبعثون » (الأعراف : ١٣) « رب بما أغويتنى لأزينن لهم فى الأرض ، ولأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين » (الحجر ٣٩ — ٤٠) .

فهلا وقف هؤلاء المتصوفة من الكفر والضلال عند الحد الذى وقف

---

(١) من كتاب « عنقاء مغرب » لابن عربى . ص ٤٠

عنده إبليس فلم ينكروا وجود الله ، ولم يقيموا خلقاً من خلقه فى مقام الألوهية؟ ولكنه الضلال المبين : « ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم ، لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم » (المائدة : ٤١) .

ويكفى لبطلان هذه المفتريات ، أن كثيراً من المستشرقين ، الذين لا يعنيهم أمر الإسلام ، أنهم — وهم ينظرون فى صحف التاريخ ، نظرة العلماء المحققين — لم يقبلوا هذا الزيف الذى أدخله المتصوفة على الإسلام ، حيث ينطق الإسلام بحقائقه الدامغة بتجريم الصوفية فيما يقولونه على الله ، وعلى رسوله الكريم ، وينادى عليهم بأنهم كذبة مفترون .

يقول المستشرق جولد تسيهر :

« إن صورة النبى ، كما صورتها السنة ، قد أصابها التعديل والتحوير ، لكى تتلاءم مع تقديس الأولياء ، حتى نجم من ذلك أن العقائد الشعبية ، وضعت صورة للنبى تتعارض تماماً مع البيانات البشرية ، التى صور بها القرآن والسنة ، مؤسس الإسلام الأول »[1] أى محمد صلى الله عليه وسلم .

وماذا يقول هذا المستشرق غير هذا ، وهو يؤرخ للاسلام ، ويرجع فى هذا التاريخ إلى القرآن الكريم والسنة المطهرة ؟ إنه لو قال غير هذا لسقط من ديوان العلماء ؟

---

(١) القصيدة والشريعة لجولد تسيهر ص : ٢٣٤ — ترجمة الدكتور محمد يوسف موسى ، وزميليه .

ويقول المستشرق هنيوش بيكر :

« من الثابت أن الفنوص — أى الغباء والجهل — قدأثر فى إيجاد هذه الصورة التى صورتها العصور الوسطى الإسلامية المتأخرة ، لمحمد ، وكان ذلك سبباً فى إيجاد ما يشبه عبادة محمد .. وهذه العبادة ، وتلك الصورة ، مخالفتان لما كان عليه الإسلام الأول كل المخالفة .

« أما الأولياء فى الإسلام — عند الصوفية — فهم فى مقابل الأرواح القدسية فى الهيلينية[1] حتى إن محمداً — وهو نموذجهم الأعلى — ينتهى بأن يصبح هو العقل الموجود منذ الأزل ، وأن يكون هو الرحيم المخلص القدير .. وعن طريق هذا المذهب ، انقلبت فكرة الوحى التى كانت موجودة فى الإسلام الأول ، إلى ضدها[2] » .

وماذا يقول مسلم يدين بدين الحق أكثر من هذا الذى يقوله مستشرق لا يدين بالإسلام ، فى دفع هذا الزيف الذى دخل على الإسلام ، ممن ينتسبون إلى الإسلام ؟

ويقول المستشرق « فيليب حتى » :

« والعقيدة الثابتة فى باب الإيمان ، عند المسلمين ، هى أن محمداً رسول الله ، وخاتم النبيين ، وفى علم الإلهيات القرآنى ، ليس محمد إلا بشراً ، لم يتم الله على يده من العجائب غير أعجاز القرآن .

---

(١) الهيلينية ، معتقدات فى الكائنات الروحية التى يدعون انها تتوسط بين الذات الالهية والذوات الأخرى .

(٢) التراث اليونانى — ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوى ، ص : ١٢

« إلا أن التقاليد والأساطير التى اصطنعها العامة من بعد - بدسائس الصوفية - نسجت حول هامة الرسول ، هالة من النور الإلهى »[1] .

فسبحانك ربى ، إن هذا الدين لا يخلو أبداً من كلمة الحق يقولها فيه أولياؤه وأعداؤه ، فإن للحق سلطاناً تعنو له الجباه !

وبعد ، فإن هذه المقولات المنسوجة من خيوط الزور والبهتان ، والمصبوغة بصبغ التدليس للتعمية على الناس ، من مقولات الصوفية عن الحقيقة المحمدية إنما أريد بها ، تقديس شيوخ المتصوفة ، وما يتولد فيهم من أقطاب وأولياء ، حتى لقد أقاموا بذلك دولة لأصحاب القبور ، الذين رفعوا فوقهم القباب ، إعلاناً على أنهم من أولياء الله ، يذيعون عنهم الكرامات أحياء وأمواتاً ، وينشرون فى الناس أن أصحاب هذه القبور يتصرفون فى الكون ، حيث يشفون المرضى ، ويقضون حاجات المحتاجين ، فى كل ما يطلبونه منهم ، إذا هم زاروا أضرحتهم ، وتمسحوا بها ، وقدموا القرابين لسدنتها . . وهذا ما نكشف عن بعضه فى الفصل التالى ، إن شاء الله .

●★●

---

(١) تاريخ العرب ، لفيليب متى - جزء ١ ص : ١٧٧

الفصل السادس

هؤلاء الجاثمون تحت الأضرحة

— ١ —

الموتى ، حين تنتهى آجالهم فى هذه الدنيا ، وينقلون إلى الدار الآخرة لا يجوز لأحد من الأحياء ، أن يحكم على أحد منهم بأنه من السعداء أو الأشقياء ، إلا إذا كان ذلك حكماً من الله تعالى ، كما حكم سبحانه على الأقوام الذين عصوا رسله فأهلكهم الله تعالى فى الدنيا ، وأعد لهم عذاب السعير فى الآخرة ، مثل قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وفرعون وملائه . . فهذا هو حكم الله تعالى فيهم . كما جاء ذلك فى القرآن الكريم .

أما أن يقال عن فرد من الناس بأنه من أهل الجنة أو أهل النار ، فهذا يعد تألياً على الله ، وتدخلا وقاحاً فى حكمه على عباده ، لأنا لا ندرى من ظاهر الناس ما اشتملت عليه بواطنهم ، ولا ما ختم الله به على أعمالهم . . وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه القضاء ، فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه القضاء ، فيعمل بعمل أهل الجنة ؛ فيدخل الجنة » .

والقرآن الكريم حين يتحدث عن أهل الجنة وأهل النار ، إنما يذكر كلا من الفريقين بالصفات التي تؤهله لهذه أو تلك ، دون أن يذكر أحداً من الفريقين باسمه إلا أبا لهب .. فيقول تعالى عن أهل الجنة : « إن الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا ، خالدين فيها لا يبغون عنها حولا » (الكهف : ١٠٧ — ١٠٨) .. ويقول سبحانه عن أهل الجنة أيضاً : « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً ، ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون » (البقرة : ٢٤) . ويقول تبارك اسمه : « فأما من ثقلت موازينه ، فهو فى عيشة راضية ، وأما من خفت موازينه فأمه هاوية ، وما أدراك ما هيه ، نار حامية » . (القارعة : ٦ — ١١) .

فالإيمان بالله ، والأعمال الصالحة فى ظل هذا الإيمان ، هما الطريق إلى الجنة التى أعدها الله لعباده المؤمنين المتقين .. ولم يذكر القرآن الكريم إنساناً بعينه بأنه من أهل الجنة ، وحسب المؤمن أن يكون فى جماعة المؤمنين لينال هذا الفضل العظيم الذى يناله المؤمنون من رب العالمين .

ورسول الله — صلى الله عليه وسلم — لم يبشر إلا عشرة من أصحابه بأنهم من أهل الجنة ، وذلك بأمر من ربه ، وهذا تكريم خاص من الله لهؤلاء العشرة الكرام ، يملأ قلوبهم سعادة ورضى فى هذه الحياة الدنيا ، قبل لقاء ربهم ، ودخول جناته .. ولا شك أن الذين يدخلون الجنة من الصحابة — رضى الله عنهم — أعداد كثيرة تعد بالألوف ، ولكن الحجاب

لا يكشف عنهم واحداً واحداً ، حتى يظل المؤمن دائماً فى حال من الرجاء والخوف من ربه ، فى كل حال من أحواله .

والشأن هكذا فى أهل النار ، يذكرهم القرآن الكريم بأوصافهم التى تسوقهم إلى جهنم . . وهى الكفر بالله أو الشرك به ، والكفر بالبعث ، والحساب، والجزاء كما يقول تعالى: «إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعاً » (النساء : ١٤٠) ويقول سبحانه :«والذين كفروا بربهم لهم عذاب جهنم وبئس المصير ، إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهى تفور.. تكاد تميز من الغيظ كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها : ألم يأتكم نذير ، قالوا بلى ، قد جاءنا نذير ، فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شىء إن أنتم إلا فى ضلال كبير » (الملك : ٦ — ٩) . . والحكمة — والله أعلم — فى عدم ذكر أصحاب الجنة وأصحاب النار بأسمائهم ، تتجلى فى أمرين :

أولهما: أن يظل المؤمن على طريق العمل للجنة، وهو بين خوف ورجاء ، ولو أنه علم أنه من أهل الجنة لماتت فى نفسه تلك المشاعر من الخوف والرجاء، ولا حياة لإنسان بغير تلك المشاعر .

أما فى جانب أهل النار ، فإن عدم الكشف لأى منهم عن مصيره هذا يجعل باب الإيمان مفتوحاً له ، لا يسده فى وجهه ، ولا يملأ قلبه يأساً . . وبهذا تظل الحجة قائمة عليه ، على خلاف ما لو حكم عليه فى هذه الدنيا بالمصير الذى هو صائر إليه ، حيث تنتفى الحكمة من إرسال الرسل ، ولا يبقى عند هؤلاء الجهنميين داع يدعوهم إلى التحول عما هم فيه ، من كفر وضلال ، وقد علموا مقدماً ما هم صائرون إليه ! !

وثانيهما : أن ذكر أهل الجنة ، وأهل النار بأسمائهم فرداً فرداً ، لا يمكن أن يتجاوز الذين كانوا فى عصر النبي من بعثته إلى أن لحق بالرفيق الأعلى وفى محيط المكان الذى هو فيه ، من أولئك الذين كان يدعوهم إلى الإيمان بالله ، وإنه لمن غير الممكن ، بل وغير المستساغ كذلك أن يكشف عن مصير كل إنسان قبل مبعث الرسول ، وبعد مبعثه إلى اليوم ، وإلى أن ينتهى دور الناس على هذه الأرض .

فكان من الحكمة العالية أن يظل الستر مسدلا على كل إنسان ، وأن يظل مصيره معلقاً إلى آخر يوم من عمره ، وأمامه طريقان : أحدهما إلى الجنة والآخر إلى النار ، وله أن يسلك ما شاء منهما ، وبهذا تقوم الحجة عليه : « وقل الحق من ربكم ، فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر ، إنا اعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه ، بئس الشراب وساءت مرتفقاً . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا ، أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار ، يحلون فيها من أساور من ذهب ، ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق ، متكئين فيها على الأرائك . نعم الثواب ، وحسنت مرتفقا » (الكهف : ٣٠ — ٣١) .

فذلك من الغيب الذى لا يعلمه إلا الله ، كما يقول تعالى : « قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله » (النمل : ٦٥) وكما يقول سبحانه : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً ، إلا من ارتضى من رسول » (الجن : ٢٦) وكما يقول جل شأنه لرسوله الكريم : « قل لا أقول لكم

عندي خزائن، ولا أعلم الغيب، ولا أقول إنى ملك، إن أتبع إلا ما يوحى الىّ » (الأنعام : ٥٠) .

هذا ، ولم يذكر القرآن الكريم أحداً من أهل النار باسمه ، ولم يسقه إلى جهنم سوقاً وهو يمشى على هذه الأرض إلا أبا لهب ، وامرأته ، وذلك فى قوله تعالى : « تبت يدا أبى لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى ناراً ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد »[1] ولا شك أن هذا بلاء مضاعف لهذين الشقيين : إذ كانا من أشد أهل مكة أذى للنبى صلى الله عليه وسلم ، وسفاهة عليه ، فجعلهما الله تعالى مثلا لما يأخذ به الطغاة من نكال الدنيا والآخرة جميعاً ، مثل ما أخذ الله تعالى به فرعون ، إذ يقول سبحانه ، فى هذا الطاغية الجبار : « فكذب وعصى ، ثم أدبر يسعى ، فحشر فنادى ، فقال أنا ربكم الأعلى، فأخذ الله نكال الآخرة والأولى ، إن في ذلك لعبرة لمن يخشى » (النازعات : ٢١ - ٢٦) .

— ٢ —

هذا هو شأن الأموات ، لا يدرى أحد المصير الذى صار إليه الميت : إلا على سبيل الإجمال . . فإن كان من أهل الإيمان ظن به خيراً ، وعد فى زمرة المؤمنين وما هم صائرون إليه من نعيم الله ورضوانه ، وإن كان من أهل الكفر والشرك ، ظن به سوءاً ، وعد فى هذه الزمرة الضالة ، وما هم صائرون إليه من عذاب ونكال . . أما أن يحكم على هذا الميت أو ذاك على سبيل اليقين والقطع أنه من أهل اليمين أو أهل الشمال ، فهذا من التألى

(١) سورة المسد .

على الله ، الذى إليه وحده سبحانه علم ما تكن الضمائر وما تخفى الصدور فقد يكون هذا المؤمن فى باطنه مشركا أو كافراً ، وقد يكون هذا الكافر فى الظاهر مؤمناً فى الباطن ، والله تعالى وحده هو علام الغيوب .

فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ما أمره به ربه أن يؤذن به فى الناس. « قل لا أملك لنفسى ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ، وما مسنى السوء ، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » (الأعراف : ١٨٨) .

وهذه أم العلاء الأنصارية ، تحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتقول :

« لما قدم المهاجرون المدينة ، اقترعت الأنصار على سكناهم ، فصار لنا عثمان بن مظعون فى السكنى معنا ، فمرض ، ثم توفى ، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدخل عليه ، فقلت — ورسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع : رحمة الله عليك أبا السائب ، فشهادتى أن قد أكرمك الله ! ! فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « وما يدريك أن الله قد أكرمه » ؟ قالت : لا ، والله لا أدرى ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : أما هو فقد أتاه اليقين من ربه[1] ، وإنى لأرجو له الخير .. والله ، وأنا رسول الله ، ما أدرى ما يفعل بى ولا بكم» !!

فهذا صحابى من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن السابقين

---

(١) اليقين ، هو الموت ، حيث انه امر مستيقن عند الناس جميعا ، لا شك فيه من مؤمن او كافر .

الأولين إلى الإسلام ، ومن المهاجرين الذين هاجروا بدينهم إلى الله ، تاركين ما بين أيديهم من أهل ، وولد ، ومال .. هذا الصحابى ، يموت ، وهو على تلك الحال الظاهرة من الإيمان ، والهجرة ، والجهاد ، ثم يرد الرسول الكريم قولة من تقول فيه : « فشهادتى أن قد أكرمك الله » وينكر أن يقول أحد أياً كان ، أن هذا الإنسان من أهل الجنة ، أو أهل النار ، فذلك إلى الله تعالى وحده ، الذى يعلم خائنة الأعين ، وما تخفى الصدور ! !

ومع تلك الحال الظاهرة من إيمان عثمان بن مظعون ، وهجرته ، وجهاده فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لم يزد على أن يقول فيه : « أما هو فقد أتاه اليقين من ربه » ثم دعا له بقوله : « وإنى لأرجو له الخير » . . وهذا أدب نبوى كريم يجب أن يأخذ به المؤمن نفسه ، فلا يحكم على حى أو ميت أنه من أهل الجنة أو أهل النار . غير ما حكم الله تعالى به على رسله وأنبيائه أنهم من أهل الجنة ، وما أخبر به الرسول الكريم — وحياً من ربه — عن العشرة من الصحابة المبشرين بالجنة . . كما لا يحكم على أحد أنه من أهل النار إلا من جاء ذكره فى القرآن وكذلك على أقوام الرسل الذين كذبوا رسلهم ، فأهلكهم الله في الدنيا وأعد لهم عذاب السعير فى الآخرة !

— ٣ —

المتصوفة وما يدعون على الأموات :

ولكن الذى يطل على عالم المتصوفة ، يجد شيوخهم ومريديهم ، أمواتاً وأحياءاً ، قائمين على هذا الوجود ، متحكمين فيه ، بيدهم الحياة

والموت ، والنفع والضر ، يفتحون أبواب الجنان لمن يشاءون ، لا يرد الله تعالى لهم أمراً ، ولا ينقض لهم حكماً ! !

وإذا كان الأحياء موضع تجربة واختبار بالمشاهدة ، أو موضع حسد وتحد من الناس — فإن حديث المتصوفة عن الأحياء منهم يكون تخافتاً وهمساً فى إذاعة كراماتهم فى الناس — أما حين يكون الحديث عن الأموات الذين يجهل الناس أمرهم ، فهو حديث ذو شجون ، ينشد إنشاداً على نغمات المزمار ، فى حلقات الذكر ، عن كرامات أصحاب الأضرحة ، التى يساق إليها الناس سوق الأنعام ، للطواف بها ، والتمسح بجدرانها ، ورفع المطالب إليها ، فى ضراعة وبكاء ! !

وفى كتاب الشعرانى المعروف « بالطبقات الكبرى » حكايات خيالية ، شاطحة فى الخيال ، دونها حكايات « ألف ليلة وليلة » فيما يحكيه الشعرانى عن هؤلاء الموتى الذين يخلع عليهم المتصوفة ألقاب الولاية والقطبية ، فهو مثلا ينقل عن إبراهيم الدسوقى المتوفى سنة ٦٧٦ هـ والمدفون بمدينة دسوق بمصر قوله عن نفسه :

« أنا موسى عليه السلام فى مناجاته ! ! أنا على رضى الله عنه فى حملاته ، أنا كل ولى فى الأرض خلعت عليه بيدى ، ألبس منهم من شئت ! ! أنا فى السماء شاهدت ربى ، وعلى الكرسى خاطبته ، أنا بيدى أبواب النار أغلقتها وبيدى جنان الفردوس فتحتها . . من زارنى أسكنته جنة الفردوس » ! ![2]

---

(١) النبوات ، لابن تيمية ص ٩ .

(٢) الطبقات . . للشعرانى ص ١٥٧ .

وماذا بقي لله تعالى من تصريف وتدبير في شئون خلقه ، وقد ملك الدسوقى أمر العباد ، يهب لمن يشاء ما يهب من فضل وإحسان ، ويحرم من يشاء من رحمة الله ؟

ثم لماذا العبادات والطاعات لله تعالى ، وزيارة واحدة لقبر الدسوقى ضمان بدخول الجنة ؟ فلا عجب إذن أن تهرع الألوف إلى زيارة الدسوقى فى قبره ، حتى إذا كان يوم مولده زحفت الألوف من كل مكان فى مصر إلى زيارة ضريحه حتى تجاوز المليون عداً ؟

ثم لا عجب أن يشيع الفسق والفجور في الساحات المحيطة بهذا الضريح وقد أخذ الناس هنالك عهداً موثقاً بدخول الجنة ، وغفران الذنوب ، وقد زاروا ضريح الدسوقى ! !

أفهذا كلام ينشر على المسلمين فى كتب تحمل اسم الإسلام ، وتتحدث عن أولياء الله بهذا الكفر الصراح ثم يكون مع هذا إسلام ومسلمون ؟

ثم يقول الشعرانى . على لسان الدسوقى :

« وقد كنت أنا وأولياء الله أشياخاً فى الأزل ، بين يدى قديم الأزل ، وبين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم : وأن الله عز وجل خلقنى من نور رسول الله ﷺ وأمرنى أن أخلع على جميع الأولياء بيدى وخلعت عليهم بيدى وقال لى رسول الله « يا إبراهيم أنت نقيب عليهم فكنت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخى عبد القادر الجيلانى ، خلفى وابن الرفاعى — أحمد الرفاعى — خلف عبد القادر ، ثم التفت إلىّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : « يا إبراهيم : سر إلى « مالك » ، وقل له يغلق النيران ، وسر إلى « رضوان » وقل له يفتح الجنان ، ففعل « مالك » ما أمر به ، وفعل رضوان ما أمر به ! ! »[1] .

---

(١) الطبقات للشعرانى ص ١٥٨ . الجزء الأول .

وهكذا يغلق الدسوقى أبواب النيران، ناسخاً قوله تعالى: « وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » (هود: ١١٩).. وناسخاً ما توعد الله تعالى به أهل الكفر والنفاق والشرك من عذاب الجحيم، فى قوله تعالى: « إن الله جامع الكافرين والمنافقين فى جهنم جميعاً » (النساء: ١٤٠) وفى قوله سبحانه: « هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون، يطوفون بينها وبين حميم آن » (الرحمن: ٤٣ — ٤٤).. إلى غير ذلك من مئات الآيات التى تحدث عن أحوال جهنم وأهوالها، وعما يلقى أهلها من عذاب ونكال لقد نسخ الدسوقى هذا كله.. بل لقد نسخ شرع الله، ورسل الله، فلا وعد ولا وعيد، فهذه جهنم قد أغلقت أبوابها، وهذه الجنة قد فتحت أبوابها. إنه باب واحد، هو باب الجنة يدخل منه جميع الناس من مؤمنين، وكافرين وملحدين ومشركين، ومنافقين، ومتصوفين!!

وإذن، فلا حرج أن يقول المتصوفة ما يقولون، على الله، ومنازعتهم له فى سلطانه، إذ ليس هناك حساب، ولا عقاب!!

ويحكى عبد الوهاب الشعرانى عن نفسه « فى طبقاته الكبرى »، ما وجده من كرامات أحمد البدوى[1].

« وسبب حضورى مولده — أى البدوى — كل سنة، أن شيخى العارف بالله تعالى « محمد الشناوى » قد كان أخذ على العهد فى القبة تجاه وجه سيدى أحمد البدوى، وسلمنى إليه بيده، فخرجت اليد الشريفة من الضريح،

---

(١) هو احمد البدوى، صاحب الضريح المعروف فى مدينة طنطا بمصر. توفى سنة ٦٥٧ هـ.

وقبضت على يدى[١] !! وقال سيدى محمد الشناوى مخاطباً السيد البدوى : « يكون خاطرك عليه ، واجعله تحت نظرك » فسمعت سيدى أحمد البدوى من القبر يقول : نعم » !!

ثم يقول عبد الوهاب الشعرانى ، متحدثاً عن نفسه ، وعما كان لأحمد البدوى معه من كرامات :

« ولما دخلت بزوجتى ، فاطمة ، أم عبد الرحمن ، وهى بكر ، مكثت خمسة أشهر لم أقرب منها ، فجاءنى — أى البدوى — وأخذنى ، وهى معى ، وفرش لى فرشاً فوق ركن القبة التى على يسار الداخل ، وطبخ لى حلوى ، ودعا الأحياء والأموات[٢] إليه ، وقال لى أزل بكارتها هنا ، فكان الأمر تلك الليلة »[٣] .

فإن يكن ذلك الخبر الذى يرويه الشعرانى عن نفسه صحيحاً ، فإن المقطوع به هو أن الشيطان قد استجره إلى هذه الهوة ، ثم تولى عنه إزالة بكارة زوجه ثم أحبلها الشيطان !!

ويقول الشعرانى أيضاً ، محدثاً عن نفسه مع أحمد البدوى :

« وتخلفت عن ميعاد حضورى للمولد — أى مولد البدوى — سنة

---

(١) لاشك ان هذه اليد هى يد شيطان تمثل له انه احمد البدوى ، بعث من مرقده !!

(٢) ان احمد البدوى يبعث من فى القبور ، قبل ان يبعثهم الله تعالى يوم النشور للحساب والجزاء .. نعوذ بالله من هذا الكفر الذى فاق كفر ابليس .

(٣) الطبقات الكبرى للشعرانى — جزء اول ص ١٦١ .

ثمان وأربعين وتسعمائة ، وكان هناك بعض الأولياء ، فأخبرنى أن سيدى أحمد رضى الله عنه كان ذلك اليوم يكشف الستر عن الضريح ويقول : أبطأ عبد الوهاب ـ أى الشعرانى ـ ما جاء !! » .

ثم يقول الشعرانى :

« وأردت التخلف سنة من السنين ، فرأيت سيدى أحمد رضى الله عنه ومعه جريدة خضراء ، وهو يدعو الناس من سائر الأقطار ، والناس خلفه، ويمينه وشماله ، أمم وخلائق لا يحصون ، فمر على وأنا بمصر[1] ، فقال : أما تذهب ؟ فقلت : بى وجع فقال : الوجع لا يمنع المحب !! ثم أرانى خلقاً كثيراً من الأولياء وغيرهم ، الأحياء والأموات ، والزمنى ، بأكفانهم يمشون ويزحفون معه ، يحضرون المولد . . ثم أرانى جماعة من الأسرى جاءوا من بلاد الفرنج ، مقيدين مغلولين ، ويزحفون على مقاعدهم ، وقال : انظر إلى هؤلاء فى هذا الحال ولا يتخلفون ، فقوى عزمى على الحضور ، فقلت إن شاء الله تعالى نحضر !! فقال : لابد من الترسيم عليك ، فرسم على سبعين عظيمين ، أسودين كالأفيال ، وقال : لا تفارقاه حتى تحضرا به .. فأخبرت بذلك سيدى محمد الشناوى ، رضى الله عنه ، فقال : «سائر الأولياء يدعون الناس بقصادهم[2] ، وسيدى أحمد رضى الله عنه يدعو الناس بنفسه إلى الحضور ، ثم قال : إن سيدى الشيخ محمد السروى رضى الله عنه ، تخلف سنة عن الحضور ، فعاتبه سيدى أحمد البدوى « رضى الله عنه ، وقال له : موضع

---

(١) اى بالقاهرة .

(٢) اى ليس هذا شأن البدوى وحده ، بل هو شأن كل صاحب ضريح يقام له مولد كل عام .

يحضر فيه النبي صلى الله عليه وسلم ، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، معه وأصحابهم ، والأولياء ، رضى الله عنهم ، وما تحضره أنت ؟ ؟ فخرج السروى إلى المولد ، فوجد الناس راجعين ، وفاته الاجتماع ، فكان يلمس ثيابهم ، ويمر بها على وجهه ! ! » .

ونقول : إن هذا الكلام الذى صدر من الشعرانى ، فى طبقاته ، إن كان فى حال سكر من شراب ، أو غيبة وعى من حشيشة ، فعليه إثم ما شرب من خمر ، أو دخن من حشيشة ، ولا يؤاخذ بما قال . . أما إن كان قد كتب ذلك وهو فى وعيه ، فهو بلسان الشيطان نطق ، ومن فمه استملى ما كتب ، وبذلك يدخل فى زمرة شياطين الإنس الذين أمرنا الله تعالى أن نستعيذ بالله منهم ، كما نستعيذ من شياطين الجن ! « قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس ، من شر الوسواس الخناس ، الذى يوسوس فى صدور الناس ، من الجنة والناس » .

ثم استمع ، وألق ما تسمع فى أدراج الرياح ، لما يحدث به الشعرانى ، عن أحمد البدوى ، يقول الشعرانى :

« وقد اجتمعت مرة أنا وأخى أبو العباس الحريثى ، رحمه الله ، بولى من أولياء الهند[٢] ، بمصر المحروسة ، فقال رضى الله عنه : ضيفونى ، فإنى

---

(٣) الطبقات الكبرى للشعرانى ـ جزء اول ص ١٦٢ ، مطبعة صبيح بالأزهر .

(١) لاشك ان هذا شطان جاء الى لشعرانى وصاحبه فى صورة ولى ؟ ليوسوس له بهذا الضلال ، والله تعالى يقول : « وان الشياطين ليوحون الى أولئائهم ليجادلوكم وان اطعتموهم انكم لمشركون » (الأنعام : ١٢١)

غريب ، وكان معه عشرة أنفس ، فصنعت له فطيراً وعسلا ، فأكل . . فقلت له : من أى البلاد ؟ فقال : من الهند . . فقلت : ما حاجتك فى مصر ؟ فقال : حضرنا مولد سيدى أحمد البدوى — رضى الله عنه .. فقلت له : متى خرجت من الهند ؟ فقال : خرجنا يوم الثلاثاء ، فنمنا ليلة الأربعاء عند سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وليلة الخميس عند الشيخ عبد القادر — الجيلانى — رضى الله عنه ، ببغداد ، وليلة الجمعة عند سيدى أحمد البدوى — رضى الله عنه — بطنطا ؟ ثم يعقب الشعرانى على هذا بقوله :

« فتعجبنا من ذلك ، فقال — أى الولى الهندى : — الدنيا كلها خطوة عند أولياء الله عز وجل . . ثم قلنا لهم — أى لهذا الولى ورفقائه : من عرفكم بسيدى أحمد رضى الله عنه فى بلاد الهند ؟ فقال : يا للعجب ، أطفالنا الصغار لا يحلفون إلا ببركة سيدى أحمد ، وهو من أعظم أيمانهم[1] » !!

ونقول للشعرانى ، مدعى الولاية ، والقطبية : إذا كان هذا الهندى قد جهل قول النبى صلى الله عليه وسلم : « من كان حالفاً فليحلف بالله ، أو ليصمت » وأن الحلف بغير الله باب من أبواب الشرك — أما كان عليه أن يبين له ذلك ويقول له إن الحلف بالبدوى ، وغيره من نبى أو ولى ، هو وجه غليظ منكر من وجوه الشرك ؟

ولكن الشعرانى ، يزكى هذا الشرك ، ويقيم منه دليلا للعامة وأشباه العامة على أن أصدق الأيمان وآكدها ما كان حلفا ببركة البدوى وغيره من الجاثمين تحت القباب ، التى لعن رسول الله من يقيمونها ، ومن يدعون إلى إقامتها عليهم .

---

(١) الطبقات الكبرى للشعرانى — جزء أول ص ١٦٣ .

وينقل الشعرانى عن شيخه محمد الشناوى ، فيقول :

« وأخبرنى شيخى محمد الشناوى ، رضى الله عنه ، أن شخصاً أنكر حضور مولد سيدى أحمد البدوى ، فسلب منه الإيمان ، فلم يكن فيه شعرة تحن إلى دين الإسلام ، فاستغاث بسيدى أحمد رضى الله عنه ، فقال — أى البدوى — بشرط ألا تعود ، فقال : نعم ، فرد عليه ثوب إيمانه ، ثم قال له : وماذا تنكر علينا ؟ قال اختلاط الرجال بالنساء !!

«فقال له سيدى أحمد رضى الله عنه : ذلك واقع فى الطواف[1] ، ولم يمنع أحد منه . . ثم قال — البدوى : وعزة ربى ما عصى أحد فى مولدى إلا وتاب وحسنت توبته . . وإذا كنت أرعى الوحوش فى البرارى والسمك فى البحار ، وأحميهم من بعضهم بعضاً ، أفيعجزنى الله عز وجل عن حماية من يحضر مولدى[2] » .

إن الشعرانى — فيما نقله عن البدوى وهو فى عالم الأموات — يجعل الطواف بضريح البدوى شعيرة من شعائر الدين مثل الطواف ببيت الله الحرام ، ويجعل الحج إلى ضريحه فريضة كفريضة الحج . . وهذا كفر بالله وتبديل لشرع الله .

كل هذا الهراء يضعه الشعرانى على لسان أحمد البدوى ، نقلا عن شيخه محمد الشناوى . . وأحمد البدوى ثاو تحت التراب ، وفى دار غير

---

(١) يعنى الطواف بالبيت الحرام ، فى الحج العمرة .

(٢) الطبقات الكبرى ، للشعرانى ص ١٦٣ .

تلك الدار التى يخاطب فيها حياً من الأحياء ، حيث يسلب منه الإيمان لأنه أنكر حضور مولده ، ثم يرد إليه إيمانه ، بعد أن جاءه مستغفراً تائباً !!

ثم أى استرخاص للعقل ، وامتهان له من أن يتحدث إنسان بأن أحداً من الناس يرعى الوحوش فى البرارى ، والأسماك فى البحار ويحميها من أن يعتدى بعضها على بعض ؟ فهل اختفى هذا الصراع الدموى بين الوحوش ، وعدوان القوى منها على الضعيف ؟ وهل قطعت الأسماك عادتها من أكل كبارها لصغارها ؟ فهل يوجد إنسان فيه قطرة من ماء الحيا ، أو أثارة من وعى ، يقول مثل هذا الكلام المفضوح الذى يقوم الواقع المشهود للناس جميعاً على تكذيبه ، والسخرية من قائله أو ناقله !!

ثم إذا كان البدوى ، يحمى الوحوش والأسماك من عدوان بعضها على بعض ، أما كان الأولى به أن يحمى الناس من عدوان بعضهم على بعض ؟ أفليس البر بالأقربين أولى من البر بغيرهم ؟ ولكن المثل يقول : إذا لم تستح فاصنع ما شئت ! ولكن لا حياء عند المجانين والأطفال ، والمتصوفة !!

ثم إذا كان البدوى يحمى الوحوش والأسماك من عدوان بعضها على بعض ، فلماذا لم يحم ديار الإسلام من عدوان الصليبيين ، وغيرهم من احتلال ديارهم ، وامتهان كرامتهم ، وانتهاك أموالهم وأعراضهم ؟ ثم لماذا لم يحم القدس من انتهاك اليهود لحرمته ، والتسلط على المسلمين فى الأراضى المقدسة ؟

ولولا أن ناقل الكفر لا يأثم بنقله ، بل يؤجر على ذلك ، إذا كان مقصوده بنقله أن يكشف عن وجوهه المنكرة ، وأن يحذر الناس منه ، كما

يفعل الطبيب بالكشف عن أعراض وباء من الأوبئة ، ويحذر الناس منه[1] لولا ذلك ما نقلنا هذا الكفر والإلحاد ، الذى تفيض به كتب الصوفية ، من نحو بعث الموتى من قبورهم وسوقهم إلى حضور موالد أصحاب الأضرحة منهم ، سواء أكان هؤلاء الأموات مسلمين أو كفاراً ، ومثل خروج أصحاب هذه الأضرحة إلى الحياة ومخالطة الناس والتحدث إليهم بما يشاءون. فهذا الدجل الذى تستهوى به العامة ، ذائع منشور فى كتب يتهافت عليها السذج والأغفال من المسلمين ، وليس فيها إلا ما يؤكد هذا الدجل . . فالرد على ما تحوى هذه الكتب ، ودحضه ، لايكون إلا بنقل هذه الأكاذيب ، ثم الكشف عن محاملها الزائفة الزائغة ، التى لا يقبلها ذو ذرة من عقل . . وهذا ما يوجبه الدين من النصح لله ولرسوله وللمؤمنين ؟!

وإذن ، فلنمض فى نقل بعض هذه الكفريات التى ينشرها المتصوفة بين جمهور المسلمين ، لنكشف زيفها ونحذر المسلمين من الوقوع فى شباكها .

يقول الشيخ محمد أبو المواهب الشاذلى ، مبرراً ما يقع من بعض المتصوفة من إتيان المنكرات جهراً على أعين الناس — يقول :

---

(١) لقد حقق علماء السلف — رضوان الله عليهم — هذه المسألة « فانه حين اخرج المحاسبى كتابه فى الرد على المعتزلة ، انكر عليه الامام احمد نقل اقوالهم، فقال له المحاسبى : الرد على هل البدعة فرض فقال الامام احمد نعم ولكنك حكيت شبهتهم اولا ، ثم اجبت عنها ، فكيف تأمن ان يطالع الشبهة من يعلق ذلك بفهمه ، ولا يلتفت الى الجواب ، او ينظر الى الجواب ، ولا يفهم كنهه ؟» (من كتاب المنقذ من الضلال للغزالى ص : ٣٤ — ٣٥) . ونقول : ان القرآن الكريم ، قد ذكر مقولات لضالين والملحدين والمشركين وتولى دحضها وكشف زينها ولا حجة للامام احمد فيما رد به على المحاسبى ويقول الغزالى : ! ما ذكره احمد بن حنبل حق ، ولكن فى شبهة لم تنتشر ، ولم تشتهر ، فأما اذا انتشرت ، الجواب عنها واجب ، ولا يمكن الجواب عنها الا بعد الحكاية لها » (المنقذ من الضلال) للغزالى ص ٣٥ .

« وقوع بعضهم فى بعض المحرمات ، ليستر بها على أهل الزمان ، إنما يقاس على من لم يجد ما يسبغ به اللقمة إلا الخمر ، قال ذلك الغزالى . . وإذا ساغ ذلك لأجل حياة دنيوية ، فأولى ما يفوت به حياة أخروية ، فلا يقال ارتكابهم لهذا ، فيه ما يوقع الناس فى سوء الظن بهم ، وهو حرام ، لأنا نقول إن من أخلاقهم العفو والصفح ، وعدم المؤاخذة ، بل هم رحمة بين أظهر العباد » (الطبقات الكبرى ، للشعرانى ، جزء ٢ ص ٦٤) .

ويعلق الشعرانى على هذا بقوله : ولو سامح العبد ، فحق الله باق ، من حيث أنه تعدي حدود الله تعالى ، فالإشكال باق ، والله أعلم ! ! » .

ونقول : إن الجهر بالمنكر ، فوق ما فيه من جرم غليظ بالتعدى لحدود الله ، هو جرم فوق جرم ، لإغراء الناس به ، وإشاعة المنكرات فيهم والله تعالى يقول : « إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة » (سورة النور : ١٩) . . فإذا استباح الإنسان لنفسه أن يرتكب المنكرات ، فإن مجاهرته بذلك ، هو دعوة شيطانية إلى مقارفة المنكرات ، وبخاصة إذا كان ذلك ممن يظن الناس بهم أنهم من أولياء الله . . وإنه لمكر عظيم بالله ، وكيد شديد لدين الله أن يتعرى المسلم فيكشف سوأته للناس ، وفى الأثر : « إذا بليتم فاستتروا » ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل أمتى معافى إلا المجاهرين ، وإن من الإجهار أن يعمل العبد بالليل عملا ، ثم يصبح قد ستره ربه ، فيقول : يا فلان قد عملت البارحة كذا وكذا ، وقد بات يستره ربه، وصبح يكشف ستر الله عنه »[1] . . فهذا شأن من يذكر فعله الفاحشة حكاية بلسانه ،

(١) رواه البخارى ومسلم ، عن ابى هريرة .

فكيف بمن يأتيها جهرة على أعين الناس ، ثم كيف به إذا كان ممن يلبس ثوب الصلاح والولاية ؟

أفليس ذلك فتنة للناس باستباحة حرمات الله ، وإتيان المنكرات جهاراً على أعين الناس ؟ إن الجريمة هنا جريمتان . . جريمة فى حق مرتكبها ثم جرائم تقع عليه من الذين تأسوا به فيما فعل ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من سن سنة سيئة فى الإسلام ، فعليه وزرها ووزر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء » . (رواه مسلم ، عن جرير ابن عبد الله) .

ويقول الشعرانى فى طبقاته ، عن الشيخ أبى على[1] :

« كان هذا الشيخ — رضى الله عنه — من كمل العارفين ، وأصحاب الدوائر الكبرى ، وكان كثير التطورات ! ! . . تدخل عليه بعض الأوقات فتجده جندياً ، ثم تدخل عليه فتجده فيلا ، ثم تدخل عليه فتجده صبياً ، وهكذا . . »[2] .

ونسأل : إذا قتل إنسان هذا الشيخ وهو فى صورة أسد أو فيل ، فهل يكون عليه وزر ؟ وهل يقتص منه ؟ ويقول الشعرانى عن هذا الشيخ :

« وكان يقبض من الأرض ، ويناول الناس الذهب والفضة ، وقال

---

(١) الطبقات الكبرى للشعرانى ، جزء ٢ ص ٨٠ .

(٢) مات سنة نيف وخمسين وثمانمئة ، ودفن بالمحلة من مدن مصر .

أعداؤه إن هذا من الكيمياء ، فدخل عليه بعضهم ، فقطعوه بالسيوف ، ووضعوه فى تليس — أى كيس كبير — ورموه على الكوم ، فلما أصبحوا وجدوا الشيخ جالساً ، فقال لهم : « غركم القعر ! ! » أى خدعتم ! !

ونقول — إن صح هذا الخبر — فما هذا الذى ظهر فى صورة هذا الدجال إلا شيطان ، يغرر بالناس ، ويفسد عليهم دينهم .

ويقول الشعرانى عن أحمد الفرغل المدفون ببلدة أبى تيج بمصر :

« دخل عليه بعض الرهبان ، فاشتهى عليه بطيخاً ، فأتاه به ، وقال : وعزة ربى لم أجده إلا خلف جبل قاف ! !

وهذا يمين كاذب فاجر ، إذ لا وجود لجبل اسمه جبل قاف ! !

ويقول الشعرانى ، عن أحمد الفرغل هذا :

« وخطف التمساح بنت مخيمر النقيب ، فجاء وهو يبكى إلى الشيخ ، فقال له الشيخ : اذهب إلى الموضع الذى خطفها منه ، وناد بأعلى صوتك : يا تمساح تعال كلم الفرغل ، فخرج التمساح من البحر ، وطلع كالمركب ، وهو ماش ، والخلق بين يديه جارية يميناً وشمالا إلى أن وقف على باب الدار ، فأمر الشيخ رضى الله عنه الحداد بخلع جميع أسنانه ، وأمره بلفظها من بطنه ، فلفظ البنت حية مدهوشة ، وأخذ على التمساح عهداً ، ألا يعود يخطف أحداً من بلده ما دام يعيش ، ورجع التمساح ودموعه تسيل حتى نزل البحر[1] ! ! » .

وهكذا يفيض كتاب الشعرانى بذكر مثل هذه الخرافات عن المهابيل

---

(١) الطبقات الكبرى للشعرانى ٢ ص ٩٥ .

الذين يعيشون بين الناس ، فيأتون بتلك الخوارق ، التي لا تخرج إلا من عقول استولى عليها الشيطان وصور لها ما صور من هـذه الخرافات ، التي يتلهى بها الأغبياء المغفلون من الناس ، والتي يعيش على ثمراتها النـكدة المشعوذون من أهل التصوف !!

الألغاز والمعميات في عالم التصوف :

وإذا كان المتصوفة يجاهرون بمثل هذه الحكايات التي يتناقلونها عن المهابيل الذين يتخذون الأضرحة سكناً لهم يمارسون فيها الشعوذة ، وعن شيوخهم أصحاب القباب — فإن لهم مع ذلك ألفاظاً وعبارات يلقونهـا إلى الناس لا يفهم لها أحد معنى ، يخادعون بها الناس ويقولون عنها أنها تحمل أسراراً لا يطلع عليها إلا من كشف الله له الحجاب من أولياء الله ، وأن من تعبد بها لله ، فتح الله عليه ، وخلع عليه خلعة الولاية .

وننقل هنا بعض ما نقله الشعراني من رسائل إبراهيم الدسوقي إلى بعض مريديه ، فيقول :

« كتب الدسوقي رضي الله عنه إلى بعض مريديه ، بعد السلام ، وإني أحب ولدي ، وباطني خلي من الحقد والحسد ، ولا بباطني شظا ، ولا حربق لظي ، ولا جرى من مضى ، ولا مضض غضا ، ولا مكص نصا ، ولا سقط نطا ، ولا نطب غظا ، ولا عطل خطا ، ولا سلب سبا ، ولا عتب فجا . . . ولا حولد كنس ، ولا عنس كنس ، ولا عسعس خدس ، ولا جيقل خندس ولا سطاربس ، ولا عبطافيس ، ولا هطاموش ، ولا سطامريش ، ولا مشوش

أريش ، ولا ركاش قوش ، . . ولا قداد ولا انكاد ، ولا بهداد ، ولا شهداد ، . . ولا يد من العيون ، وما لنا فعل إلا فى الخير والنوال » انتهى[1] .

ونسأله : إذا كان لهذه المعميات معنى ، فلماذا عدل الدسوقى عن التعبير عنها باللغة العربية لتلميذه ؟ ولماذا خاطبه بهذا اللسان الأعجمى أو الشيطانى؟ ثم إذا كان هذا اللسان معروفاً لتلميذه ، فلماذا حرص المتصوفة على تداوله بين الناس وهم لا يفهمون له معنى؟ إن ذلك بلاء وفتنة للناس . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « خاطبوا الناس بما يفهمون ودعوا ما ينكرون أتريدون أن يكذب الله ورسوله ؟ » ولكن المتصوفة لا يتقيدون بشىء من كتاب الله ، وسنة رسول الله ، بل هم عالم وحده ، لهم دينهم وللمسلمين دينهم .

عبادة الأوثان عند المتصوفة :

ثم هذه القبور ، وتلك الأضرحة والقباب المقامة عليها التى يحج إليها المتصوفة ويحرضون الناس على السعى إليها ، والطواف بها ، والالتجاء إليها عند الشدائد لكشف الكروب ، وقضاء الحاجات ـ أليس هذا من الشرك الذى كان عليه أهل الجاهلية ، والذى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لطمس معالمه ، وتوجيه وجوه الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له ؟

يقول ابن تيمية ـ رضى الله عنه :

« فإن المسلمين متفقون على ما علموه ـ بالاضطرار ـ من دين الإسلام

(١) الطبقات الكبرى للشعرانى جزء ١ ص ١٤٥ .

أن العبد لا يجوز له أن يعبد ، ولا يدعو ، ولا يستغيث ، ولا يتوكل إلا على الله ، وأن من عبد ملكا مقرباً ، أو نبياً مرسلا ، أو دعاه ، أو استغاثه به ، فهو مشرك . . فلا يجوز فى دين الله ، أن يقول قائل ، يا جبريل أو يا ميكائيل ، أو يا إبراهيم أو يا موسى ، أو يا رسول الله ، اغفر لى ، أو ارحمنى ، أو ارزقنى ، أو انصرنى أو اكسنى ، أو أجرنى من عدوى ، أو نحو ذلك ، بل هذا كله من خصائص الإلهية . وهى مسائل شريفة معروفة ، قد بينها العلماء ، وذكروا الفرق بين حدود الله التى يختص بها الرسل ، والحقوق التى له ، كما بين ذلك سبحانه فى قوله تعالى : « لتؤمنوا بالله ورسوله ، وتعزروه ، وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا » (الفتح : ٩) . فالتعزير والتوقير للرسول ، والتسبيح بكرة وأصيلا لله تعالى ، وكما قال تعالى : « ومن يطع الله ورسوله ، ويخش الله ويتقه ، فأولئك هم الفائزون » . (النور : ٥١) . فالطاعة لله ولرسوله ، والخشية والتقوى لله وحده .

ثم يقول ابن تيمية — رضى الله عنه :

« ولأجل هذا نهى النبى صلى الله عليه وسلم ، من اتخاذ المساجد على القبور وأن يجعل لله نداً فى خصائص الربوبية . . ففى الصحيحين ، عنه صلى الله عليه وسلم . أنه قال : « لعن الله اليهود ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » . وفى صحيح مسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال : « إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإنى أنهاكم عن ذلك »[1] .

---

(١) من كتاب : محنة شيخ الاسلام ابن تيمية : ص ٢٩ — ٣٠ .

وعبادة الموتى من الديانات الوثنية القديمة ، حيث كان الناس يومئذ يعتقدون أن الموتى فيهم القدرة الخفية التي يمكنهم بها إلحاق الأذى بمن آذاهم فى دنياهم ، ولهذا خافهم الأحياء ، وتقدموا إليهم بالهدايا والقرابين ، وسعوا إلى قبورهم لاسترضائهم ، وتوسلوا إليهم بالتعاويذ والأدعية ، ثم انتهى بهم الأمر إلى عبادتهم ، فالخوف أبو الآلهة ، كما يقولون .

وهكذا انتقل هذا الميراث الوثنى إلى الأجيال المتتابعة ، وكان للمتصوفة نصيبهم الأوفى من هذا الميراث المشئوم ! !

يقول ابن تيمية — رضى الله عنه :

« وأهل الشرك والبدع ، يعظمون القبور ، ومشاهد الموتى ، فيدعون الميت ، أو يدعون به ، أو يعتقدون أن الدعاء عنده مستجاب . . وهذا من ضلالات الشياطين ، فقد ثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لعن الله اليهود ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » وثبت فى صحيح مسلم ، أنه صلى الله عليه وسلم ، قال قبل أن يموت بخمس ليال : « إن من أمن الناس على ، فى صحبة ، وفى ذات يد ، أبا بكر ، ولو كنت متخذاً خليلا من أهل الأرض لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن صاحبكم — يعنى نفسه — صلى الله عليه وسلم — خليل الله . . لا يبقين فى المسجد خوخة — أى طاقة — إلا سدت ، إلا خوخة أبى بكر . . إن من كان قبلكم يتخذون القبور مساجد ، فإنى أنهاكم عن ذلك » .

« وفى الصحيحين : أنه صلى الله عليه وسلم ، ذكر له فى مرضه ، كنيسة

بأرض الحبشة ، وذكروا من حسنها وتصاوير فيها ، فقال : « إن أولئك ، إذا مات فيهم الرجل الصالح ، بنوا على قبره مسجدا ، وصوروا فيه تلك التصاوير ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة » .

وفي الصحيح ، أنه صلى الله عليه وسلم قال : لا تجلسوا على القبور ، ولا تصلوا إليها » [(١)]

وقد أملى الشيطان على المتصوفة أن ينسخوا أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم في التحذير من بناء المساجد على القبور ، ومن الاتصال بالأضرحة ، وطلب العون والغوث من الراقدين تحت ترابها ، وذلك بأن افتروا على رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — فنسبوا إليه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « إذا أعيتكم الأمور ، فعليكم بأصحاب القبور » وإن الرسول الكريم المأمون على ما أوحى إليه ربه ، لمعصوم من أن يخالف قوله تعالى : « وأن المساجد لله ، فلا تدعوا مع الله أحدا » (الجن : ١٨) وقوله سبحانه : « أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ؟ » (النمل : ٦٢) . . وقوله تبارك اسمه : « وقال ربكم ادعوني أستجب لكم » (فصلت : ٦٠) . . وقوله جل شأنه : « ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة ، وهم عن دعائهم غافلون » (الأحقاف : ٥) وقوله تبارك وتعالى : « قل ادعوا الذين زعمتم من دونه ، فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا» (الاسراء : ٥٦) . . وقوله جل وعلا : « والذين تدعون من دونه

(١) من كتاب الفرقان ، بين اولياء الرحمن ، وأولياء الشيطان ج لابن تيمية : ص : ٧٤ ن ن

ما يملكون من قطمير ، ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفرون بشرككم ، ولا ينبئك مثل خبير » (فاطر : ١٣ — ١٤) . . وقوله سبحانه : « له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه ، وما هو ببالغه ، وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » (الرعد : ١٤) . . وهكذا إلى عشرات الآيات التي تبطل كل دعاء يدعى به إلى غير الله تعالى ، ويؤثم صاحبه ، ويدخله في زمرة المشركين . .

فكيف مع هذا تبلغ الجرأة ببعض المتصوفة إلى نسبة هذا القول الشركي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بالالتجاء إلى أصحاب القبور ، إذا حزب بالناس الأمر ، وضاقت بهم السبل ؟

إنه إذا جاز لإنسان أن يستعين بالأحياء في أمر يعجز عنه ، فإنه لا يجوز لعاقل أن يلجأ إلى الموتى يطلب العون منهم . . إن الأحياء قادرون على التصرف في كثير من الأمور التي بين أيديهم ، فيعينون ، ويعانون ، ويأخذون ويعطون ، والله تعالى يقول : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » . (المائدة : ٢) . . أما الموتى — أياً كانوا من الصلاح والتقوى — فإنهم أفضوا إلى ربهم بما عملوا في دنياهم ، وهم في حاجة إلى الأحياء بالدعاء لهم ، وليس للأحياء شيء يصل إليهم من الأموات ، وقد علمنا الله تعالى أن ندعو لإخواننا الذين سبقونا بالإيمان » فقال تعالى : « والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم » (الحشر : ١٠) .

فهل بعد هذا يكون لمسلم حريص على دينه ، حفيظ على سلامته ، أن يسعى إلى عالم الأموات طالباً الغوث والنجدة منهم ، مقدماً لهم النذور والقرابين كأنما هي ثمن لرضاهم عنه؟

إن ذلك لا يكون إلا ممن أضلهم الشيطان فأراهم الباطل حقاً ، والضلال هدى ، والله تعالى يقول : « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً ، فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، إن الله عليم بما يصنعون » (فاطر ٨) . . ويقول سبحانه : « كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون » (يونس : ١٢) .

إن حديث الصوفية عن الموتى ، أكثر من حديثهم عن الأحياء ، وتعاملهم مع أصحاب القبور أكثر من تعاملهم في ميادين الحياة ، ووجوه العمل . . إنهم يتخذون الأضرحة والقباب مأوى لهم يحركون شفاههم ، ويرقصون مناكبهم ، ويمدون أيديهم لا لله ، ولكن للذين أغروهم بالتبرك بأصحاب الأضرحة . . ولو كانوا صادقين فى هذا الذى يدعون الناس إليه ، لنالتهم بركة من تحت الضريح ، ولما مدوا أيديهم إلى الناس سائلين ! !

يقول المرحوم الأستاذ « أبو الوفا محمد درويش » وكان من المجاهدين فى سبيل الله ، قد نصب نفسه لمحاربة البدع التى تفشت فى مصر ، كما تفشت في كثير غيرها من مواطن الإسلام .

يقول : رحمه الله تعالى ، كاشفاً عما يفعله مشايخ الطرق ، عن وسائل الخداع والتمويه على العامة ، حتى يسلبوهم أقواتهم ، بما يلوحون لهم به من بركات ، ونفحات ! ! يقول :

« أعرف قرية فى إقليم من أقاليم الصعيد بمصر - لايربو عدد سكانها على ألفى نسمة . . أحد سادتها وكبرائها ، مريد لشيخ من هؤلاء الشيوخ - شيوخ الصوفية - الذين يعتبرون فى قرى الصعيد ملوكاً تنقصهم الصوالجة والتيجان . • فرض ذلك الكبير على أهل قريته المساكين ستة أرادب من القمح ، تجمع كل عام ، ويسهم فيها كل زارع بنصيبه المفروض ! !

« ولست أحدثك عن القرى الكبيرة الواسعة الثراء ، الكثيرة الغلات ، فإن العبء فيها أثقل ، والضرائب أفدح . .

« ويجمع السادة الضرائب ، ثم يقدمونها إلى الشيخ ، كأنها هبة خالصة منهم ! !

« وهناك ضرائب أخرى ، تدفع على شكل ولائم تقام للشيخ وشيوخه المقربين ، ولمن يسير فى ركابهم من التابعين . . تلك الولائم التي تراق فيها دماء الكباش والديوك الرومية والمصرية ، والأوز والدجاج والحمام ، بغير تقدير ولا حساب !

« ومن هؤلاء الشيوخ من إذا انقضت أيام غزوتهم للقرية ، يمرون ببيوتها بيتاً بيتاً ، فإذا دخلوا فى بيت طافوا بحجراته . حجرة حجرة . حتى إنهم ليدخلون فى حظائر الغنم ومخادع النساء ، ليباركوا عليها ، ثم لا يخرجون إلا وهم محملون بهدايا النساء ، من البيض ، والدجاج ، والسمن ، والجبن وما إلى ذلك . مما تطوله أيدى النساء . ولو كان من حليهن !

ثم يقول المرحوم أبو الوفاء درويش :

« وللشيخ أبواق ، يذيعون فى أهل القرى ، فضل الشيخ ، وكرامات الشيخ ، وتضحية الشيخ ، وتقوى الشيخ ، وصلاح الشيخ ، ويقول لهم : بينما علية القوم يذهبون فى هذه الأيام إلى أقصى الشمال ، حيث الهواء الطلق الرقيق والنسيم البليل ، والجو الرطب المنعش ، وشاطىء البحر الزاخر بألوان المتع والفتون — إذا الشيخ تزهد نفسه فى كل هذا ، ويأتى إليكم ، فى هذا الجو الخانق ، والحر اللافح ، حباً فيكم ، وتضحية بالراحة فى سبيلكم ، فهو جدير بكل إكرام ، خليق بكل تقدير !!

« والله يعلم فى أى سبيل ضحى ، وإلى أى هدف صوب ريش السهام !! »[1] .

وأشهد لقد كان يزور قريتنا — وهى قرية من أعمال محافظة سوهاج بمصر ، يزورها كل عام شيخ من مشايخ الطرق الصوفية المعروفة فى القاهرة فكانت تقام له ليلة يشهدها ألوف من أهل القرية ، ومن القرى المجاورة التى زارها أو سيزورها الشيخ ، فتمد الموائد لهذه الألوف ، والتى يتكلف لها أصحاب الدعوة ما لا طاقة لهم به ، مما يثقل كاهلهم بالديون ، التى تتراكم عاماً بعد عام ، حتى تخرب البيوت العامرة ، ويتشرد أهلها الذين كانوا من وجوه القوم فى قريتهم .

وكان الشيخ يقطع رحلته كل بضعة أيام ، وهو يجوب القرى ، فيسافر

---

(١) صيحة الحق للشيخ ابو الوفاء درويش : ص ٥٢ — ٥٤ .

إلى القاهرة فى ديوان خاص ، مكيف الهواء ، وهو يحمل معه ما جمع من مال ، ومتاع . !

وأشهد ، لقد تسلط شيخ من هؤلاء الشيوخ . على عمدة قريتنا ، فأفسد عليه دينه وعقله ، حتى لقد ظن بهذا الشيطان أنه ولى من أولياء الله ، وأنه هو الذى يحميه من كيد أعدائه ، ويحفظ له منصب العمدية !!

وأشهد ، لقد كان هذا الشيطان — وقد تمكن من التسلط على العمدة — يأمر بإحضار زجاجات الويسكى من الخمر . فى صندوق يحمل إليه من البندر فيسارع العمدة باستدعاء من يذهب فوراً إلى البندر ، لاستحضار ما طلب الشيخ ، ولو كان بمئات الجنيهات ، والعمدة يدفع المطلوب راضياً سعيداً بما حقق للشيخ من أمنيات !!

والشيخ أو الشيطان ، لا يشرب الخمر سراً فإنه يعلم أن ذلك فضيحة له ولكنه يشربها جهراً على أعين الناس ، ويعبها عباً : كأنها الماء ، وذلك لكثرة معاقرته لها ، وإدمانه عليها !!

كل ذلك والقوم شهود ، فإذا همس أحدهم بكلمة إنكار ، قام فى وجهه من يرد عليه قائلا : لا تعترض ، إن هذا الخمر يتحول فى يد الشيخ إلى ماء !!

فانظر أيها المسلم ، إلى أى حد يبلغ السفه بالناس ، وما يدخل عليهم من دجل المدجلين وشعوذة المشعوذين !!

ولا تسأل بعد ذلك عما أصاب العمدة من بركات هذا الشيخ المدجل ، الذى يتزيا بزى التصوف ! لقد تدهورت صحة هذا العمدة جسداً وعقلا ،

وذهب كل ما كان قد ورث عن والده ، وما جمع هو من مال قبل أن يبتلى بهذا الشيطان ، ففصل من منصبه ، وانزوى فى بيته حطاماً بالياً . . ويبحث الناس عن هذا الشيخ فلا يرون له وجهاً ولا يسمعون عنه خبراً . . لقد اختفى كما تختفى الخفافيش حين يهجم عليها ضوء النهار !

ونذكر هنا قول أبى العلاء المعرى ، الذى فضح به صورة من تلك الصور ، للمدجلين والمشعوذين ممن يدخلون على الناس من جهة الدين ، وما هم من الدين على شىء . . يقول المعرى :

رويدك قد غررت وأنت حر ... بصاحب حيلة يعظ النساء

يحرم فيكم الصهباء صبحاً ... ويشربها على عمد مساء

يقول لكم غدوت بلا كساء ... وفى لذاتها رهن الكساء

فإذا كان هذا شأن الأحياء من أدعياء الولاية ، وما يبتلى به الناس منهم من خداع وتضليل ، فإن ما يساق إلى الناس من عالم الموتى ، أشد خطراً ، وأعظم بلاء ، وذلك بما ينسب إليهم من كرامات ، وما يروى عنهم من خوارق ، فى كشف الكروب ، وشفاء المرضى ، وقضاء الحوائج ، وغير ذلك مما يحمل العوام وأشباه العوام على التهافت على قبورهم ، والتخاشع عندها ، وسفح دموع الذلة والمسكنة عندها .

واقرأ أى كتاب من كتب المتصوفة ، تجد العجب مما يروى عن كرامات الأموات ، حتى إحياء الموتى ، كما ذكر الشعرانى فى طبقاته عن أحمد البدوى ، وأنه كان كل عام عند الاحتفال بمولده ، يطوف بالموتى فى

شتى أقطار الأرض،ومن جميع الملل والنحل،فيبعثهم من مرقدهم ، ويسوقهم بأكفانهم إلى ساحة مولده !![1] .

والدسوقى الذى أغلق أبواب النيران ، وفتح أبواب الجنان ، وخلع بيده الولاية على كل ولى[2] .

* * *

ونختم هذا الفصل بهذا النداء الحار المخلص ، الذى يهتف به من أعماقه المرحوم أبو الوفاء محمد درويش ـ خالصاً لوجه الله ، وأداء لما افترض الله على المسلم من النصح للمسلمين . . لعل كلمة حق تدخل إلى قلوب هؤلاء الشاردين عن دين الله ، الواقعين فى المآثم ، فتنزع من عقولهم وقلوبهم ما امتلأت به من هلوسات ووسوسات ، ألقى بها إليهم الشيطان وأولياء الشيطان فأفسدت عقيدتهم ، وذهبت بمعالم إنسانيتهم ، وإذا هم كالأنعام . أو هم أضل سبيلا .

يقول المرحوم الأستاذ « أبو الوفاء درويش » :

« ما أشبه الليلة بالبارحة ؟

« أراد رب العزة جل ثناؤه ، أن يظهر دينه على الدين كله ، ولو كره الكافرون ، فأتاح له فى كل جيل ، وفى كل قبيل ، من يقوم بدعوة الحق صريحة لا غموض فيها ولا التواء ، ومن يرسل صيحة الحق مدوية ، تنبه الغافلين ، وتوقظ النائمين ، ومن يبعث ضياء الحق وهاجاً ، يذهب بظلمات

---

(١) انظر طبقات الشعرانى جزء اول ص ١٦٣ .
(٢) انظر طبقات الشعرانى جزء اول ص ١٦٥ .

الأباطيل المتراكمة ، ومن يرسل رياح الحق فيه ، تبدد رماد الخرافات من جوهر الحقائق .

« ولكن الحق يؤذى المبطلين ، الذين لا يأكلون خبزهم بعرق جبينهم ، بل بفساد دينهم ! !

« فالدجال الذى يحترف التكهن بالغيب ، ويضع التمائم والتولات والتناجيس[1] ويزعم مشاركة الله فى الحيلولة بين المرء وقلبه ، فيبدل البغض حباً ، والحب بغضاً ، ويأخذ الرجال من نسائهم ، ويسخر الجن والمردة والشياطين لهم .

« وشيخ الطريق الذى يزعم أن بيده مفاتيح الفردوس ، يفتحها لمن يشاء ويغلقها دون من يشاء ، وأن النار فى قبضته ، يخمدها دون مريديه وإن كان أفسق الفاسقين ، ويسعرها لغيرهم ، وإن كانوا أصلح الصالحين !

« كل أولئك تؤذيهم دعوة الحق ، لأنها تنضب خزائنهم ، وتقف دون السيول الجراف من العطايا والمنن والهبات ، المتدفق إلى ديارهم ، وتحول دون القبلات التى تنصب على راحاتهم ، ودون القامات التى تنتصب لمرورهم ، وتنحنى لتحياتهم .

---

(١) التمائم : جمع تميمة ، وهى ما يعلقها العوام من خرز فى رقاب صغارهم ، منعا للحسد فى زعمهم ، كما اوحى اليهم بذلك المشعوذون الدجالون .. والتولات جمع تولة ، وهى ضروب من الاحجبة والبخور ، وغير ذلك مما يزعمه محترفو النصب من انه ترياق الحب للمحبين والعاشقين .. والتناجيس ، جمع تنجيس وهو ما يتخذ من النجاسات ، لقضاء الحاجات ، وذلك من العبث بعقول العوام بهذه الغرائب .. كل هذا من الشرك .

« وإنك لترى بعض الحانظين ـ أى حكام الأقاليم ـ الذين لا يسمحون لأحد أياً ما يكن، أن تقع عينه على نسائهم، إلا الشيخ، فإنه يراهن، ويصافحهن، ويمسح بيده (المباركة) على صدورهن، ورءوسهن، وبطونهن وظهورهن ثم يستبيح لنفسه أن يأخذ ما جمعن طول العام، بكد اليمين، وعرق الجبين . . !!

ثم يقول الشيخ أبو الوفاء، منذراً، ومحذراً من هذا الضلال :

« يا قـــــوم !

« عفا الله عنكم، وألهمكم الرشد والسداد، فى أقوالكم وأفعالكم . . الدنيا فانية فلا تؤثروها، والآخرة باقية، فلا تضيعوها، والحق أحق أن يتبع، وليس بعد الحق إلا الضلال !!

يا قـــــوم !

« تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم. ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله.

« يا ــــــوم !

« ألا ترضون أن يكون كتاب الله تعالى وسنة رسوله الأمين، حكماً بيننا وبينكم ؟

« هل تجدون فيهما ما يبيح لكم دعاء غير الله ؟ والاستعانة بغير الله، أو التوسل بغير طاعة الله ؟

« هل تجدون فيهما ما يبيح لكم البدع ومحدثات الأمور، وما لم يكن عليه أمر الرسول الكريم، وصحابته الأطهار ؟

« وهل تجدون فيهما ما يبيح لكم أن تضيفوا شيئاً إلى الشريعة الكاملة التى شرعها العليم الحكيم ، على لسان رسوله الأمين ؟

« هل تجدون فيهما أن الغيب يعلمه غير الله » من الدجالين والمهرجين ؟

« هل تجدون فيهما ما يبيح لكم أكل أموال الناس بالباطل ، باسم العادات والبركات والعطايا والهبات . ؟

« هل تجدون فيهما ما يبيح لكم وضع التماثيل على القبور ، أو كسوتها بالثياب أو رفع القباب عليها ؟

« يا قـــوم !

« إقرءوا تاريخ الجاهلية الأولى ، لتقفوا منه على ما كانوا يعملون ، لتطهروا أنفسكم من أدرانهم ، وتربئوا بإيمانكم عن كفرهم ، وبتوحيدكم عن شركهم ؟

« ستعلمون إذا قرأتم القرآن الكريم ، أن الجاهليين ، كانوا إذا حزبهم أمر ، أو مسهم ضر ، ينسون الأصنام ، ويدعون رب الأنام . . فإذا تجلى لكم ذلك بكيتم على المسلمين الذين يدعون الموتى فى السراء والضراء ، والنعماء والبأساء .

ثم يختم الأستاذ درويش صيحته بقوله :

« ولكن وا أسفاه !!

« هذه صيحة فى واد ، ولن تصل إلا إلى آذان الأصحاء الذين هم

عنها مستغنون . أما المرضى الذين هم إليها مفتقرون ، فهيهات أن تصل إلى آذانهم ، هيهات !!

« فدون ذلك العناد ، والتعصب ، والجمود ، والتواصى بمقاطعة كتب الدعاة والمصلحين !!

« ولكنا بنصر الله واثقون . .

« ولا بد من صنعا ، وإن طال السفر !! »[1] .

وصدق الله العظيم : « إنها لإحدى الكبر ، نذيراً للبشر ، لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر » (سورة المدثر : ٢٥ — ٢٧) .

* * *

---

(١) من كتاب صيحة الحق ، للمرحوم الاستاذ ابو الوفاء محمد درويش ص ٤٤ — ٤٩ .

الحساب الختامى

التصوف — ليس من الإسلام

الكفر الصراح ، دون النفاق وزرا ، وأهون منه خطباً . . لأن الكافر لا يخفى على المؤمن أمره ، ولا يغيب عنه خطره ، فهو على حذر دائم منه ، وعلى بصيرة مما يقول أو يفعل . .

أما المنافق : الذى يظهر الإيمان ويبطن الكفر ، فهو عدو فى ثياب صديق ، غاش فى وجه ناصح ، يقع كثير من الناس فى شباك كيده ومكره ، ويشرب كثير من الناس السم من يده ، على أنه الشهد المصفى ! !

ولهذا جعل الله المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ، تطأ رؤوسهم أقدام الكافرين والملحدين . .

وفى هذا يقول الله تعالى : « إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا » (النساء : ١٤٥) . .

ويقول سبحانه : « وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها ، هى حسبهم ، ولعنهم الله ، ولهم عذاب مقيم » (التوبة : ٦٨) . . فقدم المنافقين والمنافقات على الكفار ، فى موقف العذاب المقيم فى نار جهنم .

وإن الإسلام ، لم يلق من الكيد له ، ولأتباعه ، مثل ما لقى من أولئك المنافقين الذين يلبسون ثوب الإسلام ظاهراً ، يتسترون به ، ليأخذوا مكانهم بين المسلمين ، ثم ينفثون سمومهم فى العوام ، وأشباه العوام ، الذين تبهرهم

الكلمات البراقة ، والبدع المستحدثة ، والدعاوى الكاذبة ، أشبه بالفراش الذى إذا رأى ضوء النار انجذب إليه ، فكان للنار وقوداً . .

وفى الناس هوى إلى كل جديد غريب ، وتعلق بكل بدع مستحدث ، فإذا جاء ذلك عن طريق الدين كانت النفوس التى لم يتمكن منها الدين الصحيح ، ولم تتحصن بحصنه القوى المتين ، المقام على أسس من أحكامه ومبادئه — كانت تلك النفوس مهيأة لتقبل هذه البدع ، والجرى وراء هذا السراب الذى يلوح لها من خلال تلك الضلالات التى تخرج من أفواه ذوى الأهواء ، وطلاب الدنيا !

ومنذ صدر الإسلام الأول ، ابتلى الاسلام والمسلمون بهذا البلاء العظيم من المارقين عن الدين باسم الدين ، كالخوارج ، والمعتزلة ، والغلاة فى على ابن أبى طالب — رضى الله عنه الذين ألهوه ، حتى لقد خدد لهم — رضى الله عنه — الأخاديد وأوقد فيها النار ، ثم عرضهم على النار ، إن لم يرجعوا عن هذا الضلال . فلم يزدهم ذلك إلا إصراراً على أنه الإله . ووسوس لهم الشيطان ، بما يقيم لهم الحجة على ضلالهم ، فقالوا لعلى : الآن تأكد لنا أنك الله ، لأنه لا يعذب بالنار إلا الله . . ثم ألقوا بأنفسهم فى الأخاديد ! !

وكان على رأس هذه الفتنة ، اليهودي المنافق . عبد الله بن سبأ . الذى دخل الإسلام نفاقا ليكيد له وللمسلمين [1] . . ثم توالدت من هذه

---

(١) يقول المقريزى فى خططه : « قد اظهر عبد الله بن سبأ الحميرى اليهودى ، الاسلام ليكيد لأهله ، فكان هو اصل اثارة الناس على عثمان — رضى الله عنه ، وأحرق على رضى الله عنه طوائف كثيرة اعلنوا بالوهيته » .

الفرق الضالة . فرق . توالدت منها فرق ، كلها تكيد لدين الله . وتعمل على تشتيت وحدة الأمة الاسلامية . وإضعاف شأنها ، حتى صارت الأمة أمما ، لا تجمعها جامعة من وحدة العقيدة ، فتمزقت أشلاؤها ، وذهب كل ذى هوى بشلو من أشلائها . .

ثم لقد كان لظهور بدعة التصوف — فى القرن الثانى الهجرى — على تلك الصورة التى يقوم عليها شيوخ ، لكل منهم طريقته ، ولكل طريقة مراسمها وطقوسها التى تجتمع عليها ألوف مؤلفة من المريدين ، والتلاميذ ، وكل طريقة ومريدوها وتلاميذها ، ترى نفسها أمة قائمة بذاتها ، تنصب العداوة للطرق الأخرى ، وتنازعها سلطانها ونفوذها . .

وإنه لكى تجذب الطريقة إليها أكبر عدد من الناس ، كان عليها أن تجدد فى مراسمها وطقوسها ، وأن تستكثر من صور الأوراد والأذكار ، وأن تسوق زحوفا من الكذب والافتراء ، لكرامات أقطابها وشيوخها الذين قاموا على الطريق ! !

وكان من هذا التنافس فى كسب الشهرة والذيوع بين أصحاب الطرق ، أن أكثروا من الأحاديث الموضوعة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحادوا عن الصحيح من السنة إلى الموضوع والضعيف ، ليقووا به دعاويهم ويحتجوا به لبطلاتهم . .

ثم كان من هذا التنافس أيضاً بين أصحاب الطرق ، أن تواردوا على تفسير آيات القرآن الكريم تفسيراً باطنياً ، إذ كان هذا التفسير الباطنى يتسع لكل المقولات المتناقضة ، الفاسدة ، التى لا ترجع إلى مفاهيم اللغة — ولا

إلى دلالات الألفاظ ، وإنما هى أشبه بتأويل أضغاث الأحلام ، يؤولها كل متأول حسب هواه .

ثم أيضاً لم يكتف أصحاب الطرق الصوفية بوضع الأحاديث المكذوبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا بتأويلاتهم الباطنية لآيات القرآن الكريم ، بل عمدوا إلى تلك « الشطحات » من الكلام الملغز المعمى . وإدخال كثير من الأصوات المحكية عن الحيوانات من البهائم والطيور . يصلونها بأورادهم ، ليوهموا أتباعهم أنها من الأسرار الربانيـــة ، ومن المضنون به على غير أهله . . كما أدخلوا فى أورادهم كثيراً من الألفـــاظ الأعجمية ، التى يرددونها فى أذكارهم ، ولا يعرفون لها معنى ، وقد يكون من معانيها الكفر والالحاد ! ! فما يردده بعض أصحاب الطرق فى دعائهم : أحم ، كسق ، سقف ، حم ، ها . . آمين » ! ! ومن أوراد الطريقة البرهانية على السبح ذوات الذيول قولهم : ده . . ده . . كه . . به ، به . . إلى آخر هذا الهوس الصبيانى الذى يغيب به وعى المريدين ، إن كان لهم وعى أصلاً !!

●✱●

ومن عالم الصوفية . ولدت فى هذا العصر . فرقتان من فرق الضلال هما فرقتا : القاديانية والبهائية . وهما ينتسبان إلى الاسلام ، ويتسمى زعماؤهما بأسماء إسلامية ، بل بأحب الأسماء وأكرمها عند المسلمين . فمؤسس المذهب القاديانى يسمى : غلام أحمد . . وقد بلغ الفجور بهذا الغلام ، الذى ظهر فى أواخر النصف الأول ، من القرن التاسع عشر الميلادى ، فى مدينة قاديان « بالهند » بلغ به الفجور أن ظل يتنقل فى مقامات الكذب والادعاء من

أنه رسول ، مجدد للدعوة إلى الإسلام ، ثم انتقل إلى ادعاء أنه المسيح ، وأن روح الله حلت فيه . . ثم ادعى أخيراً أنه هو الله !

وهكذا ، إذا وجد المشعوذون من جهــــل الناس وغبائهم ما يغريهم بالشعوذات ، سولت لهم أنفسهم بالتمادى فى أباطيلهم ومدعياتهم ، حتى يقيموا من أنفسهم أربابا يتخذون من هؤلاء الأغبياء الســـذج عبيداً أذلاء لهم . .

وعلى طريق القاديانى سار أحد تلاميذه ، الذى لقب نفسه « بهاء الله » فأعلن فى سنة ١٨٦٠ أنه المظهر الأكمل الذى بشر به أستاذه غلام أحمـد القاديانى ! !

ويقول المستشرق الألمانى « جولد تسيهر » متحدثا عن الصلة التى بين ميرزا غلام أحمد القاديانى ، وبين تلميذه الملقب « بهاء الله » مؤسس البهائية يقــــول :

« وعلى هذا فإن غلام أحمد القاديانى ، كان السابق الممهد لبهاء الله . . فالقاديانى بالنسبة لبهاء الله كيوحنا المعمدان بالنسبة للمسيح . وفى شخص بهاء الله عادت الروح الإلهية للظهور كى تنجز على الوجه الأكمل العمل الذى مهد له هذا الداعية الذى ظهر قبله .

« فبهاء الله أعظم من القاديانى — الذى لقب نفسه « بالباب » لأن الباب هو القائم والبهاء هو « القيوم » أى الذى يظل ويبقى أبداً » (١)

---

(١) العقيدة والشريعة فى الاسلام ، لجولد تسيهر ص ٢٧٥ .

ولا شك أن الذى هيأ للقاديانى والبهائى أن يدعيا هذه المدعيات الباطلة وأن يجرا وراءهما أعداداً لاحصر لها من الأغرار والدهماء ، الذين تعبدوا لهما واتخذوهما إلهين من دون الله — لا شك أن الذى هيأ لهذين المشعوذين هذا المجال الفسيح للتسلط على عقول الناس ، هو مافاض به عالم المتصوفة من شطحات مغرقة فى الباطنية ، التى لا تتقيد بحدود ، ولاتلتزم بمفهوم ، وذلك مما يسمح بالتشويش على الناس والعبث بعقولهم ، حيث يخيل لهم أن وراء كل كلمة من تلك الشطحات أسراراً إلهية ، وعلوماً ربانيـة . . وهـكذا يستطيع كل طالب سلطة أو طامع فى مال ، أن يدخل من هذا الباب الواسع لمدعيات المدعين وخداع المخادعين » !

ويكشف الأستاذ أبو الحسن الندوى عن الصلة بين التصوف وبين هذين المذهبين الضالين : القاديانية والبهائية ، اللذين ظهرا فى الهند فى أوائل القرن التاسع عشر ، ولايزالان إلى اليوم يتحركان وينتشران فى محيط الأمة الاسلامية وفى العالم كله ، يقول أبو الحسن الندوى :

« أخفقت ثورة الهند الـكبرى : (١٨٥٧) وأصاب المسلمين فى الهند دهشة من هذا الغرور الاستعمارى ، ونـكبة الهزيمـة . . وقامت الدولة المنتصرة — بريطانيا — تنشر ثقافتها وحضارتها . . وانتشر القسوس فى الهند ، يدعون إلى المسيحية ويعملون على زعزعة العقيدة الإسلامية ، وإضعاف الثقة بها ، وبمصادر الشريعة ، وكثرت المناظرات بين القسوس وعلماء الإسلام ، انتصر فيها العلماء ، وظهرت فيها قوة حجج الإسلام ، ولـكن تلا ذلك قلق فى النفوس ، وتبلبل فى الأفكار والمعتقدات » .

ثم يقول الندوى :

« وهنا نشط المحترفون بالتصوف ، وأدعياء العلم ، في نشر شطحاتهم وإلهاماتهم ؛ وقويت رغبة العامة والدهماء في التطلع إلى الأمور الغريبة ، والخوارق العجيبة والأخبار الغريبة ، وكثر المتطفلون والأدعياء ، وتهيأت النفوس والعقول لكل أمر غريب ، وشيء جديد ، ولكل دعوة طريقة ، أو حديث خرافة ! ! »

ثم يمضي أبو الحسن الندوى قائلا :

« واستولى على مسلمي الهند اليأس ، والتذمر والقلق ، ويئس الناس من إصلاح الأوضاع ، بالأساليب العادية الطبيعية ، وبدءوا يتطلعون إلى منقذ جديد ، وكثر الحديث عن الفتن ، والعصر الأخير [1] ، وكثرت التنبؤات والإلهامات وذاعت المنامات والتكهنات ... [2] .

وهذا التصوير لأحوال الهند في تلك الفترة التي تهيأ فيها الجو لظهور القادياني ، هو نفس الصورة التي هيأت الفرصة المواتية لظهور التصوف في المحيط الإسلامي ، والذي ظهر في العصر العباسي ، حيث زاد اختلاط الدولة بالأمم الأخرى من فرس وروم ، وهنود ، وغير ذلك ، وحيث كثرت المنازعات الدينية والسياسية والاجتماعية ، وورد على المسلمين من ذلك ما أثار

---

(١) يشير الندوى الى ما يروى من الآثار ، عن اخر الزمان ، وما يقع بين يدى الساعة من ارهاصات بها ومن ظهور الخوارق على يد المهدى المنتظر و المسيح .. وهكذا الناس كلما تحيط بهم الكروب ، تهجس فى شعورهم الهواجس بالخوارق التى تغير تلك الاحوال المسلطة عليهم ، وهنا ينتهزها المشعوذون فرصة لتمثيل هذه المسرحيات الهزلية التى يتهافت الناس عليها فرارا من الواقع المؤلم الى هذه الاضغاث من الاحلام .

(٢) من كتاب القاديانى والقاديانية ، لابى الحسن الندوى .

البلبلة والاضطراب فى النفوس بما هجم عليهم من موروثات تلك الأمم ، فى عقائدها ، وفى عاداتها وتقاليدها . . فظهر فى المسلمين الفلاسفة الذين تتلمذوا على فلسفة اليونان ، كما قام فيهم أصحاب الدعوات الخارجة على الملة مثل جماعة « إخوان الصفاء » وجماعات « الشعوبية » الذين ينتقصون من أقدار العرب ، الأمر الذى انسحب على الاستخفاف بالدين الذى جاء به النبى العربى ، محمد صلوات الله وسلامه عليه . . حتى إن شاعرا من أصل فارسى ، هو « مهيار الديلمى » يصرخ فى وجه العرب بقوله :

وجدى كسرى على إيوانه أين فى الناس أب مثل أبى ؟

وحتى إن الشاعر « أبا نواس » الفارسى الأصل ، ليقول ساخرا من العرب ، وما كان لهم من عادات :

عاج الشقى على ربع يسائله وعجت أسأل عن خمارة البلد

ويقول مستهزئا ساخرا من طعام العرب ، وشرابهم :

إذا راب الحليب فبل عليه ولا تأثم ، فما فى ذاك حوب[1]

وهكذا كثر التهجم على العرب ، وعلى كل ما دخل به العرب على الأمم التى دخلت فى الاسلام ، من عادات وتقاليد ، ومن دين وعقيدة ، فشاع الالحاد ، وكثر الزنادقة ، وغصت بغداد بدور الخلاعة والمجون ، وبحانات الخمر ، والرقص والغناء ، حتى لقد دخلت بيوت الخلفاء ، فكان من شعرائهم المجان والخلعاء ، أمثال أبى نواس ، وغيره !

---

(١) الحوب : الذنب .

وحين تكثر الاضطرابات ، وتتداعى الفتن على الناس ، تتهيأ النفوس للانجذاب نحو الغرائب والخوارق ، التى يخيل إليهم منها أنها الحبل الممدود لهم من عالم الغيب ، ليمسكوا به فى متماوج التيارات العاصفة ، التى تضطرب فيها سفينة الحياة .

وتلك هى فرصة الأدعياء والمشعوذين ، الذين يخيل إليهم أنهم مبعوثوا العناية الربانية لإنقاذ الناس مما هم فيه !!

وإنه لولا هــذه الأمواج المتزاحمة من الفتن والاضطرابات السياسية والاجتماعية والدينية ، لما أتيحت الفرصة لظهور التصوف فى محيط الإسلام .

وإذن فميلاد التصوف فى الأمة الإسلامية لم يكن ميلاداً شرعياً ، وإنما ولد لغير رشدة ، أشبه باللقطاء ، وأدعياء النسب !!

واللیالى من الزمان حبالى   مثقلات يلدن كل عجيبة !!

● * ●

ولقد كان ظهور التصوف فى الإسلام ، فرصة انتهزها أعداء الإسلام فدخل كثير منهم فى عالم التصوف ، ونشروا فيه مذاهبهم الفاسدة ، من الحلول ووحدة الوجود ، والقول بإلهين : للخير والشر ، أو النور والظلام ، وبظهور الله فى بعض الأشخاص .

وكان لليهود دور كبير فى مساندة كل دعوة منحرفة عن الإسلام .

يقول المستشرق « جولد تسيهر » فيما كان لليهود من مساندة بالمال والأقوال للبهائية :

« وبلغ الأمر ببعض اليهود المتحمسين للبهائية ، أن استخلصوا من دفائن العهد القديم « التوراة » وتنبؤات أسفاره ، ما ينبيء بظهور « بهــاء الله » عباس أفندى — وزعموا أن كل آية تشيد بمجد « يهوه » — أى الله — أنها تعنى ظهور مخلص للعالم فى شخص « بهاء الله » ، كما نسبوا جزءاً كبيراً من الإشارات والتلميحات التى في الأسفار ، إلى جبل الكرمل - بحلب - الذى تجلى على مقربة منه ، نور الله ، وأضاء على الكون كله ، وذلك فى نهاية القرن الثامن عشر الميلادى .

ثم يقول جولد تسيهر :

« وهذا فضلا عن أنهم — أى اليهود — لم ينسوا أن يستخرجوا مما يحويه سفر « دانيال » من الرؤى ، ما ينبيء عن قيام الحركة التى أوجدها « الباب » (القاديانى) وأن يلتمسوا بتأويلها ما يدل على وقت حدوثها . . فالثلاثمائة والألفان من الأيام (أى السنين) التى بعد انقضائها يتبرأ القدس[1] تنتهى تبعاً لتقديرات اليهود سنة ١٨٤٤ بالنسبة للتقويم المسيحى ، وهى السنة التى ظهر فيها (القاديانى) وأوحى إليه فيها أنه (الباب) الذى حل فيه العقل الكلى[2] » أى الله !!

●

ولا شك أن التصوف ، قد اعتمد اعتماداً كثيراً على ما فى الديانات الهندية من روحانيات ، تسرى فى عوالم الموجودات حتى الجماد . . ففى المذاهب

(١) الاصحاح الثامن ، عدد : ١٤ من سفر دانيال ، الذى هو احد اسفار التوراة .

(٢) العقيدة والشريعة فى الاسلام ، لجولد تسيهر ص ٢٨٠ — ٢٧١ .

الهندية التي لا حصر لها ، تقديس لكل شيء ، وعبادة لكل شيء ، من جماد ونبات وحيوان !

يقول المستشرق جولد تسيهر ، كاشفاً عما دخل في الإسلام ، عن طريق التصوف من معتقدات الهند ودياناتها :

« أما في الحياة الدينية في الإسلام — فإنا نصادف ظواهر فريدة لا نظير لها . . فالتعاليم الأساسية في الإسلام ، عدلت تعديلا يتفق مع العقائد الهندية ، وهناك مثالا يستوجب الدهش ، ولو أنه لا يمثل الروح العامة الغالبة ، وهو جملة تظهر أحياناً منقوشة على مسكوكات — أي نقود — الأمراء المسلمين في الهند ، وتكشف عن عقيدتهم الإسلامية المزدوجة (التي تجمع بين الديانة الهندية والديانة الإسلامية) وهذا النقش هو : « اللامتناهي ، هو الواحد الفرد ، وقد تجسد في محمد »[1] !!

وهذا ما ذهب إليه المتصوفة فيما يقولونه عن « الحقيقة المحمدية » . وأن من محمد ، خلق الله العرش ، والكرسي واللوح والقلم ، والسموات ، وكل ما في هذا الوجود من مخلوقات !

ثم يقول جولد تسيهر :

« إن تقديس الأولياء في الإسلام ، قد هيأ المجال للعقائد الشعبية لكي تؤثر على الشعائر الإسلامية ، ففشت فيها العناصر الهندية ، وتفاقم أثرها

---

(١) المصدر السابق ص ٢٨٢ .

شيئاً فشيئاً حتى أنتجت ظواهر دينية فريدة تسترعى النظر ، فتحولت الآلهة الهندية القديمة إلى مجموعة من الأولياء »[1] .

« ولم يحدث فى أى قطر من الأقطار التى فتحها المسلمون ، أن زودنا الدين الإسلامى بأمثلة كثيرة كهذه ، تدل على استبقاء العناصر الوثنية والاحتفاظ بها كما حدث فى بلاد الهند ، وجزر الهند الشرقية المجاورة لها ، التى تشتمل على ظواهر لا حصر لها فى الدلالة على امتزاج الديانات الوثنية بالإسلام »[2] .

★●★

وبعـــد :

فما هو موقف المسلمين من التصوف اليوم ، وما يضم تحت جناحيه من جموع كثيرة من المسلمين ، تتغذى من هذه الأوهام ، وتلك الخرافات التى ينشرها شيوخ المتصوفة فيهم ، ويلقون إليهم أنهم هم المؤهلون لقيادة الأمة الإسلامية ، وخلاصها مما هى فيه من ضعف وتخلف ؟

وإنه لكى يتحدد موقف المسلمين من التصوف ، والمتصوفة نضع الحقائق الآتية :

الحقيقة الأولى :

إنه ليس فى الإسلام إلا الإسلام ، فلا تصوف ، ولا غير التصوف ، مما يتردد على أفواه الناس من مذاهب . . فإما إسلام ، أو لا إسلام ، وإما أن

---

(١) وكذلك فى كثير من بلاد المسلمين ، تحولت أضرحة الأولياء الى الهة تعبد من دون الله .

(٢) العقيدة والشريعة فى الاسلام ، اجولد تسيهر ص ٢٧٦ .

يكون المسلم مسلماً وحسب ، أو غير مســلم . . والتصوف وارد غريب على الإسلام ، فلا ذكر له ، في كتاب الله ، ولا في سنة رسوله ﷺ، كما أنه وافد غريب على اللغة العربية ، لم يجر له ذكر على لسان صحابي من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا على لسان أحد من التابعين ! كما أنه لم تعرفه اللغة العربية في جاهليتها ، وعلى مدى قرنين من ظهور الإسلام .

الحقيقة الثانية :

أن التصوف . أوجد فرقة في الأمة الإسلامية . فهناك مسلمون غير متصوفين ومسلمون متصوفون . وهذه ظاهرة من شأنهـا أن تفرق الجماعة الإسلامية . في وحدة مشاعرها . حيث ينظر كل فريق إلى الفريق الآخر نظرة الغريب إلى الغريب . إن لم تـكن نظرة العدو إلى العدو !!

ولما كان الإسلام، هو الأصل ، وهو دين الله الذي يقول الله تعالى فيه: « إن الدين عند الله الإســلام » (آل عمران : ١٩) . . ويقول سبحانه : « ملة أبيكم إبراهيم ، هو سماكم المسلمين من قبل » (الحج : ٧٨) . وكان التصوف شيئاً حادثاً في الإسلام ؛ فوجب الرجوع إلى الأصل ؛ وترك هذا الحادث ؛ حتى لا تفترق الأمة .

فإن كان التصوف عند أهله إسلاماً خالصاً ؛ فليس ثمة داع إلى إضافته إلى الإسلام ؛ فإن الإسلام بذاته في غنى عن أية إضافة تضاف إليه والله تعالى يقول : « اليوم أكملت لكم دينـكم ؛ وأتممت عليـكم نعمتي ؛ ورضيت لـكم الإسلام دينا » (المائدة : ٤) . . وإن كان التصوف شيئاً غير الإسلام فليكن ديناً لأهله ، لا صلة للإسلام به ؛ ليدخله من يدخله عن بينة ؛ وليجتنبه من يجتنبه عن بينة !!

الحقيقة الثالثة :

أن التصوف يشيع بين أهله البطالة ومجانبة العمل فى الحياة ، وهذا من شأنه أن يضعف الأمة الاسلامية . إذا شاع فيها هذا الاتجاه . وكثر فيها الآخذون به ، بدعوى الزهد فى الدنيا ، والفرار منها !

والإسلام دعوة إلى العمل ، وإلى عمارة الأرض ، والتمكن منها ، والاستيلاء على كل ما فيها من خير ، وبغير هذا لاتقوم للاسلام دولة ، ولا يقام للمسلمين وزن . . فتتخطفهم الأمم ، وتتحكم فى دنياهم ودينهم جميعاً . . والله تعالى يقول : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا ، فامشوا فى مناكبها ، وكلوا من رزقه » (الملك : ١٥) ويقول سبحانه : « وعد الله الذين آمنوا منكم ، وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً » (النور : ٥٥) . . فهذا الاستخلاف فى الأرض الذى وعد الله تعالى به الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، لا يكون إلا بالعمل والعمل الجاد المثمر الذى يجعلهم مؤهلين للخلافة على الأرض ، وامتلاك زمام الأمر فيها . فإذا كان لهم ذلك مكن الله لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وألبسهم لباس الأمن ، فعبدوه عبادة خالصة ، لا شرك فيها لأية قوة خارجة عنهم ، قائمة عليهم . . فإنه لا دين إلا مع دنيا تحوط أهله وتدفع عنهم ، وتحفظ عليهم حياتهم .

يقول الرسول — صلوات الله وسلامه عليه : « من أحب دنياه ، أضر بآخرته ، ومن أحب آخرته ، أضر بدنياه ، فآثروا ما يبقى على ما يفنى » .

ومعنى الحب الذى يشير إليه الرسول المكريم ، هو الحب الذى لا يبقى وراءه مكاناً لحب شىء غيره . .

فمن أحب الدنيا كل الحب ، ضاعت منه آخرته ، ومن أحب الآخرة كل الحب ضاعت منه دنياه . . ومعنى قوله — صلى الله عليه وسلم : «فآثروا ما يبقى على ما يفنى » هو الجمع بين حب الدنيا والآخرة ، مع تفضيـــل حب الآخرة . . فاذا عرض أمر من أمور الدنيا فيه جور على الآخرة ، طرحه المرء من وراءه ، وآثر ما الآخرة عليه . .

وفى شريعة الاسلام ، ركن من أركانه الخمسة التى بنى عليها ، وهو الزكاة ، وهى فريضة لا تؤدى إلا من ثمرات الأعمال التى يعملها المسلم ، فيكفى بها نفسه وأهله ، ثم يبقى منها فضل يعود به على الفقراء والمساكين ، والغارمين ، وعلى الجهاد فى سبيل الله ، بالسلاح والعتاد للمجاهدين ، والله تعالى يقول : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » (الأنفال : ٦٠) . فمن أين تكون للمسلمين القوة التى يدفعون بها الأعداء المتربصين بهم ، إذا لم يكن عمل تملىء به أيديهم من مال ومتاع ، يفضل عن حاجتهم ؟

ولو ترك المسلمون العمل فى هذه الحياة ، من زراعة ، وتجارة ، وصناعة وغيرها ، لما كان لهم مكان بين الناس فيها ، ولسقطت من أركان دينهم هذه الفريضة ، فريضة الزكاة ، التى قرنها الله تعالى بالصلاة فى أكثر من سبعين موضعاً ، كما فى قوله تعالى : « قد أفلح المؤمنون ، الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضـــون ، والذين هم للزكاة فاعلون » (المؤمنون : ١ — ٤) وكما يقول سبحانه : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله

مخلصين له الدين ، حنفاء ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، وذلك دين القيمة »
(سورة البينة : ٤) . . وقوله جل شأنه : « وأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ،
واركعوا مع الراكعين » (البقرة : ٤٣) . . إلى غير ذلك مما جاء في الزكاة ،
وفي المؤتين الزكاة ، وفي الصدقات والمتصدقين بها ، من ثناء عليهم من ربهم ،
ومن وعد كريم منه سبحانه ، بالفوز برضوانه ، ونعيم جناته .

والمقطوع به ، أن المتصوفة يسقطون الزكاة في عالمهم الذي يعيشون فيه ،
بل إنهم ليأخذون من أيدي الناس ما يقدرون على أخذه منهم ، احتيالا ،
ونصباً ، أو سرقة واختلاساً ، بأكثر من أسلوب من أساليب السرقة
والاختلاس . . وفي الحديث الشريف « لأن يأخذ أحدكم أحبله — جمع
حبل — ثم يأتي الجبل فيأتي بحزمة من حطب على ظهره ، فيكف الله بها
وجهه . — وفي رواية — فيستعين بثمنها ، خير له من أن يسأل الناس
أعطوه أو منعوه » (رواه — البخاري ، عن الزبير رضي الله عنه) .

الحقيقة الرابعة :

ما يدعيه المتصوفة من التوكل على الله . وترك الأخذ بالأسباب . التي
يطلب الرزق من وجوهها ، لسد مطالب الحياة — هو ادعاء باطل . فاسد ،
لا يصلح عليه أمر دين أو دنيا . بل هو حجة لذي الهمم الفاترة ، والعزائم
الخائرة ، وهو تواكل لا توكل . . لأن التوكل إنما يكون مع مباشرة
الأسباب ، والأخذ بكل ماهو في مقدور الإنسان ، إزاء العمل الذي يباشره
وفي الحديث الشريف : « اعقلها وتوكل » ذلك ما قاله النبي الكريم ، لمن
جاءه من الأعراب بقول له : أأدع ناقتي خارج الدار ، وأتوكل على الله ؟
فقال له الرسول صلوات الله وسلامه عليه . « اعقلها ، وتوكل » ! !

أما التوكل على الاطلاق من غير مباشرة الأسباب ؛ فهو مكر بالله ، وإبطال لسنته الكونية !

ولو كان هؤلاء المتصوفة صادقين حقاً فى دعوى التوكل ، لما مدوا أيديهم إلى تناول طعام ؛ أو لبس جلباب ؛ ولما سعوا إلى الأضرحة يلتمسون ما يحمل إليهم فيها من أيدى المتمسحين بتلك الأضرحة ؛ ولكنهم لا يفعلون شيئاً من هذا ، بل يجرون لاهثين إلى حيث تنصب لهم الموائد ؛ وتقدم لهم العطايا ؛ فيأكلون فى نهم ؛ ويحملون إلى بيوتهم ما يقدرون على حمله .

« روى أن رجلا من هؤلاء المتواكلين ، جاء إلى أحمد بن حنبل ؛ فقال له إنى أريد أن أخرج إلى مكة على الله من غير زاد ! ! فقال له الإمام : إذا كان هذا ؛ فاخرج وحدك فى غير القافلة ! ! فقال الرجل : لا ؛ إلا معهم ! ! فقال له الإمام ؛ فعلى جرب القوم إذن تتوكل !! »

وهكذا يفضح ابن حنبل ، رضى الله عنه — هذا الدعى الذى يلبس ثوب التواكل ، وقد كتب عليه شارة التوكل . . !!

فالعمل فى الحياة لكسب الرزق ، وسد حاجة الأهل والولد ، وإعانة الفقير والمسكين والإنفاق فى سبيل الله وتجهيز المجاهدين — هو جهاد فى سبيل الله ، وعبادة من أرضى العبادات لله . .

ولكن المتصوفة ، أو شيوخ المتصوفة بمعنى أصح ، يرون أن المتصوف ، يجب — لكى يحمى قانون التصوف — أن يخلى يده من العمل وأن يمد يده للناس لإذلالها ، وكسر مطامعها حتى إنه إذا كان عنده مال ، ودخل فى عالم المتصوفة نفض يده من هذا المال ، ورمى به بعيداً عنه !!

حكى أبو حامد الغزالى فى كتابه الإحياء ، هذه الحادثة فقال :

« كان بعض الشيوخ فى بدء إرادته — أى فى بدء كونه مريداً — أنه كان يكسل عن القيام — فى الصلاة والذكر — فألزم نفسه القيام على رأسه طول الليل لتسمح نفسه القيام عن طوع » ! !

وحكى الغزالى فى كتابه هذا أيضاً : أن بعضهم — أى المتصوفة — عالج حب المال ، بأن جمع جميع ماله ، ورماه فى البحر ، إذ خاف من تفرقته على الناس ، رعونة الجود ، ورياء البذل[1] ! !

وحكى الغزالى عن بعضهم ، أنه كان يستأجر من يشتمه على ملأ من الناس ليعود نفسه الحلم !

ويعلق ابن الجوزى فى كتابه « تلبيس إبليس » على هذه المرويات التى أودعها الغزالى ، كتاب (الإحياء) .

فيقول :

« أعجب من جميع هؤلاء عندى أبو حامد ... إذ كيف حكى هذه الأشياء ولم ينكرها ؟ وكيف ينكرها ، وقد أتى بها فى معرض التعليم ، وقال : أى الغزالى قبل أن يورد هذه الحكايات .

« ينبغى للشيخ ، أن ينظر إلى حالة المبتدىء ، فإن رأى معه مالا فاضلا عن قدر حاجته ، أخذه وصرفه فى الخير ، وفرغ قلبه منه ، حتى لا يلتفت

(١) اى ان هذا الأحمق الجهول رمى بهذه النعمة التى فى يده ، ولم يضعها فى يد الفقراء المساكين بحجة انه يخشى ان يوصف عند نفسه بالحمق ، او بالرياء .. وأى حمق اعظم من هذا الحمق الذى حمله على القاء المال فى البحر وضمن به ان ينتفع به احد ؟

إليه ؛ وإن رأى الكبر قد غلب عليه أمره أن يخرج إلى السوق للكد — أى التسول — ويكلفه السؤال والمواظبة على ذلك ... !!

ثم يقول ابن الجوزى :

« وإنى لأتعجب من أبى حامد — الغزالى — كيف يأمر بهذه الأشياء التى تخالف الشريعة ؟ وكيف يحل القيام على الرأس طول الليل ، فينعكس الدم إلى وجه صاحبه ، ويورثه ذلك مرضاً شديداً ؟

« وكيف يحل رمى المال فى البحر ؟

وهل يحل سب مسلم بلا سبب؟ (ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: سباب المسلم فسوق !!) وهل يجوز للمسلم أن يستأجر على ذلك من يسبه ؟

« وكيف يحل السؤال لمن يقدر على الكسب ؟ (ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (يأتى السائل يوم القيامة ، وليس فى وجهه مزعة لحم) ؟

ثم يختم ابن الجوزى اعتراضه على هذا الذى يقول به الغزالى بقوله :
فما أرخص ما باع أبو حامد الغزالى ، الفقه بالتصوف !! (١)

ونقول : إن دعوة المتصوفة أتباعهم إلى طرح الدنيا ، ومعاداتهم للمال هو مما يخالف شرع الله أشد المخالفة ، ومما يخرج بهم عن سنن الحياة التى أقام الله الناس عليها ، والله تعالى يقول : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » . (الكهف : ٤٧) ويقول سبحانه مضيفا المال إلى ذاته الكريمة : « وآتوهم من مال الله الذى آتاكم » (النور : ٣٣) .

---

(١) تلبيس ابليس لابن الجوزى ص : ٣٥٣ .

ويقول الرسول الكريم : « نعم المال الصالح للعبد الصالح » .

إن الهروب من الدنيا ، ومن ملابسة العمل فيها ، وقطف ثمرات العمل ، هو مسخ لآدمية الإنسان ، ومحو لإرادته ، وما يكون منه من ابتلاء فيما آتاه الله ، ليكون من الشاكرين ، أو الكافرين .

الحقيقة الخامسة :

هذه الأضرحة والقباب التى يقيمها المتصوفة على بعض الموتى ، ويتخذونها دور عبادة لهم ، ومواسم حج فى كل مولد لصاحب الضريح — هى بدعة من أخطر البدع التى ظهرت فى الإسلام . والتى جعلت من الشرك دينا ينازع التوحيد الذى عليه المسلمون .

فلقد تحول كثير من المسلمين ، تحت دعاية المتصوفة إلى الجثوم حول هذه القبور ، والهتاف بالراقدين فيها ، طالبين منهم ما يطلب المؤمنون من ربهم ، حتى إن كثيرا من المسلمين ليذهبون إلى المساجد التى تضم ضريحا من تلك الأضرحة ، لا ليؤدوا الصلاة ، وإنما همهم الأول زيارة صاحب الضريح والنيل من بركاته . . فتغص المساجد التى فيها الأضرحة بالناس على حين تكاد تتعطل المساجد المجاورة لها ! !

فالى أى مستند من كتاب أو سنة يستند الصوفية فى إقامة الأضرحة ؟

ألم يلعن الله الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ؟

ألم يسو التراب على رسول الله صلى الله عليه وسلم أشرف خلق الله عند الله سبحانه ، بعد دفنه ، فلم يكن هناك معلم على الأرض ، يعرف به قبره ، مما حوله من الأرض ؟

وهل أقيم فوق أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قبة أو ضريح فوق قبره ؟

أفيكون أصحاب هذه الأضرحة وتلك القباب، أعظم من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتباعه ؟ بل ومن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ؟

فماذا تقولون أيها المسلمون ؟ بل ماذا يقول علماء المسلمين ، وأصحاب العمائم الكبيرة فيهم ؟

إنهم لن يقولوا شيئاً ، بل إن كثيراً منهم ليحج إلى هذه القباب مرات كل يوم ، وإن قال قائل من هؤلاء العلماء كلمة حق في هذه الأضرحة وتلك القباب ، لم يقلها إلا همساً ، بينه وبين من يأمنه على سره ، خوفا من ثورة العمائم الكبيرة عليه ، ومحاربته في رزقه ! !

ويكفي أن نذكر المسلمين هنا بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما رواه مسلم عن أبي هريرة — رضى الله عنه :

« لأن يجلس أحدكم على جمرة ، فتحرق ثيابه ، فتخلص إلى جلده ، خير له من أن يجلس على قبر » .

والمراد بالجلوس على القبر ، ملازمة صاحب القبر ، للشكوى إليه ، أو طلب حاجة منه ، كما يفعل كثير من زوار القبور ، وخاصة إذا كان لصاحب القبر قبة أو ضريح ، يخيل منهما أن المقبور تحت أي منهما ، ولي من أولياء الله ! !

الحقيقة السادسة :

هذا الذي تفيض به كتب المتصوفة من حديث عن كرامات أصحاب

الأضرحة من أساطير وخزعبلات ، لا يقبلها عقل ذى عقل ، ولكنها تتدسس إلى عقول العامة ، فتصادف هوى عندهم ، وتنقلهم إلى عالم يشهدون فيه ما يشهد رواد « السينما » من أساطير ! !

والمعروف أن الموتى ، قد انتقلوا إلى دار غير هذه الدار ، وأنه لا صلة لهم بهذه الحياة الدنيا ، ومافيها ، وهم فى دارهم تلك موقوفون ليوم الحساب ، مشغولون بما قدموا من عمل . . من عمل صالحا منهم فهو نادم على أنه لم يزد فى إحسانه ، ومن كان على كفر وضلال ، فهو يقطع نفسه حسرات على أنه لم يكن من المؤمنين بالله ، العاملين بمرضاته . .

وإذن ، فكل ما ينقل عن الأموات من مقولات ، وما ينسب إليهم من أعمال يؤدونها للأحياء ، هو من المفتريات عليهم . . فقد ختم على أعمالهم ساعة موتهم ، ولو كان لهم عمل بعد موتهم لحسب لهم ، ولآمن الكافر ، ولا اهتدى الضال ، ولأحسن المسيء ، ولا بيضت صحائف جميع الناس ، ولما كان للنار أهلها الذين يعذبون فيها . .

ولكن المتصوفة مع هذا ، كذبوا على الأموات ، وافتروا عليهم ، بما نقلوه على ألسنتهم بعد موتهم من غرائب وعجائب . .

يقول محمد عثمان ، صاحب الطريقة البرهانية فى كتابه الذى سماه : تبرئة الذمة فى نصح الأمة » : « قيل لكل من سيدى أحمد الرفاعى ، وسيدى عبد القادر الجيلانى — فى عالم الأرواح [١] — « إن الله تعالى ، شفعك فى سبعين ألفا من الأمة المحمدية ! !

---

(١) اذا كان هذا الذى يرويه محمد عثمان عن هؤلاء الأمواب ، قد حدث فى عالم الارواح ، فمن شهد هذا الذى جرى فى هذا العالم ؟ انه فجور فى الكذب قد تجرد صاحبه من الحياء ، ومن العقل جميعا .

« ولما قيل لسيدى أحمد البدوى مثل أخويه — الرفاعى والجيلانى — طلب أن يملأ له فمه حسب طلبه، فوسع فمه أكثر من سبعين ألفا، أضعافا لها!!

« ولما قيل لسيدى إبراهيم الدسوقى ذلك، طلب أن يزاد له فى جسمه فزيد، ثم طلب أن يزداد أكثر فأكثر، فزيد، وهكذا، حتى سأله الجبار جل وعلا عما يريد من كبر جسمه، فقال: « يارب إنك قلت وقولك الحق فى كتابك العزيز: « لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » وأنا أريد أن أملأ جهنم وحدى، حتى لا يصلاها أحد!! فقال جل وعلا: أتتكرم على كريم يا إبراهيم؟ شفعناك فى سبعين ألفا، مع كل فرد سبعون ألفا.. وكل هذا غير من أخذ طريقك، وغير من دخل مقامك وزارك!! »

وهكذا أغلق إبراهيم الدسوقى أبواب النار، وفتح أبواب الجنان، كما روى عنه « الشعرانى » فى طبقاته، وقد أشرنا إليه فى ثنايا هذا البحث!

ولم يسأل صاحب الطريقة البرهانية نفسه، ولم يسأل أحد من أتباعه المريدين:

من شهد هذه المحاورة بين الله تعالى، وبين هؤلاء المذكورين، وهم فى عالم الأرواح؟ ألم يقل الله تعالى: « حتى إذا جاء أحدهم الموت، قال رب ارجعون، لعلى أعمل صالحا فيما تركت، كلا، إنها كلمة هو قائلها، ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون » (المؤمنون: ٩٩ — ١٠٠).

وإذا كان الله تعالى يقول: « لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » فكيف يريد الدسوقى أن يبطل قول الحق سبحانه، ويملأ هو جهنم وحده فلا يدخلها أحد غيره؟

ونكتفى بهذا المثال ، مما تفيض به كتب الصوفية ، مما يجعل الموتى من أصحاب الأضرحة ، يتصرفون فى هذا الوجود ، فيرزقون ، ويرفعون من شاءوا ، ويخفضون من أرادوا ، ويؤتون الملك من أحبوا ، وينزعون الملك ممن كرهوا ، ويعزون من رأوا ، ويذلون من شاءوا !!

« قل اللهم مالك الملك ، تؤتى الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء ، وتذل من تشاء ، بيدك الخير ، إنك على كل شىء قدير » (آل عمران : ٢٦) . .

الحقيقة السابعة :

هذه الكلمات الأعجمية ، أو الشيطانية ، التى لا مفهوم لها فى اللسان العربى ، التى يتحدث بها المتصوفة ، والتى تفيض بها كتبهم ، مما يموهون به على العامة ، بدعوى أن هذه كلمات ربانية ، تحمل أسراراً علوية ، إذا ذكر المتصوف الله بها ، أحلته منازل الأولياء ، وفتحت له صحف الغيب ، يطلع منها على ما يشاء !

ونسأل المتصوفة : من أى مصدر جاءوا بهذه الكلمات التى لا تعدو أن تكون مجرد أصوات لقصف ريح ، أو خرير ماء ، أو زقزقة عصافير ، أو اصطدام جسم بالأرض ، إلى غير ذلك مما لا يلتفت إليه الناس ، ولا يعدونه لغة يتفاهمون بها ؟

فهل روى عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أنه نطق بغير اللسان العربى ؟ وهل جاء فى القرآن الكريم كلمة أو كلمات لم تكن جارية على ألسنة العرب ؟

فإذا كان ذلك كذلك ، علم يقيناً أن المتصوفة الذين يتكلمون العربية إذا جاءوا فى كلامهم بما هو غير عربى ، سواء كان من اللغات الأعجمية أو حكايات لمنطق البهائم أو الطير أو الجن — هم مبتدعون ما جاءوا بهذه الكلمات إلا للتعمية والتمويه على الناس ، كما كان يفعل الكهان والسحرة فى الجاهلية ، الذين كانوا يرددون كلمات تلوكها ألسنتهم فى سجع منغم ، لا يفهم السامع منه شيئاً ، ولكنه يمتلىء دهشاً وعجباً ، يمكن للشيطان من أن يوسوس له ، بأن ما يسمع هو منزل من عالم الروح ، محملا بالنفحات والبركات !!

وما نطق المشعوذون الذين يغررون بالعوام ويستهوونهم — ما نطقوا إلا بمثل هذه الأصوات التى لا يفهم أحد لها معنى ، حتى ولا هؤلاء المشعوذون أنفسهم !!

فهل فى دين الله أسرار ؟ وهل فى شريعة الإسلام معميات ، حتى تعرض فى هذه العبارات ، التى يقال إنها محملة بالأسرار ، التى لا يعرف لها أحد معنى ؟

أليس ذلك من التعمية على المسلمين ، والانتقال بهم من الطريق المستقيم الواضح ، إلى طرق معوجة ، ومسالك معتمة ، لا يعرف سالكها : أين هو ؟ ولا إلى أى وجهة يتجه ؟

ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كلموا الناس بما يعرفون ، ودعوا ما ينكرون ، أتريدون أن يكذب الله ورسوله ؟ (رواه البخارى) .

ذلك أن الحديث إلى الناس بالأساليب الملتوية ، والكلام المبهم ،

الذى لا مفهوم له ؛ وبخاصة فى مجال العقيدة والشريعة — يوقع الناس فى أمر مريج ، وقد يتأوله متأول من الناس على ما يمليه هواه ، مما يخالف كتاب الله وسنة رسوله ، فيكذب بعد أن صدق ، وقد يكفر بعد أن آمن . .

ولقد كان من حكمة الله تعالى فى إرسال الرسل ، أن اختار كل رسول من قومه ليبلغهم رسالة ربه بلسانه ، الذى هو لسان قومه ، كما يقول تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » (إبراهيم : ٤) . ففى قوله تعالى : (ليبين لهم) إشارة إلى الحكمة من إرسال الرسول بلسان قومه حتى يفهموا عنه محتوى الرسالة التى أرسل بها إليهم من ربهم . . وإنه لو لم يكن فى التصوف إلا هذه الطلاسم والمغلزات التى لا يعرف أحد لها معنى لكان ذلك كافياً لاقتلاع جذور التصوف من أرض الإسلام ، حيث يكون الإسلام . .

فكيف وطابع المتصوفة مدموغ به كل عمل فاسد ، وسلوك معوج ، يظهر من المسلمين ، فى أمور دينهم ، أو دنياهم جميعاً ؟

الحقيقة الثامنة :

وينبنى على ما أشرنا إليه فى الحقيقة السابعة ، ما يدعيه المتصوفة على الإسلام ، من ظاهر ؛ وباطن ؛ وأن هناك ما هو ظاهر من دين الله ؛ هو خطاب للعوام ، وأن هناك باطناً ؛ اختص الله تعالى بفهمه المصطفين من عباده ،وهم المتصوفة ؛ أهل الولاية والكشف ! !

وهذا التلاعب بالكلمات ؛ ولى الألسنة بالألفاظ ؛ هو من تحريف الكلم عن مواضعه ؛ الذى هو السمة الغالبة على اليهود ، والتى استوجبت وقوعهم

تحت لعنة الله وغضبه ؛ وفى هذا يقول الله تعالى : « والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله ولياً ، وكفى بالله نصيراً ، من الذين هادوا يحرفون الكلم من بعد مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع ؛ وراعنا ؛ لياً بألسنتهم وطعناً في الدين، ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا ، واسمع وانظرنا ؛ لكان خيراً لهم وأقوم ، ولكن لعنهم الله بكفرهم ، فلا يؤمنون إلا قليلا » (النساء : ٤٥ ـــ ٤٦) ويقول سبحانه فى اليهود أيضاً : « أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ، وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون » (البقرة : ٧٥) . .

والمتصوفة الذين يلوكون الكلام الذى لا معنى له عندهم ، ولا مفهوم له عند غيرهم ، هم شر من هؤلاء اليهود ـــ إذا كان اليهود على علم بما يحرفونه وإن خفيت دلالته على غيرهم . . فاليهود والحال كذلك يتفاهمون بينهم بلغة رمزية يخفون معانيها المرادة منهم ، على من يسمعها من غير اليهود . . أما المتصوفة فانهم يحركون ألسنتهم بأصوات ـــ مجرد أصوات ـــ لا معنى لها عند من ينطق بها فضلا عن غيره من المتصوفة أو غير المتصوفة ! !

وبهذا اللغو من الكلام ، المبهم المغلق ، استطاع المتصوفة أن يخادعوا الناس ، وأن يقولوا : إن للاسلام شريعة ، وحقيقة ، بمعنى أن للاسلام ظاهرا هو ما يفهم من صريح كلمات الله ، وسنة رسوله ، وباطناً هو ما آثر الله تعالى بفهمه أهل الكشف والولاية ، وهم أهل التصوف ! !

وهذا القول بما تحمل كلمات الله ، وكلمات رسوله من معان باطنية ، هو مدخل لكل بدعة دخلت على دين الله من ذوى الأهواء الذين يكيدون

للاسلام فى كل زمان ومكان . . مثل فرق الباطنية ، وإخوان الصفا ، والقاديانية ، والبهائية ، والبرهانية ، وغير هؤلاء وهؤلاء . .

• ومن أصل بدع المتصوفة ادعاؤهم علم الباطن ، ووقوفهم على أسرار الشريعة التى حجب عنها غيرهم من المسلمين . . حتى لقد ألف « الغزالى » كتابه الذى أطلق عليه « المضنون به على غير أهله » والذى تحدث فيه عن أن هناك أسراراً علوية فى الإسلام ، لم تكشف إلا للخاصة من الناس ، على حين ضن بها على غيرهم من جماعة الأمة الاسلامية ، ومعنى هذا أن الله تعالى ، قد ضن بهذه المعارف عن أن تنالها عقول الأمة الاسلامية ، إلا أفراداً قليلين من هذه الأمة ، هم الذين أطلعهم الله تعالى على تلك المعارف . « سبحانك ، هذا بهتان عظيم » .

وهذا لا شك لا يتفق أبداً مع حكمة الله تعالى ، ومع ما أرسل به رسله من رحمة عامة لكل من أرسلوا إليهم ، والله تعالى يقول لرسوله الكريم ــ صلوات الله وسلامه عليه : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون » (النحل : ٤٤) فالكتاب الكريم ، منزل للناس جميعاً ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، مطلوب منه أن يبين ما فى الكتاب للناس كلهم ، لا فرق بين إنسان وإنسان ! ! وما يفتريه المتصوفة على عمر ــ رضى الله عنه ــ من أنه قال : كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم ، وأبى بكر وهما يتحدثان ، فكنت كالأعجمى بينهما » ــ هو افتراء على رسول الله أولا ، ومخالف مخالفة صريحة لسنته ، ففى البخارى ومسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : « إذا كانوا ثلاثة فلا يتناج اثنان دون واحد » .

والتناجى بين اثنين ، هو المسارة بالكلام ، بحيث لا يسمع الثالث ، ومثله الكلام بين اثنين بلغة لا يفهمها الثالث ، لأن ذلك مما يوقع فى نفسه سوء الظن بهما ، وأنهما ربما يدبران سوءاً به . .

فكيف يتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبى بكر ، رضى الله عنه ، بكلام لا يفهمه عمر ؟ فأى لسان هذا الذى كانا يتكلمان به ؟ أهو من هذا الكلام الرمزى الذى يتكلم به المتصوفة ؟ ذلك ما قصد إليه المتصوفة من افترائهم هذا الحديث المكذوب ، ليروجوا به ما يجرى على ألسنتهم وما فى كتبهم ، من شطحات ، ومعميات لا مفهوم لها ! !

وإنه لمحال على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يؤثر أبا بكر بحديث دون عمر ، وهما فى مجلس واحد معه .

وكيف ، والله تعالى يقول للنبى — صلى الله عليه وسلم : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » (الأنبياء : ١٠٧) . . فهو — صلى الله عليه وسلم : رحمة عامة للناس ، أشبه بالماء والهواء ، مما تقوم عليه حياة الأحياء . . وحياة النفوس ، بما يساق إليها من رحمة الله ، أولى مما تحيا به الأجسام .

ويقول جل شأنه للرسول الكريم — صلوات الله وسلامه عليه : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (سبأ : ٢٨) . .

وإذن ، فلا يصح أبداً أن يكون هناك فى شريعة الله ، ما ضن الله تعالى به على أحد من المدعوين إلى تلك الشريعة ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . ولو كان ذلك واقعاً فى شريعة الله تعالى — وهو محال — لكان للناس حجة

على الله إذ لم تبلغهم رسالة الله على تمامها وكمالها ، والله تعالى يقول : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا » (المائدة : ٣) .

وهل يكمل دين الله ، وتتم نعمته ، وقد حجب عن الكثرة الغالبة فيهم؟

ثم هذا ابن عربى ، وفصوص حكمه ، وما فاضت به تلك الفصوص من تأويلات فاسدة وما حملت من ألغاز ومعميات ، فلم يكتف بهذا ، بل أخرج للناس كتاباً أشد إيغالا فى الإلغاز والتعمية ، وسماه : « عنقاء مغرب فى ختم الأولياء ، وشمس المغرب » وهو كتاب كلما فيه طلاسم سحرية ، وعقارب شيطانية تشول بأذنابها ، وتنفث السم من أنيابها ، فلا ينجو من اطلع عليه ، إلا إذا استعاذ بالله منه ورمى به فى النار وقودا ! !

وابن عربى يشير فى عنوان الكتاب إلى نفسه ، وأنه ختم الأولياء ، وشمس المغرب ، وأن رسول الله — صلى الله عليه وسلم ، إذا كان شمساً أشرقت بنور الهداية من المشرق ، أى من بلاد العرب — فإن هذا الدعى ابن عربى ، قد جاء بشمس الهداية من المغرب ، أى من بلاد المغرب ، إذ كان أندلسيا ! !

ومجىء الشمس من المغرب . إنما يقصد به ابن عربى . قلب حقائق الإسلام وإطفاء نور الله . بشمسه الشيطانية : « والله متم نوره . ولو كره الكافرون » (الصف : ٨) .

ومن هذا البحر المظلم من العلم الباطن . قامت المتصوفة دعوى مفتراة على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — من أنه اختص « علياً » — رضى

الله عنه – بعلم لم يعلمه أحد من الصحابة – رضوان الله عليهم .

وهذا – كما أشرنا من قبل – كذب مفضوح ، وافتراء عظيم على رسول الله ، صلوات الله وسلامه عليه – إذ كيف يكتم رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من شريعة قد أمر بتبليغها والله تعالى يقول له : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل ، فما بلغت رسالته ؟ (المائدة : ٧٠) . . فهل يكون الرسول الكريم مبلغاً رسالة ربه ، إذا هو حجب شيئاً منها ، واختص به علياً أو غيره ؟

روى البخارى فى صحيحه ، أن أبا جحيفة قال : قلت لعلى : هل عندكم كتاب ؟ – أى شيء خصكم به رسول الله – قال : لا ، إلا كتاب الله ، أو فهم أعطيه رجل مسلم ، أو ما فى هذه الصحيفة » . قلت : وما فى هذه الصحيفة ؟ قال : العقل[1] ، وفكاك الأسير ، ولا يقتل مؤمن بكافر » . . وهذا ما لم يختص به على ، بل هو مما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سمعه غيره من الصحابه ، فقيده فى كتاب ، كما كان يفعل كثير من الصحابة فى كتابة ما كانوا يسمعون من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولكن الصوفية ، تأولوا هذا ، الحديث تأويلا فاسداً ، حيث يسندون علم الباطن إلى على رضى الله عنه ، فهو عندهم القطب ، الذى يتوارثون لبس الخرقة عنه ، ومن هذه الخرقة تتنزل عليهم الولاية ، ويفتح

---

(١) وهو اداء دية القتيل ، يقال ، عقل القتيل : أدى ديته ، وعقل عن فلان : أدى عنه مالزمه من دية ، وعقل له دم فلان ، ترك القاتل ، ورضى بالدية .

لهم باب الاطلاع على ما فى « الجفر »[1] الذى نسبوه إلى على رضى الله عنه زوراً وبهتاناً ! !

وهذا باب واسع فتحه الصوفية للمشعوذين الذين يغررون بالعوام وأشباه العوام ، وما يدعون لهم من القدرة على شفاء المرضى ، وقضاء الحاجات ، والتقريب بين المحبين ، إلى غير ذلك من الأباطيل ! !

فهل يكون من مصلحة الإسلام والمسلمين ، أن يظل هذا الباب مفتوحاً ؟ نريد جواباً على هذا ممن يغارون على دين الله ، وشريعة الله . فهل نسمع جواباً ؟

الحقيقة التاسعة :

حديث المتصوفة عن الأموات ، وبخاصة أصحاب الأضرحة والقباب من شيوخهم ، وبعث هؤلاء الموتى من قبورهم إلى الحياة الدنيا ، وتصرفهم فى حياة الناس فيها وقيامهم على تصريف شئون العباد ، بالأقطاب والأبدال والأوتاد ، وغيرهم ممن تقوم منهم هـذه الحكومة ذات السلطان المطلق — هذا الحديث من المتصوفة عن أولئك الموتى ، قد أفسح المجال لنشر تلك البدعة ، والتى تعرف فى هذا العصر بتحضير الأرواح !

والإسلام يقرر فى صراحة صريحة أن الأموات قد انتقلوا إلى دار

---

(٢) الجفر : جلد ثور ، يدعى الشوفية ان عليا — رضى الله عنه — قد كتب فيه ما اختصه النبى صلى الله عليه وسلم من انباء الغيب الى ان تقوم الساعة ومنه استولد المشعوذون علم الحروف ، وحساب الجمل المعروف عند اليهود .

غير هذه الدار التي يعيش فيها الأحياء ، وأنه لا عودة لميت إلى هذه الدنيا ولا مبعث له ، إلا حين تقوم الساعة للحساب ، والجزاء . . والله تعالى يقول : « حتى إذا جاء أحدهم الموت ، قال رب ارجعون ، لعلى أعمل صالحاً فيما تركت ، كلا ، إنها كلمة هو قائلها ، ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون » (المؤمنون : ٩٩ — ١٠٠) إنه لا رجعة لميت إلى هذه الحياة الدنيا ، إلى يوم البعث .. وإلا لكان لكل كافر أن يؤمن ، ولكل مسيء أن يحسن ولكل محسن أن يزداد إحساناً ، بعد أن يرى العالم الآخر ، وما أعد الله لأهل البغي والضلال فيه ، من عذاب ونكال ! !

ويقول الحق سبحانه ، فيما يكون عليه الميت عند النزع ، وأهله بمشهد منه : « فلولا إذا بلغت الحلقوم وأنتم حينئذ تنظرون ، ونحن أقرب إليه منكم ، ولكن لا تبصرون ، فلولا إن كنتم غير مدينين[1] ترجعونها إن كنتم صادقين » (سورة الواقعة : ٨٣ — ٨٧) .

وقد اتسع مجال تلك الحركة الشيطانية ـ حركة تحضير الأرواح ـ في أوربا وأمريكا ، ودخلت في مجالات الدراسة العلمية في الجامعات ، وقام عليها أساتذة متخصصون في هذا المجال ، حيث تعقد الجلسات لتحضير ما يزعمون أنه أرواح ، وما هي إلا شياطين ، تحضر باسم الميت الذي يدعونه ، فيتحدث الشيطان باسمه ، وقد يتخايل في صورته ، وقد يخبر بأمور عن الميت يشهد أهله بصدقها ، وقد يدلهم هذا الروح الشيطاني على

---

(١) اى خاضعين لسلطان الله ، لا تملكون شيئا من هذا السلطان .

أشياء للميت لا يعلمها أهله . . ومن هنا يتمكن الشيطان من أوليائه ، فيكثر المؤمنون بتحضير الأرواح ، ويتهالكون على حضور مجالسها .

والكيد الذى يكيده الشيطان من هذه التمثيلية الهزلية ، هو أنه إذا سئل هذا الروح الشيطانى ، الذى يتحدث باسم الميت الذى يوهمهم أنه هو الروح الذى استدعوه — إذا سئل هذا الروح عن حاله فى حياته بعد موته ، أجاب بأنه سعيد يعيش فى نعيم ورضوان فى صحبة الموتى من أهله ، وأصدقائه ، وقد يكون هذا الميت من الكافرين الملحدين ، وقد يكون من الحكام الطغاة الذين أفسدوا فى الأرض ، وهتكوا الأعراض ، وسفكوا الدماء ، وسلبوا الأموال .

وهذا هو الذى تبغيه الشياطين من هذه التمثيلية الهزلية ، حيث يخف عند الناس ميزان الخلق ، وتضيع معالم الإحسان ، ويتساوى الإيمان والكفر والهدى والضلال !!

وإذا كان الغرب قد تسلط عليه من سلطان المادية الغليظة ، ما ذهب بمعالم الروح فى أفراده وجماعاته ، وشعوبه ، فحمله ذلك على أن يستجلب أرواح الموتى ، ليستعيض بها عن روحه التى فارقته ، وليجد فيها بعض العزاء عن روحه الغاربة — إذا كان ذلك شأن العالم المادى ، فإن من الظلم لأنفسنا ، والعدوان على حقائق ديننا ، أن ننساق مع الغرب المادى فى هذه البدعة ، وأن نتقبل ما تلقى به الشياطين إلينا من أخبار عن هذا العالم الغيبى ، الذى يعيش فيه الراحلون عن هذه الدنيا ، والذى لا يعلم ما فيه إلا الله ، علام الغيوب .

ولقد لعبت بدعة تحضير الأرواح بكثير من العقول فى أوساط المسلمين ، حتى لقد رأينا فى بعض البلاد الإسلامية أساتذة مسلمين فى الجامعات ، يتولون كبر هذا الضلال ، ويستهوون كثيراً من المثقفين بشهود جلساتهم التى يعقدونها بدعوى تحضير الأرواح .

وأكثر من هذا ، فإنه قد نشرت عن ذلك كتب ، وصدرت مجلات متخصصة فى تحضير الأرواح ، يتداولها الناس فى المجتمع الإسلامى !

وإذا كان العلم الذى انتشر فى أوساط المسلمين اليوم ، قد أدى إلى انكماش ظل هذه الخرافات التى ينكرها الدين ، ولا يصدقها العقل السليم — فإن المتصوفة — والمتصوفة وحدهم — هم الذين لا ينكرون تحضير الأرواح ، بل يرون فى هذا شاهداً يشهد لهم بما يقولون عن شيوخهم الموتى ، وما لهم من كرامات وأياد مباركة على من يتوسل بهم ، ويطوف بأضرحتهم . . فإذا دعاهم أجابوه ، وإذا طلب مشاهدتهم جاءوا إليه ، وإذا مد يده للتسليم عليهم مدوا أيديهم إليه مصافحين . .

يقول ابن تيمية ، رضى الله عنه ، فى كتابه : « الفرقان بين أولياء الرحمن ، وأولياء الشيطان » — ذاكرا عن بعض شيوخ المتصوفة هذه الحادثة - يقول :

« ومن هؤلاء ، شيخ كان بمصر ، وقد أوصى خادمه ، فقال : « إذا أنا مت ، فلا تدع أحداً يغسلنى ، فأنا أجىء ، وأغسل نفسى » . . فلما مات عمل الخادم بوصيته ، ولم يدع أحداً يغسله ، وقال لمن حضروا جنازته : إن الشيخ سيأتى ، ويغسل نفسه !!

« ثم رأى خادمه شخصاً فى صورة الشيخ ، فاعتقد أنه هو ، ودخل وغسل الميت ، فلما انتهى ذلك الداخل من غسل الشيخ خرج ! »

ويعلق ابن تيمية — رضى الله عنه — على هذا بقوله : « وكان ذلك شيطاناً ، كان قد أضل الميت قبل أن يموت ، وقال له : إنك بعد موتك ، تجىء وتغسل نفسك ، فلما مات ، جاء ذلك الشيطان في صورته ، وفعل مافعل »!!

ونقول : لو كان هذا الشيخ ، مؤمناً بالله حقاً ، فاقها لشريعته ، أكان يقبل هذا الضلال ، ويصدق تلك الخدعة الشيطانية ؟ وهل فى تاريخ الأمة الإسلامية ميت جاء فغسل نفسه ؟ وهل من صحابة رسول الله من فعل هذا ؟ وهل غسل النبى الكريم نفسه ؟ وهل أوصى بألا يغسل ، وهو الطاهر المطهر ، جسداً وروحاً ؟

ولكنه الشيطان ، وما له من سلطان على أوليائه !

فهل يترك المتصوفة هذه البدعة ؟ وهل يدعون الموتى حيث هم فى عالمهم البرزخى ، الحاجز بينهم وبين الدنيا وأهلها ؟

وهل تهدم هذه القباب المقامة على الأموات ، حتى لا تكون راية ضلال ، تفسد عقيدة المؤمنين ، وتغتال دينهم ؟

إن أصحاب هذه القباب ، لو كان لهم أن يرجعوا إلى هذه الدنيا وهيهات ، وهيهات — لقطعوا أيدى من أقاموها ، ولألهبوا بالسياط ظهور من يتضرعون إليهم ويتمسحون بأضرحتهم !!

الحقيقة العاشرة :

من بدع المتصوفة ، هذه الأذكار التى يجتمعون عليها ، ويرددون فيها

ألفاظا وعبارات ، وهم قائمون على أقدامهم ، يترنحون شمالا ويميناً ، وأماماً وخلفاً على التصفيق بالأيدى ، أو الضرب على الدفوف ، أو النفخ بالمزامير ، وعلى رأس الجماعة شيخ ينشد أشعار الوله ، والغزل ، والحب ، فتأخذ الجماعة لذلك نشوة صارخة وسكرة معربدة ، وإذا كل واحد منهم يصرخ صرخات مجنونة ، مدعياً أنه فى حالة وجد ، أو تواجد مع الله .. وما درى أنه مع الشيطان !

فذكر الله ، إنما هو بتلاوة القرآن الكريم ، أو الاستماع إليه ، بألسنة طاهرة ، بقلوب مطمئنة ، وعقول متدبرة ، وفى هذا يقول الله تعالى : « وإذا قرئ القرآن . فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون » (الأعراف: ٢٠٣) ويقول سبحانه : « إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم » (الاسراء : ٩) .. ولا هداية إلا بتلاوة لآيات الله ، وتدبر لها ، وعلم بما تحمل من أنوار الحق، ثم عمل بما تحمل !

وإنه ليس من ذكر الله فى شيء ، إذا كان هذا الذكر صراخا وعويلا يستهلك قوى الإنسان ، ويذهب بوعيه ، ويهدد وحدة مشاعره ، والله تعالى يقول : « واذكر ربك فى نفسك تضرعا وخيفة ، ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ، ولا تكن من الغافلين » (الاعراف : ٢٠٤) . ويقول سبحانه : « ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا » (الإسراء : ١١٠) ..

إن ذكر الله سبحانه ، هو مناجاة بين العبد وربه ، ولا تكون المناجاة أبداً صراخاً وصياحاً ..

روى مسلم فى صحيحه ، عن أبى موسى الأشعرى — رضى الله عنه — قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى سفر ، فجعلوا (الناس) يجهرون بالتكبير ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أيها الناس اربعوا على أنفسكم [1] إنكم لاتدعون أصم ولا غائباً ، إنكم تدعون سميعاً بصيراً ، وهو معكم » .

فهذه البدع من الصوفية . إنما هى للفت الأنظار إليهم ، والاعلان عنهم بأنهم أولياء الله ، الذاكرون له بتلك الصورة المستحدثة التى لا يعرفها إلا أهل الله !!

ثم هذه الجموع الزاحفة من المتصوفة فى موالد أصحاب الأضرحة ، والتى ينتظم فيها أصحاب الطرق ، كما يصف الجنود فى لقاء الأعداء — وإذا كل شيخ طريقة ، يتقدم أتباعه ومريديه ، راكباً بغلة أو حصانا ، وقد زين رأسه بعمامة كبيرة ذات ألوان وأصباغ ، دالة على طريقته ، وإذا أتباعه من ورائه يتشحون بأوشحة مزخرفة ، خاصة بطريقتهم ، وبأيديهم الدفوف ، يرقصون على نغماتها ، ويزحمون الطرق بأعلامهم ، ويزعجون الناس بضجيجهم !!

أفهذه عبادة من عبادات المؤمنين ؟ أو هذا ذكر من ذكر الله يذكر به المؤمنون ربهم ؟ وهل سبق المتصوفة إلى هذا أحد من السلف ؟

فاذا لم يكن هذا ، فكيف يراه المسلمون ولا ينكرونه ، وإذا أنكروه بألسنتهم ، فلم لا ينكرونه بأيديهم ، والدولة دولتهم ؟

إن هذه البدع من الذكر ، والاحتشاد فى الموالد لأصحاب الأضرحة قد أنكرها العقلاء ، حتى ولو لم يكونوا أهل دين ، بل ربما كانوا من المتهمين فى دينهم .

---

(١) أى ارجعوا على انفسكم باللوم على ما انتم فيه من رفع اصواتكم .

فها هو ذا أبو العلاء المعرى (٣٦٣ — ٤٤٩ هـ) ينكر هذا العبث الصبيانى الجنونى، من المتصوفة فى أذكارهم، وترنحاتهم، ومواجيدهم، فيقول:

أرى جيل التصوف شر جيل ... فقل لهم، وأهون بالحلول[1]
أقال الله حين عشقتموه ... كلوا أكل البهائم وارقصوا لى؟

إن أبا العلاء، يرى — بحق — أن الدين سلوك، لا رسوم، ولا صور من أشكال العبادات الخارجة على الدين — رياء، أو استعلاء على العامة مما لا يزكو به ثمر ينفع الإنسان فى دنيا أو دين.. إذ ليست العبادات مقصودة لذاتها، وإنما هى مورد لتطهير الإنسان، وتنقية فطرته مما خالطها من أهواء النفس، ووساوس الشيطان.. وفى هذا يقول أبو العلاء عن هؤلاء المتنطعين فى العبادة ولا أثر لعبادتهم فى خلق أو سلوك.

يقول:

أم الكتاب إذا قومت محكمها ... وجدتها لأداء الفرض تكفيكا
لم يشف قلبك قرآن، ولا عظة ... وآية لو أطعت الله تشفيكا
إياك عنى، فأخشى أن تحرقنى ... فإنما تقذف النيران من فيكا

إنها علة قديمة وداء تتوارثه الأجيال، تلك البدعة التى ظهرت فى الإسلام باسم التصوف، حيث جمعت تحت جناحها أخلاطا كثيرة من الناس.. منهم المؤمنون، وأكثرهم الفاسقون.

ففى جماعات المتصوفة، المنافقون، والمدلسون، والمشعوذون، الذين

---

(١) اى ما يدعيه كثير من طوائفهم بحلولهم فى الله، وحلول الله فيهم !!

لا يعملون ، ويأكلون عمل العاملين ، ويدعون إلى الزهد ، وهم فى شره قاتل، ويدعون إلى القناعة ، وهم لا يشبعون أبدا.

يقول أبو العلاء فى ناسك المتصوفة وزاهدها ، محذرا من ختله وخداعه:

روبدك قد غررت وأنت حر — بصاحب حيلة يعظ النساء
يحرم فيكم الصهباء صبحا — ويشربها على عمد مساء
يقول لكم غدوت بلا كساء — وفى لذاتها رهن الكساء
إذا فعل الفتى ما عنه ينهى — فمن جهتين لا جهة أساء

●✶●

وبعد، فيا أمة الإسلام ، ويا أيها المسلمون ، ويا أولياء الأمور :

هذه سموم المتصوفة ، تنفث فى العالم الإسلامى تلك المهلكات التى تغتال العقول وتقتل الهمم ، وتعطل القوى العاملة فى مناشط الحياة ، حتى تعطلت عندنا كثير من مرافق العمل ، وأصبحنا عالة على أمم الغرب ، فى كل ما نقيم عليه حياة أجسامنا وعقولنا .

ويا أمة الإسلام ، ويا أيها المسلمون ، ويا أولياء الأمور فينا :

أما يكفى ما يساق إلينا من أعدائنا وأعداء ديننا ، من المذاهب الفاسدة ، والمعتقدات الضالة ، التى غررت بكثير من شبابنا ، وكادت تعزلهم عن الولاء لدينهم ولغة دينهم ؟ أما يكفى هذا البلاء الذى يساق إلينا من خارج أوطاننا حتى ندع هذه البدع وتلك الضلالات التى ينشرها فينا شيوخ المتصوفة ، ومن يدورون فى فلكهم من ألوف المريدين والتلاميذ ، الذين لو تخلصوا مما هم فيه من هذا الضلال الذى وقعوا فيه ، لكانت منهم قوة تبنى ما انهدم من أمجادنا ، وتقيم ما تصدع من عزتنا .

هذه دعوة خالصة لوجه الله تعالى ، نؤذن بها على رءوس الأشهاد ، إبراء لذمتنا وأداء لحق الله ورسوله والمسلمين علينا .

فمن كانت له أذنان ، فليسمع ، ومن كان له مكان فى هذا الميدان فليعمل .. فالبدار البدار ، قبل أن يفلت الزمام ، ويستعصى الداء ، ويعز الدواء .

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » صدق الله العظيم .

وصلى الله على سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه ، والتابعين ، وسلام على المرسلين .

والحمد لله رب العالمين ؟

الفهرست

صفحة

الباب الرابع

عالم التصوف : بين الظاهر والباطن

الباب الخامس

التصوف .. وطرائقه ، ومعمياته

صفحة





كتب للمؤلف

التي تلتزم طبعها ونشرها وتوزيعها دار الفكر العربي

- التفسير القرآني للقرآن ١٦ كتاب في خمس مجلدات
- الله .. والإنسان
- الله .. ذاتا وموضوعًا
- إعجاز القرآن « الإعجاز في دراسات السابقين »
- إعجاز القرآن « الإعجاز في مفهوم آخر »
- النبي محمد صلى الله عليه وسلم « نبي الإنسانية ونبي الأنبياء »
- القضاء والقدر بين الفلسفة والدين
- من قضايا القرآن
- عمر بن الخطاب « الوثيقة الخالدة للدين الخالد »
- علي بن أبي طالب
- الإنسان في القرآن الكريم من البداية إلى النهاية
- الإنسان والشيطان
- الخلافة والإمامة في الإسلام
- السياسة المالية في الإسلام
- تفسير سورة الرحمن
- القصص القرآني
- قصتا آدم ويوسف "عليهما السلام"
- الدعاء المستجاب
- قضية فلسطين « رأي الإسلام عنها ورأي المسلمين فيها »
- الإسلام في مواجهة العصر وتحدياته
- المهدي المنتظر .. ومن ينتظرونه